سلسلة مخطوطات الفاطميين — ١١

سيرة الأستاذ جوذر

وبه توقيعات الأئمة الفاطميين

تصنيف

أبي علي منصور العزيزي الجوذري

تقديم وتحقيق

الدكتور محمد كامل حسين
أستاذ الأدب المصري بكلية الآداب
بجامعة القاهرة

الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب
بجامعة إبراهيم

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

سلسلة مخطوطات الفاطميين — ١١

سيرة الأستاذ جوذر

وبه توقيعات الأئمة الفاطميين

تصنيف

أبى على منصور العزيزى الجوذرى

تقديم وتحقيق

الدكتور محمد كامل حسين
أستاذ الأدب المصرى بكلية الآداب
بجامعة القاهرة

الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب
بجامعة ابراهيم

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

مطبعة الاعتماد بمصر

الفهرست الموضوعى

صفحة

صفحة

توقيعات المعز إلى جوذر

ت

ت صفحة

ت — صفحة

تقـــــديم المحققين
لكتاب سيرة جوذر لمنصور الكاتب

— ١ —

حى الجودرية وجودر

فى القاهرة الآن شارع وحارة وعطفة تحمل كلها اسم الجودرية ، ويتألف منها حى يعرف بحى الجودرية بضم الجيم وبدال مهملة ، وهو حى قديم ، حاول المؤرخون أن يتحدثوا عن صاحبه ، فقال القلقشندى :

« الجودرية تعرف بطائفة يقال لهم الجودرية من الدولة الفاطمية نسبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدى أبى الخلفاء الفاطميين . اختطوها وسكنوها حين بنى جوهر القاهرة ، ثم سكنها اليهود بعد ذلك إلى أن بلغ الحاكم الفاطمى أنهم يهزأون بالمسلمين ويقعون فى حق الإسلام ، فسد عليهم أبوابهم وأحرقهم ليلا » [١] .

وقال المقريزى فى خططه : « حارة الجودرية ، هذه الحارة عرفت بالطائفة الجودرية أحد طوائف العسكر أيام الحاكم بأمر الله على ما ذكره المسبّحى ، وقال ابن عبد الظاهر : الجودرية منسوبة إلى جماعة اختطوها وكانوا أربعمائة ، ولها حكاية سمعت جماعة يحكونها وهى أنها كانت سكن اليهود فبلغ الخليفة الحاكم أنهم يجتمعون بها فى أوقات خلواتهم ويغنون .

وأمة قد ضلوا ودينهم معتل
قال لهم نبيهم نعم الإدام الخل

ويسخرون من هذا القول ويتعرضون إلى مالا ينبغى سماعه ، فأتى إلى أبوابها وسدها عليهم ليلا وأحرقها [٢] » .

وأجمل أبو المحاسن ابن تغرى بردى القول فذكر أن الجودرية منسوبة إلى جماعة يعرفون بالجودرية اختطوها وكانوا أربعمائة رجل منسوبون إلى جودر خادم المهدى [٣] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٧ .

(٢) المقريزى : خطط ج ٣ ص ٦ ، ٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١ .

ووصف على باشا مبارك فى الخطط الجديدة التوفيقية حى الجودرية فى أيامه وصفاً دقيقاً لا تزال بعض معالمه إلى الآن . ثم نقل ما رواه المقريزى عن ابن عبد الظاهر[١] . وكذلك ورد ذكر جودر والجودرية فى قصص ألف ليلة وليلة الشعبية .

هؤلاء فيما نعلم هم الذين تعرضوا للحديث عن الجودرية ونسبتها ، ونلاحظ أن هؤلاء المؤرخين لم يوفقوا فى الحديث عن الجودرية وعن جودر نفسه ، فالجميع يرسمون اسمه بالدال المهملة ، وهذا دليل على أنهم رسموها حسب نطق المصريين ، وأرادوا التعريف بالجودرية حسبما اتفق لديهم من أخبار ناقصة ، ولنا أن نقطع بأنهم لم يطلعوا على هذا الكتاب الذى ننشره الآن ، فهو يحدثنا عن حياة جوذر (بالذال المعجمة) الذى تنسب إليه الجودرية على لسان أحد مواليه المنسوبين إليه وهو نفسه الذى خلف جوذر فى رياسة الجودرية وفى أكثر المناصب الرسمية التى كانت لمولاه .

فهذا الكتاب يكشف عن حقيقة تاريخية هامة بالنسبة لطائفة كبيرة من الناس نسبوا إلى أحد كبار رجال الدولة الفاطمية وهو جوذر الذى كان يجمع أسرار الدولة كلها فى العهد الفاطمى الأول وسنرى أنه كان الشخصية الثالثة فى الدولة بعد الإمام وولى العهد .

وقد يكون من الطريف أن يعكف بعض الدارسين على دراسة أحياء القاهرة دراسة علمية ليكشفوا لنا عن دورها فى تاريخ العاصمة من جميع نواحيه .

— ٣ —

مؤلف الكتاب

لا نكاد نعرف شيئاً كثيراً عن أبى على منصور العزيزى الجوذرى مؤلف هذا الكتاب بالرغم من أنه كان يتولى مناصب إدارية هامة ولم يرد له ذكر فى كتب التاريخ التى بين أيدينا إلا ما أورده المقريزى وما كتبه هو عن نفسه فى هذا الكتاب . فهو يقول إنه دخل خدمة جوذر كاتباً له سنة ٣٥٠ هـ ، وأن جوذر « آثرنى بما أنا لنيه

---

(١) على مبارك : الخطط الجديد ج ٣ ص ٢٩ ، ٣٠ .

من جزيل الرتبة وشرف المنزلة عنده ، وجعلني واسطة بينه وبين الخدام تحت يديه واستحفظني على ما يجرى بينه وبين مولانا وسيدنا الإمام المعز لدين الله صلوات الله عليه من الأسرار مما تضمنته التوقيعات وجرت به المشافهات والكتب الواردات عليه من كل الجهات حتى أنى لم أك شيئاً مذكوراً فجعل منى أشياء مذكورات »(١) .

ويقول المؤلف بعد ذلك فى آخر الكتاب «ثم أسعدنى الله بخدمتى له، وأدركنى من بركاته ما أوجب لى فى قلب وليه مولانا وسيدنا قدس الله روحه الرأفة فصيرنى مكانه مقدماً على أسبابه وجميع أصحابه، وإلى الله أرغب بخالص الطلبة أن يختم لى بمثل ما ختم له، وأن يعين على المفترض من طاعة وليه وابن نبيه وخيرته من خلقه وخالصة عباده عبدالله ووليه نزار أبى المنصور الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين »(٢) هذا أهم ماذكره عن نفسه بنفسه فى هذا الكتاب .

ونحن لاندرى شيئاً عن أصله وإن كانت نسبته إلى جوذر ثم إلى الإمام العزيز تدل على أنه من الموالى ويغلب على الظن أنه صقلى فالملاحظ أن عبيد الفاطميين فى الدور الإفريقى كانوا على الأغلب من الصقالبة ، ولا نعرف شيئاً عنه إلى أن أخبرنا هو أنه دخل فى خدمة جوذر وتولى الكتابة له ، ووظيفة الكتابة من المراكز الكبيرة فى النظم الإسلامية كانت تؤهل صاحبها إلى أكبر مراتب الدولة حتى الوزارة، وبصفته كاتب جوذر اطلع كما نرى فى هذا الكتاب على الوثائق المتبادلة بين جوذر والأئمة بما احتوت من أسرار هامة ، وكان يحتفظ عنده بهذه الوثائق إلى أن دفعه الوفاء إلى أن يصنف هذا الكتاب مستعيناً بما احتفظ به من هذه الوثائق التاريخية الخطيرة ، وهناك نص آخر فى هذا الكتاب يصور مدى المنزلة الرفيعة التى بلغها المؤلف لدى مولاه جوذر ، فقد كان مولاه يسمح له بالجلوس بين يديه «وكان من تطوله علىّ وامتنانه وتفضله وإحسانه أن بسطنى وآنسنى بنفسه وأمرنى بالجلوس بين يديه ومحادثته»(٣) .

فكان يحدثه بما شاء ويسأله عما شاء شأن الخلطاء مع الاحتفاظ التقليدى

---

(١) سيرة جوذر هذه الطبعة ص ٣٣

(٢) سيرة جوذر ص ١٤٧

(٣) سيرة جوذر ص ٣٣

بمقام الولى وأدب المولى ، وكان من نتيجة هذه الخلطة أنه استطاع أن يطلعنا على كثير مما شافهه به جوذر .

ثم إننا نستنتج من اختيار المعز والعزيز للمؤلف ليخلف مولاه جوذر أن المؤلف لم يكن محلا لثقة جوذر وحده ، بل كان فى نفس الوقت محلا لثقة الأئمة أنفسهم عن طريق جوذر، وكان مثل جوذر فى طاعته وتقديسه للأئمة وحرصه على الوفاء لهم .

ونحن نعرف من الكتاب الذين اتصلوا بجوذر قبله : محمد بن عثمان الكاتب ورشيق، أما رشيق فكان من وجوه الناس الذين خرجوا فى بعض الحملات مع الإمام القائم ثم توفى فى ظروف لا نعرفها سنة ٣٥٠ هـ وخلفه مؤلف هذا الكتاب الذى امتد به الأجل إلى أن حل محل مولاه جوذر . أما محمد بن عثمان فقد انتقل من خدمة جوذر إلى خدمة الأئمة وأصبح ذا درجة رفيعة فى البلاط الفاطمى ، وكان أحد الثلاثة الذين حضروا غسل جوذر .

ونحن لا نزال نفتقر إلى أخبار تعرفنا باقى حياة منصور الكاتب مؤلف هذا الكتاب فالمصادر التى بين أيدينا شحيحة ، ولم يذكره سوى المقريزى فى معرض حديثه عن الجودرية إذ يقول : «أبو على منصور الجودرى الذى كان فى أيام العزيز بالله وزادت مكانته فى الأيام الحاكمية فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك»[1] هذا كل ما نعرفه ويبدو أن أمره انتهى أيام الحاكم على صورة ما ، ولا ندرى صلة المؤلف برجل كان اسمه جوذر الصقلى كان من الجودرية فى الأيام العزيزية ثم ضرب عنقه ونهب ماله سنة ٣٨٦ فى عهد الحاكم .

وملخص كل ذلك أن أثر المؤلف كله ضاع ، وصار يتلخص فى كلمة المقريزى أنه كان ذا مكانة ، حتى خلده هذا الكتاب وجعله من أصحاب فن السير ، وكل ذلك بفضل خصلة الوفاء فيه .

---

(١) المقريزي : خطط ٣ ص ٧

— ٣ —

منهج المؤلف

أراد المؤلف أن يكون موضوعيا فعدل عن الطريقة المألوفة عند أصحاب السير والمناقب الذين يسلكون طريق الرواية ويسردون لنا أخبارا مروية ويؤثرون رواية الطرائف من حياة المترجم له ، لتكون هذه الأخبار والطرائف ذات دلالة أخلاقية من الكرم والتقوى ورجاحة العقل والعلم وما إلى ذلك ، ولكن المؤلف فى هذا الكتاب عدل عن هذه الطريقة إلا فيما قل ، وشاء أن يعطينا صورة من تكريم الأئمة الفاطميين لجوذر وعما كان لجوذر من مكانة رفيعة فى الدولة وعن صلة جوذر بكبار الأعيان فى الدولة الفاطمية فى المغرب فلم يجد أصدق من إيراد صور توقيعات صدرت من الأئمة إلى جوذر بناء على « استئمارات » رفعها إلى الأئمة ، وقد وفق المصنف إلى تصوير ما أراد تصويره من حياة جوذر . فمن نصوص هذه الوثائق نعرف ، فى دقة غير منتظرة ولا معهودة من قبل : الوظائف الرسمية التى شغلها جوذر فى البلاط الفاطمى فى المغرب . بل تفتح بهذه الوثائق نوافذ تطل على حياة جوذر الرسمية وتنير سبل الكشف عن بعض النواحى الاجتماعية والسياسية فى الدور الفاطمى الأول . وبفضل هذا المنهج جاء كتابه مرجعا تاريخيا من الدرجة الأولى على خلاف كثير من السير التى تكاد أن تفقد قيمتها لتوخى أصحابها المبالغة فى التكريم . ومن هذه الطريقة التى سلكها منصور فى التأليف نتبين أنه كان رجلا ناضجا يعرف هدفه ويصل اليه فى دقة تامة دون التجاء إلى خيال الأدباء ومدح المادحين من أصحاب المناقب والسير .

ومن الطريف أن نذكر هنا أننا لا نكاد نجد لهذا المنهج مثيلا سوى منهج كتاب آخر لمؤلف معاصر له من نفس مذهبه وهو القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى التميمى فى كتابه « المجالس والمسايرات »(١) ، فكلا الرجلين اتصل بالأئمة الفاطميين صلة وثيقة ، فاتصل النعمان بالمهدى والقائم والمنصور والمعز على نحو ما اتصل أبو على منصور الجوذرى بالمعز والعزيز والحاكم ، وكل منهما تمكن بفضل هذا الاتصال من الاطلاع على بعض الوثائق من توقيعات وغيرها

(١) يعد المحققان هذا الكتاب للطبع وسيظهر قريبا إن شاء الله .

بل تمكن أيضاً من حيازة بعضها ، وكلاهما استغل هذه الوثائق التاريخية فى تآليفه فكتاب المجالس والمسايرات يحتوى على كثير من المشافهات والتوقيعات الصادرة عن الأئمة إذ قد اشترط المؤلف على نفسه فى كتابه هذا « أن أذكر فى هذا الكتاب ما سمعته من المعز لدين الله صلوات الله عليه من حكمة وفائدة وعلم ومعرفة عن مذاكرة فى مجلس أو مقام أو مسايرة وما تأدى من ذلك إلى عن بلاغ أو توقيع أو مكاتبة على تأدية المعنى من اللفظ دون حقيقته بلا زيادة ولا نقص بعد بسط العذر فى التخلف عن تأدية حقيقة لفظه بحسبه »[1] والفارق مع ذلك كبير بين أبى على منصور الجوذرى وبين القاضى النعمان . فأبو على منصور أورد الوثائق نفسها بلفظها الدقيق وترك المجال لها دون أن يطنب فى التعليق . أما القاضى النعمان فأورد الوثائق بمعناها وأطنب فى التعليق إطنابا كبيرا ، ولكل من هاتين الطريقتين مزاياها القيمة

— ٤ —

موضوع الكتاب

هذا الكتاب من كتب السير . وهذا النوع من التأليف كان من الأنواع المحببة إلى نفوس رجال الأدب والتاريخ والشعب منذ أقدم العصور إلى الآن . وكان لذلك الفن شأن كبير فى مصر . نراه ممثلا فيما تركه فراعنة مصر من سير منقوشة على جدران المعابد والمقابر أو مدوناً على أوراق البردى ، ونرى هذا الفن فى العصر القبطى فيما تركه الآباء البطاركة من سير القديسين والآباء الصالحين ، وهى كثيرة جداً ، وكان هذا الفن ممثلا فى مصر الاسلامية فيما كتبه ابن هشام . وهو مصرى إقامة ، من سيرة الرسول ، وما صنفه معاصره عبد الله بن عبد الحكم من سيرة عمر بن عبد العزيز ثم كتب ابن الداية . سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبى الجيش خمارويه ، وكتب ابن زولاق : سيرة الأخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز وسيرة سيبويه المصرى ، وكتب محمد بن محمد اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ، ووضعت سيرة عنترة بن شداد فى صيغة شعبية فى عهد العزيز بالله الفاطمى ، وهكذا نرى نشاط المصريين فى تأليف السير ، وهذا كله يدل

---

(١) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص ٧ من مخطوط « ك » .

على كلف المصريين بفن السير . واستغل المؤلفون إقبال المصريين على هذا الفن فوضعوا للشعب سيراً لأبطال أحبهم المصريون وردد الشعب هذه السير في اجتماعاته ومغانيه مثل سيرة عنترة وسيرة الهلالية وسيرة ذات الهمة وسيرة الظاهر بيبرس وغير ذلك (١)

وها هو أبو علي منصور الجوذري بعد أن استقر بمصر ورأى هذا الفن المصرى رائجا يؤلف هذا الكتاب في سيرة مولاه جوذر .

ويتضح من هذا الكتاب أن جوذر كان من الشخصيات الخطيرة في تاريخ الفاطميين منذ ظهر الفاطميون على مسرح السياسة بالمغرب ، ولولا هذا الكتاب لظلت هذه الشخصية مجهولة مع أنها مفتاح لفهم الحياة في بلاط الفاطميين ، ونحن نعجب في الحقيقة كيف أهمل المؤرخون والكتاب هذه الشخصية ذات المكانة العالية والأثر الهام في تسيير دفة السياسة . والواقع أن المؤرخين يقعون في هذا اللون من الإهمال في كثير من الأحيان فبعض الوثائق البردية تطرق موضوعات لا يشير إليها المؤرخون لا تصريحا ولا تلميحا ، لهذا نعتبر كتاب أبي علي منصور مكملا لما ورد في كتب المؤرخين من نقص عن تاريخ المغرب في عصر الفاطميين .

ولنا أن نتساءل كيف ضاع ذكر هذه الشخصية الهامة حتى أهملها المؤرخون وخلت كتبهم من ذكرها ؛ لعل السبب فيما نرى أن أهل افريقية أهملوا أمر الأئمة بعد رحيلهم إلى مصر ولم يسجلوا من أخبارهم إلا ما كان من الخطوط الرئيسية ، ولا سيما بعد حركة المعز بن باديس وعودة البلاد إلى مذهب أهل السنة ، وفي رأينا أن جوذر لو عاش بمصر بعد انتقال الأئمة إليها لكان له بها ذكر يحفظه المؤرخون في كتبهم .

من وثائق هذا الكتاب نفهم أن جوذر دخل في ولاء المهدي وهو لا يزال في رقادة قبل أن تبنى مدينة المهدية ، وكانت رقادة العاصمة المؤقتة للدولة الفاطمية الناشئة ثم انتقلت العاصمة إلى القيروان فالمهدية فالمنصورية إلى أن انتقل الفاطميون إلى القاهرة بمصر .

كان جوذر من العبيد الصقالبة الذين دخلوا في ولاء المهدي وهؤلاء العبيد الصقالبة

---

(١) طرق محمد كامل حسين هذا الموضوع في كتابه « أدب مصر الفاطمية » .

كانوا فى الأغلب من الخصيان الذين كانوا يجلبون من الأندلس (١) . ووهبه المهدى لولى عهده القائم ، فظل مخلصاً لمولاه وظهرت ملكاته فوثق به القائم ثقة تامة جعلت القائم عندما خرج مع الجيش إلى المغرب يستخلفه على قصره وعلى جميع من فيه من الحرم .

ولما مات المهدى وأراد خليفته وابنه القائم أن يدفنه خص جوذر دون غيره من جميع الأهل بالانفراد معه أمام حفرة القبر واستأمنه دون الخلق على سر ولى العهد بعده وأخذ عليه الميثاق أن يكتم هذا السر عن سائر الناس فحفظ جوذر هذا السر سبع سنوات حتى كشفه القائم نفسه ، ودليل آخر على هذه الثقة أن القائم عقب توليته الإمامة صرف إلى جوذر النظر فى بيت المال وخزائن البز والكساء وجعله سفيرا بينه وبين أوليائه وسائر عبيده ، معنى هذا أن جوذر كان يخدم القائم وهو لا يزال ولى العهد فى أموره الخاصة ، وقد تتعلق هذه الأمور بالدولة إلى حد ما فلما تولى القائم الأمر احتفظ بجوذر وولاه تلك الدواوين الهامة العديدة وجعله رسوله الذى ينفذ باسمه المهام الكبيرة ويجمع له الخبر الصحيح ، وهذه ناحية هامة فى تاريخ الفاطميين بالمغرب ، إذ لم يكن لهم وزراء يدبرون لهم أو معهم شئون الدولة بل كان الإمام يتولى بنفسه السلطات كلها مباشرة ويعاونه فى ذلك بعض الموثوق بهم مثل جوذر هذا فكان هؤلاء بمثابة وزراء قبل أن يعظم شأن الوزارة فى الدولة الفاطمية .

دليل آخر على هذه الثقة بل على شدة تعلق القائم بجوذر هو أن القائم عندما حضرته الوفاة لم يوص بأحد من أهله ولا من عبيده إلا بجوذر ، فقد قال لابنه وولى عهده المنصور : « وديعتى عندك جوذر المسكين فاحفظه ولا يذل بعدى » . فقال المنصور : « يا مولاى : هل جوذر إلا واحد منا » (٢) هكذا كان شأن جوذر أيام القائم .

وحفظ المنصور وديعة أبيه فى شخص جوذر الذى آل إليه بالميراث ، فلما توفى القائم وأراد المنصور إخفاء موته عن الناس خوفا من ضعف روحهم المعنوية من النهوض لحرب مخلد بن كيداد الخارجى استأمن جوذر وحده دون أفراد أسرة .

---

(١) راجع تعليق رقم ٣١ ص ١٥٧

(٢) نص هذا الكتاب ص ٤٤

الفاطميين على هذا السر ، ولما خرج المنصور لحرب هذا الثائر استخلف جوذر على دار الملك وسائر البلاد وأعطاه مفاتيح خزائن بيت المال ، فكان جوذر بذلك الحاكم العام على البلاد كلها نيابة عن الإمام ، وكانت كتب المنصور ترد إلى المهدية باسم القائم وهى فى الحقيقة مرسلة إلى جوذر ، وليس بعد هذا دليل على توفر الثقة . وأراد المنصور بعد انتصاره أن يكافئ جوذر على خدماته الجليلة فلم يجد خيراً من عتقه ، ومن تشريفه بلقب « مولى أمير المؤمنين » وهو لقب لم يلقب به فى هذا الوقت إلا جوذر وظل منفردا بهذا اللقب إلى أن شاركه فيه فيما بعد جوهر الصقلى بعد أن فتح مصر فى عهد المعز لدين الله ، وأمر المعز عندئذ أن يؤاخى بينهما ، وبالرغم من ذلك فقد أمر المعز أيضا أن يقدم جوذر نفسه إذا كتب إلى جوهر ، فاحتفظ جوذر بأمر المنصور بأن يجعل مكاتبته لمن كبر قدره وصغر من جميع الناس « من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان » دون أن يكنى أحداً ولا يقدم على اسمه إسماً إلا اسم ولى العهد ، فصارت مكاتبته للناس على هذا النحو طول حياته ، وهذا يدل على أن جوذر بلغ أرقى مرتبة فى الدولة وهى المرتبة الثالثة بعد الإمام وولى عهده مباشرة . وهى نفس المنزلة التى تكون للوزراء حين يتخذ الخلفاء الوزراء .

ولم يكتف المنصور بذلك بل أمر بأن يثبت اسم جوذر على الطرز والبسط تشريفا له وتعظيما لقدره . ثم تشريف آخر هو أن المنصور حمل جوذر على فرس من مراكبه، وقود بين يديه مراكب أخرى بسروج ثقيلة ، ومعنى هذا أنه أصبح لا يسير إلا فى موكب رسمى طبقا للمراسيم التى ترعاها الإمامة فى ذلك . وتشريف آخر أنه أمره بالجلوس معه على المائدة وهو شرف لا يناله إلا الأفراد القلائل الذين يقع لهم الإذن بذلك . ولم يكتف المنصور بكل هذا التكريم بل كان يدخر عند جوذر كل نفيس يحتوى عليه ملكه من كل فن ونوع (ص ٥٣ من النص) .

وكان المنصور يجامله أيضاً ، فإنه حين ضرب السكة المنصورية لأول مرة بعث منها إلى جوذر ألف دينار هدية ، وكان جوذر يرد المجاملات بمثلها أو بأكثر منها لأنه كان يتجر ويحصل على الأموال من غير طريق مولاه وطريق الوظائف ولم تكن له أسرة ينفق عليها .

وقد بلغت هيبته حدا جعلته قادراً على أن يقف من أهل القصور وحرم الأئمة

خاصة موقف المؤدب فقد فوض المنصور إليه ذلك حين تجنى عليه أهل القصرين وعابوه لأنه كان يراقب سلوكهم مع العامة ويزجرهم إذا حادوا عما يصون مركزهم (ص ٦٣ وما بعدها من النص) .

ولما انتقل المنصور من المهدية إلى المنصورية ظل جوذر مع الدواوين بالمهدية بحكم اختصاصاته ، وبعد عن معية المنصور ، وفى إحدى الوثائق تفويض لجوذر بالإشراف العام على البلاد بحيث « لا شيء يكون فى المهدية كلها وفى كافة ما حولك من الأعمال مثقال ذرة إلا وأنت تعرفه وتحنى به وتحكم فيه » (ص ٧٠ من النص) وهذا النص يقابل المراسيم التى تصدر لوزراء التفويض .

وكان لجوذر نفس المكانة أيضا فى أيام المعز . ففى أول كتاب وصل إلى « الأستاذ » من المعز فى وفاة المنصور أمر إلى جوذر بكتمان خبر الوفاة ، ثم بتفويضه فيما قبله من الأعمال بهذه الصيغة : « وعليك فيما قبلك بالاحتراس ما أمكنك والضبط ما استطعت . والكتمان ثم الكتمان عن الأهل والخاص والعام . وإن اتصل بهم شيء من ذلك فكذبه ما استطعت وخوفهم ما قدرت » (ص ٧٤ من النص) . وبهذا النص الأخير نقطع بأن مكانة جوذر لم تتحول عما كانت بل استمرت وصار جوذر يطالع المعز بأخبـــار دولته ويستأمره فيما يحتاج إلى « الاستئمار » إلى أن أراد المعز أن يتحول إلى القاهرة بعد فتح مصر ، فخطر لكثير من الناس أن المعز سيولى جوذر أمر المغرب . وبلغ ذلك جوذر فطلب من المعز أن يبقى قريبـا منه وأن ينتقل معه إلى مصر . ولم يكن طلبه استنكارا للشائعات وتبرؤا منها بل كان صدى لما فى نفسه من حب الأئمة وحرصه على القرب منهم تدينا منه . ولم يكن سنه الكبير ليسمح له بأن يتولى مثل هذا المنصب وما يتطلبه من مشقة مضنية ضعف عنها الأئمة أنفسهم ، وسنذكر ذلك فيما بعد ، وكل التوقيعات الواردة فى هذا الكتاب الصادرة من المعز إلى جوذر تدل دلالة قاطعة على ما كان يكنه المعز لجوذر من تقدير عميق وعطف عظيم ، وكان المعز كآبائه يشعرون نحوه بالحب الشديد تقديرا لولائه ، والحب وحده هو الذى يفسر لنا العبارات الرقيقة الأليفة والدعوات الصالحات التى كانوا يوجهونها إليه . ولعل ذلك الموقف الذى وصف هنا فى هذا الكتاب بوقفة الوداع أبلغ دليل على مكانة جوذر فى نفس المعز فهو موقف صوره مؤلف هذا الكتاب تصويرا ينطق بتعلق جوذر بأئمته وحب المعز له .

— ٥ —

قيمة الكتاب من الناحية التاريخية

والكتاب من الناحية التاريخية يشرح دور ثالث شخصية فى الدولة ، وأهم من ذلك أنه عبارة عن مجموعة وثائق رسمية مشفوعة بإيضاحات موجزة ، توخى المؤلف فى جمعها أن تصور حياة جوذر العامة مع التزام الحيدة التامة إلا من الإيضاحات الضرورية للوصل بين وثيقة ووثيقة أو الضرورية لإظهار السياق . ولم يحتج المؤلف لتصوير حياة جوذر الخاصة لسبب واضح هو أن جوذر كان من الخصيان الذين يهبون حياتهم كلها للخدمة العامة فى القصور وللعبادة .

وتصلنا هذه الوثائق صلة مباشرة بحياة جوذر العامة فنقرأ معه توقيعات الأئمة فى كل ما يعرض عليهم من مسائل عامة مختلفة .

وتقع هذه الوثائق بين عامى ٣٢٣ [١] ، ٣٦٣ [٢] هـ فهى صورة جزئية مباشرة لأربعين عاما من حياة الدولة . أما حياة جوذر فى قصور الأئمة فتبدأ قبل ذلك بستة وعشرين عاماً أى عام ٢٩٧ [٣] هـ .

وتمتاز هذه الوثائق الرسمية عن غيرها من الوثائق بأنها صدرت إلى رجل مؤتمن مفروض فيه الوفاء وكتمان السر يجوز التصريح له دون حرج بأى سر . وهى لهذا تفشى أسراراً دقيقة وآراء كان يراد لها أن تعلم للخاصة فقط لا أن تذاع على الناس ، مثال ذلك التوقيعات الخاصة بولاية العهد ، أو الخاصة بعلاقة أفراد الأسرة الفاطمية بالإمام ، أو الخاصة برأى بعض الأئمة فى البربر أو فى أشخاص ولاتهم .

ولا غبار على وصول تلك الوثائق إلينا عن طريق منصور الكاتب ، لأننا نستنتج من ذات النص ومن طبيعة الظروف صلة الوثيقة بجوذر ونعلم أنه هو الذى خلفه فى منصبه .

إلا أنه مما يؤسف له أن المصنف اكتفى بنسخ بعض التوقيعات الهامة التى تصور حياة جوذر ، ثم إنه تحاشى توقيعات لم يستجز إثباتها ، فليته استقصى

---

(١) تاريخ أول توقيع صدر إلى جوذر .

(٢) تاريخ وفاته .

(٣) العام الذى استرعى فيه جوذر نظر المهدى حتى صار المهدى يتعهده بنفسه .

وأنه لم يتحرج . ولكنه على أى حال رجل أمين يذكر بالدقة ما يريد ، فقال : « ولو تقصيت الكل [كل التوقيعات] لطال بنا الكتاب » (ص ٧٢ من النص) ، وقال : « وقد أثبت فى كتابنا هذا . . . ما يجب ذكره وأباح الله ووليه إظهاره ، وتركنا ما سوى ذلك كراهة اكتساب الآثام والتجاوز إلى المحظور » (ص٥٣/٥٤ من النص) (ت ، ٥٥) ومع هذا الخوف ودواعيه المختلفة بقى لنا شىء كثير دقيق لم يكن فى الإمكان الوقوع عليه لولا وجود هذه السيرة .

والتعليقات المؤلف المدرجة بين التوقيعات قيمة كبيرة لأنه عرف ظروفها حين لازم مولاه جوذر فى السنين الثلاث عشرة الأخيرة (٣٥٠ — ٣٦٣هـ) ولأنه عرف نظائرها حين حل محل مولاه بعد موته ، ولأنه بحكم عمله ومكانته ذكى مطلع معاصر نستطيع أن نطمئن إلى قوله كل الاطمئنان ونستطيع على ضوء أسلوبه أن نسلم أنه فوق كل ذلك دقيق أمين . وكل ذلك يجعل للتعليقات ما لنصوص التوقيعات من قيمة عظيمة .

* * *

فالأخبار المتضمنة فى هذا الكتاب تعتبر من الناحية المنهجية أساساً متيناً يستطيع أن يعتمد المؤرخ عليه وأن يستمد منه أضواءاً يستعين بها فى نقد المصادر الوصفية بالتدعيم أو بالتعديل أو بالنفى . وهى قبل كل شىء تضيف إلى أخبار هذا العهد معلومات جديدة هامة نشير هنا إلى بعضها على سبيل التنويه بقيمة الكتاب والتعريف ببعض ما فيه :

١ — يذكر الأئمة المشرق فى توقيعاتهم فى حنان وتدين وإيمان وفى أسلوب ندى أخاذ ينبىء عن تطلعهم إليه بأفئدتهم قبل أن يتطلعوا اليه بجيوشهم . ونلمس نحن فى هذا أساس اتجاههم فى سياستهم نحو المشرق كله ونحو بغداد بالذات على حين كان الاتجاه الأفريقى الطبيعى يتجه بالبربر نحو الأندلس . ويتأيد هذا النزوع نحو المشرق بما ورد فى سيرة رجل معاصر هو جعفر الحاجب منسوباً للمهدى أثناء هربه من سلمية إلى أفريقية . قال المهدى : « لتملكن أنا وولدى ولد العباس ولتدوسن خيولى بطونهم »[1] . فالفاطميون إنما هربوا إلى المغرب ليعودوا فى

---

(١) وف ايفانوف — مذكرات فى حركة المهدى الفاطمى (استتار الامام وسيرة جعفر الحاجب) ، مجلة كلية الآداب ، مجلد ٤ ، ١٩٣٦ ، ص ١١٢

قوة إلى المشرق . فهل تأثرت حياتهم فى المرحلة الإفريقية بهذا النزوع وفرقت بينهم وبين رعيتهم الإفريقية آخر الأمر ؟

٢ — وعلى أية حال فقد ظهرت الفرقة بين الحاكمين والمحكومين فى مظاهر كثيرة لخصها الأستاذ جورج مارسيه فى كتابه عن « بلاد البربر الإسلامية فى العصور الوسطى » باريس ١٩٤٦ (بالفرنسية) فى فصل سماه « أسباب الطلاق » (ص ١٣٦ — ١٥٣) . وهو يقصد الطلاق بين المشرق (ممثلا فى سياسة الفاطميين الدينية والاقتصادية وثورة الخوارج) وبين المغرب ونزوعه إلى أن يدير ظهره إلى المشرق الذى اجتذبه منذ الفتح ليحيا حياته المغربية الخاصة ، وكان قيام الفاطميين فى نظره « الأزمة » التى أدت إلى هذا الطلاق . وقد اعتمد مارسيه فى كل ذلك على مظاهر التذمر من جانب أهل أفريقية . أما الجانب الآخر جانب الحاكمين فشعورهم لم يسجل ولم يتبينه مارسيه تبعاً لذلك . وهذا نقص فى المصادر تسده هذه الوثائق حين يتحدث فيها الأئمة عن ضيقهم بأهل إفريقية فيجرون بأقلامهم عبارات السخط معترفين بعدم التجاوب .

٣ — وكانت كتامة أشد قبائل البربر تعلقاً بالدولة وتأييداً لها . وبهذا المعنى نطقت التوقيعات فدعمت ما ذكرت المصادر الوصفية من ذلك ، إلا أن الصلة وكانت صلة تحالف كصلة الخراسانية بالعباسيين تحتاج إلى التذكير والثناء وإلى اصطناع الدولة إياهم ليظلوا على الولاء . فهم على أية حال أصعب زماماً من طائفة أخرى اصطنعتها الدولة وهى طائفة الصقالبة .

٤ — والصقالبة أساس قيادا لبراءتهم من نعرة العصبية ، وقد استخدمهم الفاطميون وأسندوا إليهم دوراً لا يقل عن دور كتامة إن لم يزد . وتلك حقيقة جديدة تلقى الوثائق عليها ضوءاً ساطعا . فتصورهم لنا يحتكرون الوظائف الكبرى فى القصور والدواوين ويتولون المهمات السياسية الدقيقة والإجراءات الادارية الهامة كما يتولون أحيانا قيادة الجنود الكتامية وخاصة فى البحر . وتدل هذه الوثائق على أن استخدام الصقالبة كان منذ البدء وإن الأئمة عنوا بأمرهم ودققوا فى اختيار من يكون أهلا للخير لينشئوه ويتعهدوه ويغرسوا الوفاء فى نفسه وليربطوه بالدولة عن طريق حسن الرعاية وشرف الولاية . والعادة أن يكون الصقالبة أرقاء يستجلبون صغاراً مثل جوذر وأترابه ، وأن يعتقوا عتقا مسجلا بوثيقة بعد أن

يتدرجوا فى المراتب ، وأن يكون العتق فى مناسبة سعيدة وكانت الطائفة الأولى من الصقالبة طبقة أولى انتسب إليها من جاء بعدهم مع انتسابهم للأئمة أيضاً . فهم كطبقة المماليك التى عرفت بهذا الاسم . وكانوا خصيانا وغير خصيان ويظهر أن جوذر كان من الخصيان وأن تحرج المؤلف من طرق هذا الموضوع .

وتعد سيرة جوذر صورة مجيدة لما يمكن أن يصل اليه الصقالبة ، وشأن جوهر الكاتب المشهور بين المؤرخين باسم جوهر القائد شأن جوذر ، وكان جوذر أعلى قدراً منه حتى فتح جوهر مصر فرسم المعز لجوذر أن ينعت جوهر بأخى وأبقى له امتيازاً على صاحبه هى أن يقدم اسمه على اسم صاحبه شأن الأكبر للأقل . ومن الصقالبة الأعلام سليمان الخادم وابنه مسرور اللذان اشتركا فى إحدى الحملات الأفريقية على مصر . ومنهم أيضا مؤلف هذه السيرة . ومنهم ميسور وصافى ووصيف وشفيع وريان وقيصر ومظفر وأفلح الناشب . وكلهم من رباتب الدولة المدينين لها بكل مجدهم بحيث كان كيانهم من كيانها .

فإذا وجهنا نظرنا إلى الأندلس وجدنا الصقالبة يحتلون منزلة رفيعة إلا أنهم كانوا أكثر تعصبا لجنسهم وأشد طمعا من صقالبة افريقية حتى ظهرت فيهم النزعة الشعوبية التى عبر عنها ابن غرسية برسالة فى « فضل الصقالبة على العرب (انظر : أحمد مختار العبادى : الصقالبة فى أسبانيا ، مدريد ١٩٥٣ بعناية المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد) . ونحن نعلم بصفة عامة أن الصقالبة كانوا مرتزقة المغرب والأندلس على حين كان الترك مرتزقة المشرق كله .

٥ — واستخدم الفاطميون عنصراً آخر هو عنصر السودان . فإن هذه الوثائق تذكر فى أواخر أيام المرحلة الأفريقية جماعة من الخدم السودان . وطبقة الخدم عامة طبقة رفيعة فى كل الدول التى يتولاها حاكم مطلق . وكان مقدراً أن يعظم شأن السودان فيما بعد فى الدور المصرى وخاصة فى عصر المستنصر .

٦ — وتشير هذه التوقيعات أيضا إلى كثير من الحوادث الكبرى مثل حملات الفاطميين على مصر ، وحملاتهم التى سيروها لقمع تذمر البربر فى المغرب الأقصى إلا أن أهم ما أشارت اليه الوثائق حملاتهم على صقلية فالأخبار عنها كثيرة تتصل بمقدار الاهتمام بالأساطيل أو بوصف وقعة سمتها هذه الوثائق بوقعة الحفرة على حين لم تورد المصادر الوصفية لها اسما . ومثل هذه التفاصيل مما يرحب به

المؤرخ لأن دور الفاطميين فى صقلية دور فى الدرجة الأولى من الأهمية لا بالنسبة للفاطميين أنفسهم بل بالنسبة لأهل أفريقية أيضا . أما بالنسبة للفاطميين الذين يعدون الجهاد من أركان الدين فإن صقلية كانت الميدان الذى استطاعوا أن يؤدوا فيه حق الجهاد كاملا أداءاً لم يتهيأ لهم مثله طول ايام دولتهم فى مرحلتيها الأولى والثانية . أما بالنسبة لأهل أفريقية فإن نقل ثغورهم إلى صقلية كان أمراحيويا لهم . وهكذا التقى البربر وحكامهم عند هدف واحد ، وتعاونوا فى الثغر الصقلى تعاونا تاما .

وأمر هام آخر أشارت اليه الوثائق هو ثورة أبى يزيد الخارجى المعروف بصاحب الحمار : فلدينا نصوص بعض البلاغات التى كانت ترسل من ميدان القتال إلى المهدية ولدينا وصف معركة سمتها الوثائق بوقعة يوم الجمعة على حين لا تعرف المصادر الوصفية هذه التسمية ، ولدينا خطب ألقاها الإمام بعد النصر مسجلة بنصها .

٧ — وفى هذه الوثائق تعبيرات كالأضواء تصور لنا نوع الحكم الفاطمى فى المرحلة الإفريقية وكيف كان شخص الإمام هو كل شىء ، وكيف كان يتولى الحكم بصفة مباشرة فيقود الجيوش بنفسه ، وكيف لاءم الأئمة بين الولاية المباشرة وبين الاحتجاب المطلق عن الناس . والحجاب يبعث على المهابة . وقد بلغ من هيبة الناس لهم أن ظلت الأوامر تصدر باسم الإمام المتوفى والحرب يديرها ولى عهده ، ومثل هذا الحجاب معروف فى المرحلة المصرية ، وأمره هنا مدعم بهذه الوثائق ، وكان الأئمة مع هذا الاحتجاب أحرص الناس على الزهد والتقشف وإيثار الصالح العام حتى اعتبروا الترف « فسوقا وتهتكا » أجدر بمثل الأغالبة أصحاب العهد البائد .

وتلك الحكومة المباشرة حكومة مطلقة تستند إلى الحق الإلهى الثابت بالنص لمن اختارهم الله ورفعهم فوق عامة الناس ، والوثائق تعكس هذه القداسة فى تعابيرها فلا تذكر أى مرفق من مرافق القصر إلا مقرونا بنعت القداسة كالحضرة الطاهرة والباب الطاهر والدولة الطاهرة الخ ومثل هذا التقديس كان معروفا أيضاً فى قصور الأباطرة البيزنطيين .

ومن المسائل المقدسة المتروكة للإمام أمر ولاية العهد . وتدل الوثائق على وجود رسوم خاصة التزمها الأئمة فى إعلان ولاة العهود ، ونحن مدينون لحصلة

الصراحة التى امتازت بها هذه الوثائق بحقيقة هامة هى السر فى عدول المعز عن إسناد ولاية العهد لابنه الأكبر تميم الشاعر المعروف .

واستلزم الاستئثار بالسلطان من ناحية أخرى أن يبعد كل إمام أهل بيته جميعا عن الولايات بخلاف ما كان عليه عرف البويهيين والسلاجقة . وقد جرت هذه السياسة الأسروية إلى العداء بين فروع البيت الفاطمى ، ولا تكاد المصادر الوصفية تشير إلى شيء من ذلك على حين تتحدث عنه كثير من وثائقنا وترينا كيف أثار الموضوع حفيظة الأئمة وأنطق ألسنتهم بأوجع الأوصاف ، وفى سبيل المحافظة على الأسرة فرضت الرقابة على القصور والبريد وسلوك الرجال والنساء من أفراد البيت الفاطمى حسب نص الوثائق .

وهذا الأسلوب المباشر الاستبدادى المتمدس فى الحكم أسلوب لا يعلو فيه منصب الوزارة فلم يتخذ الأئمة وزراء فى المرحلة الإفريقية . وتجلت نزعتهم هذه منذ البداية حين اصطدموا باعتداد داعيهم أبى عبد الله المعروف بالشيعى بنفسه وبفضله واستلزم الأمر التخلص منه ، وصار منصب الوزارة شاغرا مستغنى عنه بأداة تنفيذ طيعة ممثلة فى رياسة الكتاب والدواوين التى تولاها فى طول المرحلة الإفريقية أبو جعفر محمد بن أحمد المروزى المعروف بالبغدادى وهو الذى كتب للإمام إحدى خطبه أيام النصر على أبى يزيد الخارجى وهو الذى عرف بأنه شاعر مداح الأئمة (تعليق ٥٤ ،) حتى كاد المدح يغلب صفته الديوانية . وطبيعى فى هذه الظروف أن يكون الخدم أوجه من مثل المروزى بحكم اتصالهم بالسلطان الذى ركز فى يده كل شيء . فكان جوذر أعلى منزلة من المروزى بل ومن جوهر . وكان المروزى من أهل المشرق ممن اتصلوا بالوزير العباسى على بن عيسى . وكانت طرق الإدارة المشرقية الطرق المألوفة لديه .

والإشارات إلى الإدارة العامة كثيرة متفرقة فى أثناء الوثائق وهى تورد لنا أسماء الدواوين والولاة كخزائن البحر ودار الصناعة والمراكب والأساطيل وعيدانها ولوازمها ، ودار الطراز والخنع والرقامين والحصريين وضرب السكة وبيت المال وخزائنه . وتذكر لنا أيضاً الخدام الصقالبة والسودان والصبيان والغلمان الصقالبة وعمال البريد أو الفرانقة وقضاة النوحى ؟ وفيها ذكر لبعض حالات الأرض كالسواقى والضياع والخلافات عليها والقبالات ، ومثل هذه

الإشارات تعتبر نقطة بداية لدراسة جديدة إلى أن تظهر وثائق أخرى .

وكل هذا ليس إلا طرفا من الفوائد التى يمكن اجتناؤها من الكتاب ووثائقه الأصيلة .

— ٦ —

قيمة الكتاب من الناحية الاسماعيلية

ليس موضوع هذا الكتاب فى عقائد فرقة الاسماعيلية ، فليس هو من كتب « الحقيقة » أى العبادة العلمية (أو علم الباطن) حسب ما اصطلح عليه علماء الاسماعيلية . إنما الكتاب على نحو ما رأينا فى سيرة رجل صقلبي كان يمت إلى الأئمة الفاطميين بصلة الولاء ، ولم يكن صاحب هذه السيرة من حدود الدين فى الدعوة إنما كان يعمل فى الدواوين المدنية ، ومع ذلك كله فالكتاب ملىء بالمعتقدات الإسماعيلية فى هذا الدور الذى عرف بالدور الفاطمى الأول ، إذ لم يستطع المؤلف وهو أحد الموالى الذين عملوا فى الدواوين وكان يتمذهب بمذهب الفاطميين إلا أن يلم بهذه المعتقدات وهو يتحدث عن الأئمة دون أن تكون الكتابة عن المعتقدات من أهدافه ، فهو لم يعمد إلى ذكر هذه العقائد إنما جاءت عرضا فى حديثه . فنحن مضطرون إذن إلى أن نشير فى إيجاز إلى هذه المعتقدات التى وردت فى هذا الكتاب لما فيها من فائدة لكل باحث فى الدراسات الإسماعيلية ، ونحن نعلم أن العقائد الإسماعيلية لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تدرس على أنها عقائد ثابتة لفرقة موحدة ، بل هى عقائد تطورت حسب البيئات والأزمان ، لكل بيئة عقائدها ، وتطورت العقائد فى كل بيئة بمرور الزمن ، فاختلفت العقائد الإسماعيلية باختلاف البيئات وتشعبت آراء الإسماعيلية بحيث أصبح من الصعب العسير أن نلم بأطراف العقائد الإسماعيلية طوال تاريخها ، فمن واجبنا إذن أن نطبق منهج التطور التاريخى فى دراسة العقائد والفرق بعامة والإسماعيلية على نحو خاص .

فعقائد الإسماعيلية فى هذا الكتاب صورة لما كانت عليه هذه العقائد فى أوائل دور الظهور الأول أى بعد أن ظهر المهدى بالمغرب بعد أن كان هو والأئمة من قبله يستترون أنفسهم خوفا من بطش العباسيين ، فهذا الكتاب إذن من أقدم

الوثائق التى تطلعنا على عقائد الإسماعيلية فى هذه الفترة الغامضة التى لم يكشف عنها بعد ، والتى لم تعرف عقائدها إلا ما كان من كتابات القاضى النعمان بن محمد وكتابات جعفر بن منصور اليمن اللذين كانا على صلة قريبة من الأئمة بالمغرب ، أما ما كتبه غيرهما من رجال الدعوة الذين كانوا بالمشرق أمثال النخشبى وأبى حاتم الرازى والسجستانى فلا ينطبق على بيئة المغرب إذ كانوا فى بيئة بعيدة عن الحضرة ولهذه البيئة معتقدات وآراء من الممكن أن تختلف عن آراء ومعتقدات المغرب بل اختلفت فعلا على نحو ما نرى أمثلته فى كتاب « المجالس والمسايرات » الذى ينص مثلا على أن بعض الدعاة بالمشرق سألوا المعز لدين الله فى بعض مسائل فأجاب عنها بأجوبة تختلف عن ما سمعه هؤلاء الدعاة من شيوخهم فى المشرق ، بل أكثر من ذلك اختلاف هؤلاء الشيوخ فى المشرق فيما بينهم كالخلاف الذى كان بين أبى حاتم وبين النخشبى ثم ما كان من انتصار السجستانى للنخشبى وما كان من محاولة الكرمانى أن يوفق بين هذه الآراء .

وسنرى أن هذه العقائد التى وردت فى هذا الكتاب هى أقرب إلى تلك المعتقدات التى كان يدعو بها دعاة المذهب فى دور ستر الأئمة ، وأنها ترينا الصلة القوية بين معتقدات الإسماعيلية فى هذا الدور وبين معتقدات بعض فرق الغلاة ، وبين المعتقدات الإسماعيلية وبين معتقدات فرقة الإثنى عشرية والزيدية .

فالإسماعيلية قالوا بولاية الأئمة المنصوص عليهم من أهل البيت ، وإن الولاية دعامة من دعائم الإسلام بل هى المحور الذى تدور عليه كل عقائدهم ومذهبهم ، فهم على اتفاق فى ذلك مع فرق الشيعة المعتدلة الأخرى ولا سيما فرقة الاثنى عشرية مع ما بين الفرقتين من اختلاف فى صاحب الحق ، أما الأدلة التى تسوقها كل فرقة فتكاد تكون واحدة ، فلا غرابة أن نرى مصنف الكتاب يكرر القول بوجوب الاعتقاد فى ولاية الأئمة ووجوب طاعتهم[١] ، وهذه الآراء نفسها نراها فى كتب القاضى النعمان[٢] وكتب جعفر بن منصور[٣] اللذين كانا معاصرين لمصنف الكتاب .

---

(١) نص هذا الكتاب ص ٦٥ ، ٧٧ ، ٨١ . ٨٢ .

(٢) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ص ٣٠ تحقيق الأستاذ آصف فيظى (طبع دار المعارف بالقاهرة) وكتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة ص ٣٨ وما بعدها تحقيق محمد كامل حسين . طبع دار الفكر العربى .

(٣) جعفر بن منصور : كتاب سرائر النطقاء وكتاب أسرار النطقاء (نسخ خطية بمكتبة محمد كامل حسين) .

وإذن فلا خلاف بين كتاب هذا الدور من أدوار الإسماعيلية فى الولاية .

كذلك لا ترى خلافا بين الكتاب فى أن للأئمة فراسات وأنهم ينظرون بنور الله على نحو ما جاء فى هذا الكتاب[١] ، فقد روى القاضى النعمان فى كتابه والهمة فى آداب أتباع الأئمة[٢] « أن جعفراً الصادق سئل عن قول الله عز وجل « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين (سورة الحجر ١٥ آية ٧٥) فقال : نحن المتوسمون ، ننظر بنور الله إلى عباده فاحذروا فراستنا فيكم[٣] » وهذا الرأى من الآراء التى اتفق فيها الإسماعيلية مع الاثنى عشرية .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نتتبع ما جاء فى هذا الكتاب عن صفات الأئمة مثل القول بأن الإمام حجة الله وأن الله أجرى مصابيح الحكمة على ألسنة أهل البيت ، وأن عليا خازن علم السماء وهو حجة الله العظمى وعلم الهدى وسراج الدنيا والآخرة ، فكل هذه آراء قال بها الشيعة على اختلاف فرقهم لا فرق فى ذلك بين غلاة متطرفين وبين معتدلين ، غير أن الإسماعيلية يذهبون إلى أن الأئمة يموتون مثل ما يموت غيرهم من البشر[٤] فلا يقولون بالرجعة ولا بالتناسخ ولا بالحلول ، والحق أن هذه العقيدة ظلت تلازم الإسماعيلية طوال دورها الفاطمى ، وأننا نجد هذا الرأى فى كتب الدعاة الذين كانوا بمصر فى العصر الفاطمى مثل أحمد حميد الدين الكرمانى والمؤيد فى الدين وغيرهما ، ومعنى هذا كله أنهم يخالفون الشيعة الاثنى عشرية الذين قالوا بأن إمامهم الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى سيعود ويملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا .

وهناك عقائد أخرى فى هذا الكتاب لا أجدها فى أى كتاب آخر من كتب الإسماعيلية التى ألفت فى عصر تصنيف كتابنا هذا ، كما لا أجدها فى كتب الشيعة الأخرى ، من ذلك ما ورد فى (ص ٣٩) أن القائم قال لجوذر « لا يحل للحجة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم حجة لنفسه ، ولم يحل لى ذلك حتى أقيم حجتى وقد ارتضيتك لهذه الأمانة دون جميع الخلق » هذا رأى لم نقرأه من قبل فيما قرأناه

---

(١) أنظر نفس هذا الكتاب ص ٣٤ .

(٢) كتاب الهمة ص ١٢٨ .

(٣) الهمة ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) هذا الكتاب ص ٧٣ .

من كتب الإسماعيلية الأولى التى وقعت بين يدى ، حقيقة أجد أن على الإمام أن ينص على صاحب الأمر من بعده من ولده ، فهذه عقيدة أساسية فى عقائد الإسماعيلية ، فالنص ركن من أركان الإمامة عندهم ، أما أنه « لا يحل للحجة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم حجة لنفسه » فهذا هو الأمر الغريب ولا أظن أن أحداً من الأئمة بعد القائم نفذ هذه العقيدة التى أشار إليها القائم ، فها هو المعز لدين الله لم يقم حجته (ولى عهده) عبد الله قبل أن يدفن أباه المنصور ، إنما صرح بالنص على ولى عهده لجوذر فقط عندما كان المعز يتهيأ للانتقال إلى مصر أى بعد عشرين سنة من وفاة المنصور ، وها هو العزيز بالله بن المعز الذى توفى أبوه المعز سنة ٣٦٥ ولم يولد ولى عهده الحاكم إلا سنة ٣٧٥ أى بعد عشر سنوات من وفاة الإمام ، وكذلك نقول عن الحاكم بأمر الله الذى توفى أبوه العزيز وهو فى الحادية عشرة من عمره وهو الأمر الذى لا يتأتى معه أن يقيم لنفسه حجة قبل دفن الإمام ، فهذا كله إن دل على شىء فإنما يدل على أن العقيدة التى قال بها القائم لم تطرد مع الذين جاءوا بعده من الأئمة ، ولا أدرى على وجه التحقيق من أين جاء بها القائم ، ولعل هذا الرأى هو الذى كان متبعا فى دور الستر حينما كان الأئمة خائفين من أعدائهم العباسيين وكانوا يترقبون الموت فى كل لحظة ، فكان على الإمام أن ينص على حجته بمجرد أن يتولى الإمامة حتى لا تنقطع سلسلة الإمامة فى هذه الظلمة التى كانت تحيط بهم ، أما فى دور الظهور وبعد أن أصبح للفاطميين دولة لها نظمها وبعد أن أصبح أبناء الأئمة معروفين ، وأصبح للوراثة نظام ، فقد تلاشى ما يوجب إعلان ولاية العهد قبل دفن الإمام السابق على نحو ما فعله القائم ، أو على نحو ما كان فى دور الستر (كما رجحنا) .

وهذه العقيدة تجرنا إلى الحديث عن « الاستيداع » فى دور الستر ، فقد أخذ القائم العهد على جوذر أن يكتم أمر حجته حتى يظهره ويكشفه هو بنفسه . فكان جوذر بذلك مستودعا للمنصور . وفعل المعز لدين الله ذلك أيضا مع جوذر فى أمر ولى عهده عبد الله ، ثم لم نعد نسمع عن شىء من ذلك فى تاريخ الفاطميين إلا ما قيل من أمر الطيب بن الآمر فقد كانت الملكة الحرة الصليحية مستودعا وكفيلا له . فلعل هذه القضية أيضا كانت من بقايا دور الستر إذ كان الأئمة يستترون إلا عن أفراد قلائل عرفوا بالأمانة والوفاء ، وكان هؤلاء يتسمون باسم الأئمة ، ومن

ذلك التستر نشأت قضية الخلاف فى نسب الفاطميين ، ذلك الخلاف الذى لا يمكن أن يقطع فيه باحث برأى بالرغم من كثرة ما كتب حوله .

ومما يجب الوقوف عنده ما قاله المنصور عن سلمان الفارسى (ص ٥٦) إن سلمان مولى الرسول إمام مفترض الطاعة بعد الإمام الأعظم (أى بعد على بن أبى طالب) لا يوصل إلى طاعة الله ورسوله وطاعة على بن أبى طالب إلا بطاعة سلمان سيد المؤمنين فى عصره » فهذا النص يحتاج إلى بحث جديد لأنه يثير الدهشة والحيرة ، فنحن نتساءل عن مكانة إمامة سلمان فى سلسلة الأئمة الإسماعيلية ، ثم نتساءل عن رأى الإسماعيلية فى سلمان الفارسى ، ولاسيما أن شخصية سلمان لعبت دوراً هاما فى الفرق الاسلامية حتى وجدت فرقة تنسب إليه ذهبت إلى تأليه سلمان. ومن يقرأ البحث الممتع الذى كتبه أستاذنا العظيم لويس ماسينيون عن « سلمان پاك » يدرك مدى تأثير شخصية سلمان فى عقول بعض أصحاب الفرق .

أما سؤالنا عن مكانة سلمان فى سلسلة أئمة الإسماعيلية ، فلا خلاف بين دعاة الاسماعيلية على أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل عليا وصيا له ، ثم انتقلت الإمامة بعد على إلى الحسن ثم إلى الحسين بن على وتسلسلت الإمامة بعده فى الأعقاب على نحو ما ذكروا فى كتبهم ولم نجد ذكرا لسلمان الفارسى فى أى مصدر من المصادر الإسماعيلية التى بين أيدينا على أنه إمام مفترض الطاعة بعد على بن أبى طالب ، وكيف يكون سلمان إماما بعد على مع أن سلمان توفى على الأرجح سنة ٣٠ ﻫ أى قبل مقتل على بن أبى طالب ؟ وكيف يكون إماماً فى حياة على بن أبى طالب ؟

أما عن رأى الإسماعيلية فى الدور الفاطمى الأول فى سلمان الفارسى فيتضح من النصوص التى وردت فى كتبهم : —

أولا : ما ورد بكتاب الكشف المنسوب إلى منصور اليمن المتوفى سنة ٣٠٢ﻫ فقد جاء فى هذا الكتاب نصان :

النص الأول فى ذكر الأيتام أن سلمان أب لأبى ذر اليتيم وللمقداد اليتيم(١)

وقد جاء فى نفس الكتاب (ص ٥٤) « إنما سمى الإمام اليتيم لأنه قد غاب أبوه ، ولا يكون الإمام إماما ويسمى باسم الإمامة حتى يغيب الإمام الذى أفضى

---

(١) كتاب الكشف ص ١٥ .

اليه بالإمامة ، فيكون الامام فى عصره أيهما كان فى ذلك العصر وقع عليه اسم اليتيم » ،

نستطيع اذن أن نقول إن صاحب كتاب الكشف كان يقول أيضا بأن أباذر والمقداد وسلمان من الأئمة .

أما النص الثانى فقد ورد فى هذا الكتاب وهو الذى ورد فى ص ٦٩ وما بعدها ، فى تأويل الآية القرآنية الكريمة « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب » (المرسلات ٣٠/٣١) قال : أراد بالظل أمير المؤمنين عليه السلام ولا بد من معرفته فى حقائقه ومقاماته وبيان هذا أن الله تعالى يقول للناطق : قل لقومك انطلقوا إلى الوصى يخاطب أمته فى ذلك ، وقوله « ذى ثلاث شعب » يعنى أبوابه الذين يقيمهم بالدعوة إليه ونصبهم عن قصد إليهم فهم حجج الوصى والوصى حجة الرسول والرسول حجة الله ، وهذه الحجج كلها على العباد فى الدنيا والآخرة ، ومعنى قوله « انطلقوا » أراد به لابد لكم من لقائه والوقوف لديه . فمن كان من دعوة أحد شعبه الثلاثة عليهم السلام وهم نطقاء بالحكمة والسيف ، منهم المقداد وإنما سمى المقداد لأنه قد الباطل وأزاله وأنار الحق ودعا اليه وهو أحد العيون فمن شرب منه لم يظمأ بعدها أبدا ، والعين الثانية أبو ذر ... والعين الثالثة وهى نهاية النهايات وعين العيون سلسبيل وسلمان وذلك قول الله عز وجل « عينا فيها تسمى سلسبيلا » وهو السفينة الكبيرة ، اسمه دال على معناه لأنه اسم سلامة وجمع كرامة سلم لمن سالمه ، باب على ، من عرفه فقد عرفه . فمن لم يعرف العين وهو أمير المؤمنين بحقائقه من وجوهه الثلاثة لم يكن ينجو من الهلكة والسيف »

فهذا النص صريح فى أن سلمان باب أبواب على بن أبى طالب وأحد دعاته فهو ليس بإمام إنما هو حجة ، ولكن العجيب أن يستخدم المصنف فى وصف سلمان ما كان يذهب إليه فرقة السلمانية الغلاة ، فهو مرة عين ، وهو السلسبيل وهكذا نرى مدى أثر الغلاة فى عقائد الاسماعيلية عقب ظهور الأئمة مباشرة .

ثانياً : ما ورد فى كتاب الزينة لأبى حاتم الرازى المتوفى حوالى سنة ٣٢٢هـ « ومن الغلاة السلمانية وهم الذين قالوا بنبوة سلمان الفارسى ، وقال قوم بألوهيته

تعالى الله علواً كبيراً ، ومنهم من وقف عليه . ومنهم من قاله بن بعده .. الخ(١)

فأبو حاتم يرمى كل من يغلو فى سلمان بأنهم من الغلاة ، وهذا يدل على أنه لم يذهب مذهبهم أو يأخذ بأقوالهم .

وهناك بعض نصوص نشرها صديقنا الأستاذ الكبير و . إيفانوف بعنوان «اسماعيليات» ، وهذه النصوص تعد من أقدم النصوص الإسماعيلية التى كشف عنها البحث الحديث وهى تذهب إلى أن سلمان هو الذى حمل القرآن إلى محمد ، وأن جبريل لم يكن إلا اسم سلمان لأنه هو الذى حمل الرسالة إلى النبى ، فلعل هذه النصوص ، إن صحت نسبتها إلى الإسماعيلية ولا أخالها صحيحة دليل آخر لتأثير الغلاة فى الإسماعيلية ولاسيما فى الدور الفاطمى الأول ، وليس بغريب أن تنتقل بعض آراء الغلاة إلى الإسماعيلية فى هذا الدور ولا سيما ونحن نعلم أن كثيرين من فرقة الخطابية الغلاة كانوا هم حملة المذهب الإسماعيلى ودعاته فى بدء تكوينه ، وكان الخطابية ينظرون إلى الخطاب نظرة السلمانية إلى سلمان الفارسى ، فالمرجح أن المذهب الاسماعيلى بدأ مذهباً مغالياً ثم تدرج إلى الاعتدال شيئاً فشيئاً حتى ظهر اعتداله فى العصر الفاطمى بمصر .

ومن الموضوعات التى وردت فى هـــذا الكتاب وتلفت نظر الباحثين فى الدراسات الاسماعيلية أن المعز لدين الله نص على ولى عهده عبد الله ، ثم توفى عبد الله فى حياة أبيه ، ثم رأينا العزيز بالله يخلف أباه المعز لدين الله فى الامامة . هذه المسألة تشبه تماما ما كان عليه الأمر فى حياة جعفر الصادق الذى نص على ولى عهده ابنه اسماعيل ، ومات اسماعيل فى حياة أبيه ، فانقسم أتباع جعفر إلى فرقتين : فرقة قالت بأن النص لا يرجع القهقرى فلا بد أن ينتقل النص إلى ابن اسماعيل وهؤلاء هم الاسماعيلية ، والفرقة الثانيـة قالت بأن النص انتقل إلى موسى الكاظم وهؤلاء هم الإمامية الإثنا عشرية ، وإذن فالأساس الذى قامت فرقة الاسماعيلية عليه وظهرت فى الوجود بموجبه هو أن النص لا يرجع القهقرى ولا ينتقل النص من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين ، بل لا بد أن ينتقل فى

---

(١) نقلنا هذا النص عن أستاذنا لويس ماسينيون لأننا لم نحصل بعد على نسخ من كتاب الزينة ونحن نعلم أن صديقنا الفاضل الدكتور حسين همدانى يعد هذا الكتاب للطبع .

الأعقاب ، وبذلك أولوا الآية القرآنية « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » بأن النص لا يكون إلا فى الأعقاب ، ومع هذا المبدأ الأساسى لفرقة الاسماعيلية نرى المعز لدين الله يخالف هذا المبدأ بأن جعل النص أولا إلى عبد الله ثم نقل النص بعد وفاة عبدالله إلى العزيز . فكيف تسنى له أن يفعل ذلك مع أن رجال الدعوة بعد عصر المعز ظلوا يؤيدون مبدأ الدعوة الأساسى الذى نقضه المعز ودافعوا عنه أمام هجمات الاثنى عشرية والزيدية .

وهناك مسألة ورد ذكرها فى هذا الكتاب فى إحدى عشرة رقعة ، وهى الرقاع التى يطلب فيها جوذر من أئمته « حاجة من أمور الدين » ولم يوضح لنا مصنف الكتاب هذه الحاجة ولم ترد فى الكتاب إشارة نفهم منها هذه الحاجة إلا ماجاء فى إحداها(١) « قلب عبدك يامولاه وسيده منتظر ، ورجاؤه متصل ، وأمله لدى أمير المؤمنين مستحكم فيما وعد به صلوات الله عليه من التحنن عليه والرحمة له ببلوغه إلى مارغب فيه من الاختصاص بالفضل على غيره فى درج الآخرة كما فضله وشرفه فى هذه الدنيا ، فإن الدنيا يا مولاى دار زوال بما فيها والآخرة دار بقاء بما فيها ... الخ .

ففى هذه الرقعة فقط وردت إشارة على شىء من الوضوح إلى هذه الحاجة الدينية ، أما بقية الرقاع فلا توضح حاجته ، فإذا لاحظنا أن مثل هذا العدد من الرسائل فى موضوع واحد مما لاشك له دلالة خاصة من حيث أهمية الموضوع . وأن جوذر كان يعظم أئمته تعظيما يحمله على عدم مراجعتهم فى شىء ، فهو قد ألح فى طلب هذه الحاجة إلحاحاً شديداً جداً ، طلبها من القائم ومن المنصور وطلبها من المعز ، ونسمع فى رقاع أخرى أن الحاجة خرجت اليه(٢) ولكنه كان يلح فى طلبها والمعز يعده ويمنيه ويأمره أن ينسل ليلا من المهدية لمقابلته حتى ينال حاجته(٣) ، ثم يطلبها جوذر مرات أخرى ويكتب إليه المعز يعده بإسعافه بمسألته .

وهكذا أصبحت هذه الحاجة لغزاً أمامنا لم نستطع معرفتها ، بالرغم من الإشارة إلى جوهرها الذى ورد فى الرقعة التى ذكرناها ، فالمصنف فى هذه الرقعة يطلب

(١) نص هذا الكتاب ص ٨٤ .
(٢) ص ٧٥ .
(٣) ص ٨٥ .

من الامام « الاختصاص بالفضل على غيره فى درج الآخرة كما فضله وشرفه فى هذه الدنيا » وقد ذكرنا أن جوذر بلغ فى مراتب الدنيا إلى أقصى ما يبلغه أحد الرعايا فى الدولة الفاطمية فى المغرب ، فقد كان ثالث شخصية فى الدولة كلها بعد الامام وولى العهد ، فهل كان يطلب ما يقابل هذه المرتبة فى الناحية الدينية فيفوز بالاختصاص بالفضل على غيره فى درج الآخرة كما فضل وشرف فى هذه الدنيا ؟ فاذا كان ذلك كذلك فمعنى هذا أن جوذر كان يطمع فى مرتبة الباب التى هى أعلى مراتب الحدود الدينية بعد مرتبة الامام وولى عهده (حجته) . وعن هذه المرتبة قال صاحب رسالة البيان « وحد الباب الذى هو من الحدود الصفوة واللباب فهو أفضل الحدود وهو حد العصمة ولا ينتهى إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد وذلك مجمع الثقلين من الصور الشريفة المرتقية فى المعاد ولم يبق فوقه إلا حد الامام [1] . ويقول الكرمانى فى كتابه راحة العقل إن رتبة الباب هى رتبة فصل الخطاب الذى هو الملك » [2].

فهذه المرتبة هى المرتبة الدينية التى تقابل مرتبة جوذر المدنية ، ومع ذلك لا نستطيع أن نجزم بأن جوذر كان يطمع فى هذه المرتبة الدينية، كما أن ما ورد فى الرقاع المختلفة التى صدرت إلى جوذر من الأئمة فى أمر هذه الحاجة الدينية لا تدل على ذلك ، فمرة نقرأ أن الحاجة خرجت إلى جوذر وإلى على وناصر [3] ، ونحن نعرف أن مرتبة الباب لا تمنح إلا لشخص واحد فقط ، ونقرأ مرة أخرى أن الحاجة خرجت إلى جوذر على يدى أبى الفرات [4] . ثم نقرأ أيضاً وعد المعز بإجابة طلب جوذر فهو مرة يقول له « وحاجتك نحن نجتهد بالإسراع بنجاحها » [5] ويقول مرة ثانية « ومتى أمكننا إسعافك بمسألتك لم نؤخرها [6] ويقول مرة ثالثة « نفعل يا جوذر ونصرف إلى حاجتك طرفا من نظرنا » [7] . كل هذه

---

(١) رسالة البيان لما وجب لمعرفة الصلاة فى نصف رجب مخطوط رقم ٢٥٧٤٠ بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن . نقل الاقتباس محمد كامل حسين .

(٢) راحة العقل ص ١٣٨ .

(٣) نص هذا الكتاب ص ٧٥ .

(٤) ص ٧٥ .

(٥) ص ١٠٧ .

(٦) ص ١٠٦ .

(٧) ص ١١٢ .

النصوص لا توضح أمر هذه الحاجة الدينية التى ألح جوذر فى إصرار على طلبها من الأئمة ، بل كانت هذه النصوص سبباً فى شدة إشكال الامر علينا .

من كل ما تقدم نستطيع أن ندرك مدى قيمة هذا الكتاب من ناحية العقائد الإسماعيلية ، بالرغم من أنه ليس من كتب العقائد المذهبية .

— ٧ —

قيمة الكتاب من الناحية الأدبية

لا تقل قيمة الكتاب من الناحية الأدبية عن مثيلاتها من الناحية التاريخية أو الإسماعيلية ، ذلك أننا إذا سلمنا بأن لكل كاتب أسلوبا خاصا ، ولكل ناطق تعبيرا يدل على شخصيته فإن هذا الكتاب يمثل خمسة أساليب هى : أسلوب المؤلف فيما أورده من تعليقات ومقدمات للتوقيعات ، ثم أساليب التوقيعات والمشافهات التى صدرت عن الأئمة الفاطميين المهدى والقائم والمنصور والمعز لدين الله ، فالكتاب على هذا النحو صورة لأساليب مختلفة من تلك الأساليب التى كانت بالمغرب فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة ، وهذه النصوص من خطب وتوقيعات ومشافهات ومقطوعات شعرية كلها جديدة على الباحثين لم يرد ذكرها فى أى كتاب آخر من الكتب الأدبية ، فكانت جدة هذه النصوص المنسوبة إلى المغرب فى القرن الرابع سببا فى أن نعد هذا الكتاب مصدرا من المصادر التى تبين اتجاهات أسلوب الكتابة وأسلوب المشافهة فى ذلك العصر .

فقارىء الكتاب يتبين لأول وهلة أسلوبين مختلفين من أساليب الكتابة ، أولها أسلوب الصنعة وهو ذلك الأسلوب الذى يظهر فى خطبتين قيلتا فى مناسبتين عامتين ، فالخطبة الاولى نسبت للمنصور والاخرى للمعز لدين الله ، وكل خطبه تدل على اتجاه صاحبها ، فصاحب الخطبة الاولى (أى المنصور) قالها فى مناسبة انتصار حربى على الخارج عليه ولذلك ظهر فى خطبته بمظهر رجل السياسة والحرب والاقدام فى المعارك مع ماعرف عن المنصور من الناحية العلمية المذهبية ، أما الخطبة الثانية فقد قيلت فى مناسبة إعلان وفاة الإمام السابق فظهر صاحبها بمظهر رجل الدين الذى يريد أن يعلم هذا المذهب ويشرح شيئا من عقائده مع استسلام المؤمن بالله واليوم الآخر والموت والبعث ، ومع اختلاف موضوع الخطبتين فهما مطبوعتان بطابع الصنعة البيانية فاكتسبت الالفاظ والعبارات جرسا خاصة

وجزالة فى التعبير مع ميل إلى اصطناع السجع وتحلية العبارة بآيات قرآنية أو أحاديث نسبت للنبى وللأئمة السابقين، وقد تحاشى الإمامان أن يتمثلا بالشعر مع أن المعروف أن جل الائمة الفاطميين فى أفريقية ومصر فيما بعد كانوا جميعا شعراء وكانوا يقدرون الشعر تقديرا خاصا (١).

وإنما تحاشى الإمامان الشعر فى هاتين الخطبتين لان المقام كان يدعو إلى الاستشهاد والاقتباس بما هو أجل من الشعر: بالقرآن والحديث وكلام الأئمة. من أجل ذلك نراهما يتخيران الألفاظ تخيرا خاصا حتى تكتسب العبارة أسلوبا خاصا ظهر فيه أثر الصنعة ظهورا واضحا مع الزهد فى الاستعارة والكناية وإيثار المرونة فى التعبير على نحو ما نراه فى أساليب الصناع من الكتاب والخطباء من الجفاف وتكلف السجع. ولعل الموضوع هو الذى طغى فجعل صناعة الخطبتين تختلف عن تلك الصناعة التى كانت شائعة بين كتاب ذلك العصر فى المشرق.

والنوع الثانى من أساليب الكتاب هو ذلك النوع المرسل الذى يطلقه الكاتب دون تعمد أو تصنع فهو أقرب إلى الكلام المرسل المستعمل فى الكلام العادى. فالألفاظ والعبارات تجرى على سليقة المتكلم بمقدار ما تحتمل تلك السليقة من تخير أو تأنق فى اللفظ، وتدل على مدى ثقافة المتكلم وحسن تعبيره دلالة دقيقة فنرى كثيرا من الأساليب هنا تبتعد عن الفصحى بحيث يحس المصرى بأصول كثيرة من أصول اللغة العامية التى يتحدث بها. والظروف التى أنشئت فيها تلك التوقيعات أو الأخبار هى التى دعت إلى استخدام هذا الأسلوب فهى لم تكن مناسبات عامة بل أريد بالتوقيعات طلب تنفيذ شيء أو تقريب فكرة أو إسرار حديث لرجل أؤتمن على الدولة. وفى مثل هذه التوقيعات لايدعو مقتضى الحال إلى العناية بالأسلوب للتأنق فيه كما يفعل الكتاب المتأنقون.

* * *

وتلك العامية الملحوظة فى الأسلوب المرسل تثير مشكلة لها خطرها فهى الأسلوب الذى كان يصطنعه الائمة ومن حولهم من رجال الدولة فى إفريقية فى القرن الرابع للهجرة، قبل هجرة الفاطميين إلى مصر. ولكننا نلاحظ أن فى بعض العبارات طابعا مصريا يشعر به المصرى، فهل يجوز لنا أن نستنتج

---

(١) راجع محمد كامل حسين: أدب مصر الفاطمية، القاهرة ١٩٥٠ ص ١٢٩ — ١٢٧.

من ذلك أن هناك تقاربا بين العاميتين عامية مصر وعامية المغرب فى ذلك العصر
والجواب أن الصلة الوثيقة التى كانت تربط المصريين بسكان شمالى أفريقية منذ الفتح
العربى إلى ذلك العصر تبيح لنا هذا الاستنتاج . وقد كانت برقة منذ الفتح تعتبر
جزءاً من مصر بحيث تكون تلك الصلة مما يقرب بينها وبين المغرب فى العامية . .

ودليل آخر نقدمه على تقارب العاميتين هو أن السيرة الشعبية المعروفة بسيرة
الهلالية التى وضعت فى المغرب لا تزال تجد إلى الآن تجاوباً من عامة المصريين .
كل ذلك يدل على أن التقارب كان حقيقة واقعة ، ومع ذلك يحسن بنا أن نتحفظ
فى هذا الحكم إلى أن تتضح معالم هذا التقارب فى نصوص أخرى مثل هذا النص
الثابت الذى ننشره .

ونحن نعلم أن العامية بوجه عام لون من ألوان التطور اللغوى الذى يقع
للغات بعدة وسائل مع تطور الزمن . والعامية الملحوظة هنا جاءت عن وسائل
كثيرة منها الإيجاز فى التعبير ومنها اشتقاق جـــديد للفظ لم يجر على المقاييس
الصرفية المعروفة ، ومنها تعدية اللازم وإلزام المتعدى .

وهكذا نستطيع أن نتتبع فى هذا الكتاب بعض تلك الأساليب العربية
التى لم تجر مع الأساليب العربية الصحيحة القديمة ، ولذلك أصبح هذا الكتاب
صورة لبعض الأساليب التى كانت فى المغرب ومصر فى القرن الرابع للهجرة .
وليس من السهل تحقيق العامية التى لم يحفظ لنا منها شىء كثير ، إنما عملنا على
تحقيقها بالحس وبمنطق العامية التى بقيت إلى الآن فى مصر ، أما تحديد المعانى
فبحسب السياق والأشباه دون أن يكون لها قياس معلوم ، ولو كان اللغويون قد
تركوا لنا قواميس لتاريخ اللفظ وتطوره لأدوا خدمة جليلة للباحثين ، ويجدر
بنا الآن أن نورد هنا ثبتا ببعض الألفاظ والتعبيرات التى تقرب من العامية
التى لاحظناها فى هذا الكتاب : —

حكمت عليه العلة	بمعنى استحكمت
أطلقه حقا لأبويه	أى رعاية لحق أبويه
عدم المشترى	أى عدم وجود المشترى
فقد حصل المشرك	أى أصبح فى المنال

هذا بنيان لا نستبد منه أى لا نجد بدا منه

شكى بكاتب	بمعنى شكى منه
أخر بنا	أى أخرنا
جئناك	أى جئنا بك (بحسب السياق)
نفسى طابت عليه	
فضل بين يديه	بمعنى بقى
أفرط فى الشكية	
أردياء الناحية	
المعافاه	بمعنى الشفاء
كان يقول وهو ماشى	
يذهب لمولانا جزء من المال	أى يضيع عليه
أنك لمحقوق	أى مستحق له
نتزيد بمعنى نزداد	
فهذا وشبهه	أى هذا شبيه له أو شبيهه
ليس الأخير	دون إعراب
وكان دار النظر	بمعنى حق النظر (بحسب السياق)

سألوا بعض القادمين من الأخبار

يستأمر عليه من أمر حوائج البحر .

لصحبته مع الأمير تميم ،

كان الأستاذ قد أطلع مولانا برقعة .

كان أحدهم يريد أن يبغى الآخر ويقتله .

عجز عليه الدخول عن الذى يحتاج إليه فى وجوه الخروج ،

أنا لا نرضى بهذا الظلم والعدوان فى أحد من أهل طاعتنا وإن كان شاسعا نائى الدار . إذ كنتما لو اجتمعتما واختلفتما لم يكن اليقين فيكما ينصرف إلى غيره .

ولو علم فضل التأديب شكر عليه وأقلع عما أنكرناه . . . وأسقط يقينه وما عند ظننا ، فكيف به أن يتمسك بظنه مع يقيلنا .

ويطول بنا الأمر لو استقصينا كل مافى هذا الكتاب من تعبيرات بعدت عن التعبيرات العربية القديمة . وبذلك يجدر بالباحثين فى اللهجات العربية أن يستعينوا بهذا الكتاب وأمثاله فى دراساتهم وأبحاثهم .

— ٨ —

نشر المخطوط

نحن نعرف أن القسم الأكبر من الكتب التى صنفت فى عصر الفاطميين ضاع ولم يبق إلا أسماء بعضها متفرقا بين متون كتب الطبقات ، وأن القسم الأقل الذى بقى من هذه الكتب وهو القسم الخاص بالعقائد احتفظ به رجال الدعوة باليمن وفارس والشام ولم يهتم علماء الدعوة إلا بكتب العقائد دون غيرها من الكتب وبعد أن انتقل مركز الدعوة إلى الهند تسربت بعض هذه الكتب إليها ، فأكثر كتب الدعوة الفاطمية الآن يوجد فى مكاتب خاصة بالهند ، ونحن نعرف أيضا أن من تقاليد الإسماعيلية الحرص الشديد على هذه الكتب وسترها حتى لا يقربها إلا رجال الدعوة بل من بلغ درجة رفيعة من درجات الدعوة ، ولهذا يصعب على الباحث أن يحصل على مخطوطات الفاطميين إلا بشق النفس ، وإذا قدر للباحث أن يعثر على نسخة خطية من كتاب ، فمن العسير أن يعثر على نسخة أخرى منه أو أن يعرف شيئا عن نسخ أخرى لهذا الكتاب .

ونحن نعرف أن المنهج العلمى لنشر المخطوطات ، ذلك المنهج الذى تلقيناه عن أستاذنا الكبير المرحوم برجشستراسر ، يتطلب جمع كل نسخ المخطوط قبل البدء فى تحقيقه ، ثم مقارنة هذه النسخ مقارنة تاريخية وتقسيمها حسب أصولها التاريخية لمعرفة قيمة كل نسخة إلى غير ذلك مما يتطلبه المنهج العلمى الحديث ، ولكننا لا نستطيع أن نطبق هذا المنهج على نشر مخطوطات دعاة الإسماعيلية عامة ودعاة الفاطميين على وجه خاص ، وذلك لأن هذه المخطوطات نادرة جدا ومن الصعب العسير معرفة أماكنها لأنها فى مكاتب خاصة على نحو ما ذكرنا ، وأصحاب هذه المكتبات يكتمون أمرها أشد الكتمان ، فأصبح الحصول عليها أشق من الحصول على الجواهر النادرة التى يخفيها أصحابها ويحرصون عليها أشد الحرص ، ولهذا نستبيح لأنفسنا فى محاولاتنا لنشر « سلسلة مخطوطات الفاطميين » أن نطرح شرط جمع كل نسخ المخطوط وإذا طولبنا بهذا الشرط فكأنما نطالب بعنقاء مغرب أو نطالب بالمحال ، وإذا ألح مطالب بذلك فكأنه يطالبنا بالتوقف عن تحقيق ونشر نصوص قديمة لا شك أنها تقدم العلم خطوات إلى الأمام ، وقد نشرنا قبل هذا الكتاب عدة كتب من كتب الفاطميين النادرة ، كان لها أثرها

فى تغيير كثير من آراء الباحثين عن الإسماعيلية ، فلو كنا اتبعنا المنهج العلمى فى جمع كل نسخ المخطوطات ، لظلت الآراء القديمة الخاطئة كما هى ولما ألقينا ضوءاً جديداً على الدراسات الإسماعيلية ، وقديماً قيل « مالا يدرك كله لا يترك كله »

ونحن إذ نقدم على نشر هذا المخطوط ، فإنما ننشره عن نسختين كان من حسن طالعنا أن نحظى بهما بعد جهد ، فقد وصلت إلينا النسخة الأولى منذ ثلاث عشرة سنة ، تفضلت الجمعية الإسماعيليه بالهند بإعارتها لنا ، فأعجبنا بهذا الكتاب لما فيه من مادة تاريخية ومذهبية واجتماعية جديدة كل الجدة على المؤرخين ، ولما فى الكتاب من أضواء تكشف عن حياة الدولة الفاطمية بالمغرب على نحو ما ذكرنا من قبل . فسعينا للبحث عن نسخ أخرى خطية لهذا الكتاب فدرسنا فهارس مكتبات العالم ، وقرأنا فهرست بروكلمان عن الكتب العربية فلم نجد فى كل ذلك شيئاً عن هذا الكتاب ، ولم نجد ذكر هـــذا الكتاب إلا فيما كتبه الأستاذ الكبير و . إيفانوف فى كتابه « المرشد إلى أدب الإسماعيلية » فهو يقول فى ص ٤١ « المنصور الجوذرى كاتب الأستاذ جوذر موظف كبير فى أيام المعز وكتابه سيرة الأستاذ جوذر ، من المرجح أنه كتبه فى ذكرى مولاه » هذا كل ما جاء عن الكتاب ومؤلفه ، ولم يذكر إيفانوف أين توجد مخطوطات هذا الكتاب وهو الأمر الذى قدرنا صعوبته على كل باحث ، ومع ذلك واصلنا البحث عن نسخ أخرى حتى وفقنا سنة ١٩٤٩ إلى الحصول على نسخة أخرى تفضل علينا بها صديقنا الفاضل الأستاذ آصف على أصغر فيظى ثم ضاع جهدنا هباء بعد ذلك . وبذلك اضطررنا إلى أن نكتفى بما حصلنا عليه .

أما النسخة الأولى التى رمزنا اليها بحرف (ا) فهى نسخة حديثة جداً كما يتضح من خطها ومن ورقها الأزرق الخفيف ومن الحبر الذى كتبت به ، وليس بها تاريخ نسخها ولا من الذين امتلكوها ، والظاهر أنها نسخت فى مكان ما بالهند فى الربع القرن الأخير . وهى تقع فى ١٩١ صفحة من القطع المتوسط بخط هندى هو بين الرقعة والنسخ ، وهـذه النسخة تنتهى بتوقيع المعز لدين الله رقم ٦٧ أى أنها ناقصة مع كثرة أخطائها الإملائية والنحوية . وقد جاء فى أول صفحة عنوان الكتاب « سيرة الأستاذ جوذر تأليف منصور الكاتب » بنفس الخط والحبر . هذا كل ما يميز هذه النسخة .

أما النسخة الثانية التى رمزنا إليها بحرف (ف) فهى أقدم قليلا من النسخة الأولى، ولم يكتب عليها أيضاً تاريخ نسخها ولا من امتلكها، والنسخة كاملة لم ينقص منها شىء، وقد جاء فى غلاف الكتاب «كتاب سيرة الأستاذ جوذر رحمة الله عليه مولى أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه» ونفس هذه الصيغة وردت فى أول الصفحة الأولى من الكتاب بحبر أحمر، مما يدل على أن هذه النسخة نقلت عن أصل يختلف عن أصل النسخة الأولى، وهى أقل خطأ من الأولى وأوضح خطاً.

وليس بالنسختين عناوين داخلية ولا فواصل بين التوقيعات والرقاع، فاضطررنا إلى أن نضع عناوين للقسم الأول من الكتاب وهو القسم الذى به بعض أخبار جوذر مع الأئمة المهدى والقائم والمنصور. أما أخبار جوذر مع المعز لدين الله وهو القسم الثانى من الكتاب، فلم نضع لها عناوين إنما اكتفينا بأرقام مسلسلة للتوقيعات، ذلك لأنه فى القسم الأول ناوب بين التوقيعات القليلة التى نقلها وبين أخبار من عنده فكان لابد من وضع عناوين لكل موضوع، بينما اكتفى المصنف فى القسم الثانى بإيراد التوقيعات والرقاع مع التقديم لها دون إضافة شىء خارج عنها، فاختلف القسمان كل منهما عن الآخر اختلافا جوهرياً اضطررنا إلى أن نفرق بين القسمين فى وضع العناوين، وقابلنا النسختين وأثبتنا نتيجة هذه المقابلة فى هامش كل صفحة، ورجعنا إلى الكتب التاريخية والجغرافية والمعاجم المختلفة للاستعانة بها على قراءة أسماء وألفاظ حرفت أو صحفت فى النسختين كما استعنا بهذه الكتب على كتابة التعليقات التى فى آخر هذا الكتاب.

وقد حافظنا على الأصل محافظة تامة ولم نشأ أن نجيز لأنفسنا أن نغير شيئاً من اللفظ أو العبارة. لما فيها من الدلالة على أساليب المغرب فى هذا العصر على نحو ما ذكرنا من قبل.

(وبعد) لا يسعنا إلا أن نقدم أجمل الشكر وأجزله إلى الأستاذين الكبيرين الأستاذ آصف على أصغر فيظى والأستاذ المستشرق و. إيفانوف على ما يقومان به من خدمات علمية جليلة وما يؤديانه من مساعدات قيمة مشكورة للباحثين، فلهما الفضل الأكبر فى نشر هذا الكتاب فقد تفضلا بإعارتنا النسختين الخطيتين، ولولا ذلك ما كنا نعرف شيئاً عن هذا الكتاب القيم النادر؟

الجيزة فى أول رمضان سنة ١٣٧٤
٤ مايو سنة ١٩٥٤

محمد كامل حسين
محمد عبد الهادى شعيرة

سيرة الأستاذ جُوذر

تأليف منصور الكاتب(١)

بسم الله الرحمن الرحيم(٢)

الحمدلله الذى لايحد بالكيفية ، ولايعرف بالأينية ، المتوحد بالأزلية ، المتفرد بالأولية ، حمداً [يبلغ به أكمل رضائه] (٣) ، ويمترى به المزيد من نعمائه ، وصلى الله على سيد أنبيائه المبعوثين ، وأفضل أصفيائه المخصوصين ، محمد عبده ورسوله وعلى الصفوة من عترته الطاهرين ، وسلم عليهم تسليما .

قال منصور الكاتب الجوذرى : إنه لما استخدمنى مولاى الأستاذ جوذر(٤) — رضى الله عنه — كاتباً بعد وفاة كاتبه رشيق [١] ، وكان ذلك فى سنة خمسين وثلثمائة ، وآثرنى بما أنالنيه من جزيل الرتبة وشرف المنزلة عنده ، وجعلنى واسطة بينه وبين الخدام تحت يديه ، واستحفظنى على ماجرى بينه وبين مولانا وسيدنا الإمام المعز لدين الله — صلى الله عليه — من الأسرار مما تضمنته التوقيعات ، وجرت به المشافهات ، والكتب الواردات عليه من كل الجهات ، مع ماتبع(٥) ذلك من إسباغ فضله علىّ ، وجزيل إحسانه إلىّ ، حتى أنى لم أك شيئاً مذكوراً فجعلنى من أشياء مذكورات ، وفتح لى أبواب الخيرات ، وبلغ بى رفيع الدرجات فى باب الديانات ، فرضى الله عنه وأرضاه ، وحشره فى زمرة مواليه الأئمة الأطهار ، والسادة الأخيار .

وكان من تطوله علىّ ، وامتنانه وتفضله وإحسانه أن بسطنى وآنسنى بنفسه ، وأمرنى بالجلوس بين يديه ومحادثته ، فدعتنى نفسى عند ذلك إلى

---

(١) فى ف : كتاب سيرة الأستاذ جوذر رحمة الله عليه موالى (كذا !) أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه

(٢) سقطت البسملة فى : ف

(٣) ف : يبلغ به رضوانه

(٤) ف : الجوذر

(٥) ف : أتبع

سؤاله عن كيفية مبتدأ خدمته لمواليها الأئمة الأطهار الأبرار النجباء الأخيار — صلوات الله عليهم — وكيف كان السبب فى اتصاله بهم ، وماهو الأمر الذى أوجب بلوغه إلى تلك الحال ، من ظاهر عز الدنيا ، والتفقه فى الدين والعمل للأخرى ، والمنافسة فى ابتغاء الدرجة العليا ، فعرفنى من ذلك بما حفظته عنه ، وحسن موقعه منى ، فحمدت الله تبارك وتعالى على ما أنعم به علىّ من سماع ماسمعته من شيخ لم يَخْفَ عن جميع الأمة كيف كان فى حال ديانته وصحة أمانته ، وورعه وعفته ، وخلوص موالاته . وسنذكر ماسمعته منه فى هذا الكتاب أولا فأولا . ولما توفى رحمه الله وقد طوقنى من الإحسان ، وقلدنى من الامتنان ، ما أعجزنى — بما ترادف علىّ منه — عن[1] شكر بعض أيام حياته ، أوجبت المروءة والوفاء له بعد وفاته أن أذكر فى هذا الكتاب جميع مناقبه ، وما شرفه به مواليه الأئمة الأطهار — صلوات الله عليهم — وما جرى له فى عصر كل واحد منهم من مكرمة أناله بها [٢] ، وفضيلة اختصه بها ، وأحكى ذلك وأنقله على حسب ماجرى من توقيعات ومشافهات ، فعلَ من صدق الله ربه ، وأدّى أمانته ، ولم يغير شيئاً مما معه ، ولا زاد فيه ولا نقص منه ، ليتأمل ذلك من تأمله ، ويقف على عظيم فضل موالينا عنده ، ويستحق [٣] عند ذلك الترحم عليه ، فلعلى أكون بهذا الفعل قد قضيت المفترض له علىّ ، وبالله التوفيق .

دخول جوذر خدمة المهدى :

فأول ماعرفنى به[2] عند سؤالى إياه عن سبب وصوله إلى ماوصل إليه ، أنى جلست يوماً بين يديه وأجرى ذكر الأئمة — صلوات الله عليهم — وأن لهم فراسات صادقة ، واختبارا [٤] حقيقية ، وأنهم ينظرون بنور الله عز وجل [٥] فى جميع أمورهم فقال رضى الله عنه :

وأول ماتبينته من صدق فراسة الإمام المهدى بالله مولانا وسيدنا

(١) ا : ترادف من شكر

(٢) ا : سقطات

— صلى الله عليه (١) — أول ما وقعت عينه علىّ ، وكان ذلك (٢) هو سبب وصولى إلى ما وصلت اليه ، أنه لما أذهب الله عز وجل ملك بنى الأغلب [٦] ، وأتلف دولتهم لما كانوا عليه من الهُتكة [٧] والفسوق ، وارتكاب المعاصى والمحارم ، واستعمال المآثم ، وتضييع حقوق الله عز وجل (٣) ، وتعطيل حدود الله ، وطهر الله الأرض من رجسهم ونجسهم ، بإقبال الدولة الطاهرة والأيام الزاهرة ، ودخول الأئمة البررة أرض المغرب ، ووصل الإمام المهدى بالله عليه أفضل الصلوات إلى رقادة [٨] ، وحُصِّلتُ [٩] بين يديه مع جملة من حُصِّل من الصقالبة وغيرهم ، ففرقنا فى خدمة خزائنه ، ثم نظر إلىّ (٤) وقال : هذا صبي نجيب ، يوشك أن يكون فيه خير ، فادفعوه إلى أبى القاسم — صانه الله — [يعنى القائم بأمر الله (٥)] وهو إذ ذاك ولى عهد المسلمين ، فلزم كل واحد منا موضعه .

ولما مضت لنا أيام قلائل ، أمر المهدى بالله صلوات الله عليه بجمعنا بين يديه ، وإحضار ثياب تفرق علينا كسوة لنا ، وكانت الثياب مجنسة من ألوان شتى وأجناس مختلفة ، فلما مثلنا بين يديه قال لنا : « ليتخير كل واحد منكم ثوباً يلبسه لنفسه على حسب شهوته » ، كل ذلك لما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة التى هو أهلها ، فتخير أصحابى ثياباً من التسترى (٦) ، ومددت أنا يدى فأخذت ثوباً عتابياً وقلت : هذه أحب . فنظر الإمام المهدى بالله — صلى الله عليه — إلى صقلبي كان بين يديه من رؤساء عبيده الصقالبة وهو سليمان [١٠] ، فقال له : هذا وصيف نجيب مقبل فى [١١] خدمته فأرشده إلى ثوب من التسترى يأخذه ، فهو أبقى له وأنفع ، وأشار إلىّ سليمان أن آخذ غيره ، فقلت : ما أحب غير هذا .

فنظر إلى المهدى بالله — صلوات الله عليه — وإلى جلسائه وقال :

---

(١) ف : قدس الله روحه (٢) ا : سقطت

(٣) ف : جل جلاله (٤) ا : سقطت

(٥) ف : يعنى القائم بالله مولانا وسيدنا صلوات الله عليه

(٦) ف التشترى

سيكون هذا عبداً صالحاً ، ألا ترون أنه لم يتعهد لباس الصالحين ، والذى هو[١] أشبه بالأكفان من الثياب ، ما تخيب الفراسة فيه ، إنه سيكون عبداً[٢] راغباً فى أسباب الآخرة أكثر منه رغبة فى أسباب الدنيا . ثم قال : اقطعوا له الثوب الذى تخيره وثوبا مثل ما تخير أصحابه . فقطعوا إلى الثوبين ؛ وانصرف أصحابى بواحد واحد ، فكان هذا أول ماوقفت عليه من صدق فراسة الإمام وبركة نظره ، وما نلته من فضله » .

فليعلم من تأمل كتابى هذا ، أو قرىء عليه أن كلام الأئمة المهديين — صلوات الله عليهم — فى جميع ما أشاروا به من رمز أو تصريح أو تعريض ، أن القول منهم فى جميع ذلك حكمة بالغة ، وأدب وفائدة لمن اعتقد ولا يتهم ، وأخلص لله فى مودتهم بصدق طوية ، وخلوص نية [١٢] وإلا فهذا كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، قد ألحد فيه الملحدون ، وشك فيه المبطلون الضالون ، وأنكر فضله المكذبون « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » [١٣] وقال عز وجل « فكفروا[٣] وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد » [١٤] « اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » وانفعنا بصحيح الاعتقاد لمن سلف منهم — صلوات الله عليهم — ولخلفهم صاحب العصر وولى الأمر عبد الله ووليه وخيرته من خلقه نزار أبى المنصور الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين ، مولانا وسيدنا صلى الله عليه وعلى آبائه ، وأبنائه الأكرمين [اللهم إنك[٤]] تفعل ما تشاء وأنت على كل شىء قدير .

جوذر يشترى بركة الإمام :

وحدثنى فى هذا الباب ، رضى الله عنه ، بشىء يستطرفه من سمعه من المؤمنين ، ويزيده بصيرة فى موالاة الأئمة الهادين المهديين — صلوات الله عليهم — قال .

---

(١) ا : سقطت

(٢) ا : سقطت

(٣) ا ، ف : وكفروا

(٤) ف : إنك اللهم

لما انتقل الإمام المهدى بالله — صلى الله عليه — من رقادة إلى المهدية[١٥] التى سماها باسمه، فكانت كما قال على بن محمد الإيادى.

دار ملك سميت مهدية[١]   فيه تعرف ما طال الأبد

جرى بين رجال من أوليائه الكتاميين [١٦] مشاجرات وشرور وخصومات بسبب قسمة السواقى [١٧] التى أقطعهم إياها، وترافعوا فى الشكوى والتخاصم إليه — صلوات الله عليه — فلما وقف من تظلم بعضهم من بعض رأى — صلوات الله عليه — إخراج أحد الثقاة من الصقالبة فى الكشف عن صورة ما جرى بينهم والعودة إليه بصحة ما يقف عليه، وما يظهر له من ذلك، وخرج الصقلبى حتى بلغ الموضع، وكشف عن الأمر بقاضى الناحية وثقاة شيوخها، ووقف على معلوم من الأمر وعاد إلى الباب الطاهر، فأنهى ما وقف عليه إلى الإمام المهدى بالله صلوات الله عليه وأحضر صلى الله عليه[٢] — المتظلمين بحضرة جماعة من شيوخهم وبنى عمهم، ووقف الحال بينهم [١٨] وانصرفوا من بين يديه على أجمل انصراف وهم شاكرون حامدون لما أولاهم من تسديد أحوالهم، وحسم الشر بينهم، ثم عطف على الصقلبى الخارج كان فى الكشف فقال له: قد أديت أمانتك، فانصرف بارك الله فيك. قال: فخرج الصقلبى وهو متزامت متململ، وأنا جالس بناحية من القصر المبارك، وكنت لم أجتمع به قبل وصوله إلى مولانا — صلى الله عليه وسلم — فقمت له قاضياً لحقه، مسلماً عليه، فتبينت منه التضجر فى خطابه، فقلت له: مالى أراك خرجت متململا وقد بارك الإمام فيك وصرفك شاكراً لسعيك: فقال: كنت[٣] أنا أحب أن يجعل لى عوضا من هذه البركة شيئا أنعم به نفسى عند عودتى إلى بيتى.

فقلت له لا تفعل، فإن بركة مولانا عليه السلام خير لك من الدنيا وما عليها لو دفعت إليك. وبصرته من ذلك [بما] يجب على المؤمن أن يفعل مثله لأخيه

(١) ف: دار ملك قد وسمت باسم الهدى

(٢) ف: صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده   (٣) ف: قلت

المؤمن ، فلم يقبل . وقال : قد عرفتك يا أستاذ ما عندي وما كان من مرادي ، فلما رأيته مؤثراً لحطام الدنيا الفانية على مثل هذه البركة التي بها الوصول إلى الدار الباقية ، اقتضتني نفسي إلى فعل ما أجراني الله فيه على جميع عوايده عندي ، فوفقني أن قلت له : هل لك في بيع هذه البركة مني على صحة اعتقاد منك في بيعك إياها[1] وعلى صحة اعتقاد مني في ابتياعها منك ؟ فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : أنا أدفع إليك ما تنعم به نفسك على أن ما كان اعتقده الإمام من البركة عليك هو لي دونك . فقال هات عشرة دنانير ، بارك الله لك في نيته لي في هذه البركة . قال رضي الله عنه : فدفعت إليه عشرين ديناراً وانصرف ، فقلت : اللهم إنك تعلم ما نخفي وما نعلن « وما يخفى على الله من شيء » [١٩] فبارك لي فيما ابتعته منه واجعلني من الشاكرين . قال : وانصرف هو إلى منزله وبقيت أنا في موضعي بالقصر المبارك ، ولما كان بعد ذلك بثلاثة أيام ، اتصل خبرنا بالمهدي بالله مولانا وسيدنا — صلوات الله عليه — عمن لعله كان يسمعنا ولم نعاينه ، ، كما لا تخفى الأخبار ، وكما قيل « أكتم الأشياء ما لم يكن » وأمر صلوات الله عليه[2] بإحضاري ، فحضرت بين يديه بعد انصراف جلسائه ، فقال :

« يا جوذر ، أحق ما بلغني عما دار بينك وبين فلان — يريد الصقلي — في ابتياعك بركتنا عليه لنفسك إذ لم يقنع بها ، وآثر حطام الدنيا عليها ، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير » .

قلت :

الأمر كما بلغ مولانا[3] وسيدنا صلى الله عليك .

فقال عليه السلام :

« أسأل الله بديع السموات والأرض أن يبارك لك فيما ابتعته ، ويبارك عليك وفيك إلى أن تلقى الله عز وجل على ولايتنا » .

---

(١) سقطت في ا ، ف

(٢) ف : قدس الله روحه

(٣) ا : يامولانا

وأمر لى بمائة دينار وخلعة نفيسة ، فأخذت ذلك وعطفت الأمر فيه على بركة فراسته(١) ويمن اختباره صلى الله عليه [٢٠] .

جوذر يُستخلف على قصر القائم :

وحدثنى رضوان الله عليه(٢) أنه ما زالت أحواله تنمو ورتبته تعلو حتى لما حضر خروج القائم بأمر الله — صلوات الله عليه — إلى المغرب [٢١] فى الجيش الذى خرج فيه ، استخلفه(٣) على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله، فقام بالذى كلفه من ذلك قياماً محموداً ، وعاد القائم بأمر الله صلى الله عليه من سفرته(٤) فشكر سعيه وحمد له خدمته وأوسعه فضلا وإحسانا ، وكل ذلك فى حياة مولانا(٥) الإمام المهدى بالله — صلوات الله عليه .

جوذر صاحب بيت المال :

ولما نقل الله الإمام المهدى بالله [٢٢] إلى دار كرامته ومحل رحمته ، وأفضى بالأمر بعده إلى حجته [٢٣] الإمام القائم بأمر الله صلى الله عليه [قال — رضى الله عنه(٦)] : صرف إلىّ النظر فى بيت المال وخزائن البز والكساء [٢٤] وجعلنى سفيراً بينه وبين أوليائه وسائر عبيده ، وإذا أراد أمراً يكشفه فى حضرته أنفذنى فيه .

جوذر مستودع المنصور :

ثم خصنى بفضيلة آثرنى بها على جميع العالمين ، وأفردنى بها من بين جميع الدعاة والمؤمنين . وذلك لما أراد دفن المهدى بالله صلى الله عليه(٧) ، أحضرنى دون جميع العالم ، وقال لى وليس إلا أنا وهو على حافة القبر الذى يريد إنزال المهدى بالله صلى الله عليه(٨) — فيه :

« يا جوذر ، إنه لا يحل للحجة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم

---

(١) ف : فراسه
(٢) ف : عنه
(٣) ا : استخلف
(٤) ف : سفره
(٥) ا : سقطت
(٦) ا : سقطت
(٧و٨) ف : قدس الله روحه وصلى الله عليه

حجة لنفسه ، ولم يحل لى ذلك حتى أقيم حجتى ، وقد ارتضيتك لهذه الأمانة دون جميع الخلق ، وتلا هذه الآية من قول الله عز وجل « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا [٢٥] » .

ثم قال :

« ادن منى » .

فدنوت منه فقال :

« هات يدك » .

فبسطت يدى وأنا خائف وجل من الهيبة التى ركبها الله عز وجل له فى قلبى حتى كأنه ليس هو المولى الذى كنت أدل عليه فى خطاب وغيره أيام حياة المهدى بالله صلى الله عليه(١) ، فقال لى :

« أنا آخذ عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أنك تكتم عنى ما أظهره وأكشفه لك » ،

فقلت :

« نعم يامولانا صلى الله عليك » .

فقال :

« ولدى اسماعيل هو حجتى وولى عهدى فاعرف له حقه ، واكتم أمره أشد كتمان حتى أظهره بنفسى فى الوقت الذى يشاء الله(٢) ذلك ويختاره [٢٦] » .

ثم دفن المهدى بالله صلى الله عليه ، وواراه فى قبره صلى الله عليه(٣) وقال رضى الله عنه : فكتمت أمر المنصور بالله — صلوات الله عليه — فى نفسى ، لم يطلع على ذلك منى أحد سبع سنين . وحدثنى أبو الحسين(٤) جوهر الكاتب [٢٧] أنه سمع هذا الحديث شفاها من المنصور بالله — صلوات الله عليه — بلا زيادة ولا نقصان [٢٨] .

---

(١) ف : قدس الله روحه وصلى الله عليه (٢) ف : شاء

(٣) ف : وصلى عليه (٤) ا ، ف أبو الحسن والتصحيح من كتب التواريخ

رسالة من المنصور — ولى العهد — إلى جوذر :

وحدثنى مولاى رضى الله عنه أن المنصور بالله — صلى الله عليه — كان يميل إليه فى حياة القائم بأمر الله كثيراً دون غيره ، ويكثر الوقوف عنده فى بيته . قال : وكان الناس فى ذلك الوقت فى غمرات يعمهون ، قد تعلق كل واحد منهم بغير سبب يثبت من أولاد مولانا عليه السلام [٢٩] ، وهو رضى الله عنه قد وثقت نفسه بما عوهد عليه . قال : فلما كان ذات يوم أدبت بعض الصقالبة الذين تحت يدى على جناية كانت منهم استحقوا عليها الأدب ، وهم قيصر ومظفر [٣٠] وطارق وغيرهم من صقالبة الغار [٣١] ، فأدبتهم واعتقلتهم ، وكل ذلك فى أيام القائم بأمر الله صلوات الله عليه ، والمنصور بالله صلى الله عليه مستور [٣٢] لا يقف على أمره أحد ، فلما اجتاز المنصور بالله عليه السلام بالجهة التى هم معتقلون بها توسلوا به ، ورغبوا إليه فى التشفع لهم ، فما شعرت حتى أتتنى منه[١] رقعة بخطه ، فأوقفت مولاى عليها فتبينت منها فضل[٢] عنايته به ، وشهوته الخير له قبل ولايته . وهذه نسختها :

« يعلم الله — عافاك الله وأحسن إليك وأتم نعمته عليك — تجنبى الأشياء ، وكراهيتى أن أتكلم فى شىء من الأمور إلا أنى إذا[٣] ذكرت ديانتك ومودتك وأنسى بك رأيت أن الدالة تسقط الحشمة ، وتوجب ألا أشحّ عليك بنصيحة ، فالذى كان من أمر هؤلاء الصبيان الخدام[٤] ، وإن كنت أردتَ بذلك أدبهم وتقويمهم فقد جاوزت الحد قليلا ، والمؤمن فرض عليه واجب مثل فرض الصلاة والصيام أن يكون رحيما للدنى والشريف ، شفيقا على المؤمن والكافر لطيفا بمن قرب منه أو بعد ، وللغيظ سلطان شديد ، قل من يملكه إذا هاج أو يكسره إذا فار ، وقد ذكر جالينوس[٥] رجلا من إخوانه

(١) ف : سقطت
(٢) ا : أفضل
(٣) ف : سقطت
(٤) ف : الخدمة
(٥) ا : لجالينوس

وقال : كان رجلا شريفا عاقلا أديبا ، لم يكن فيه عيب إلا شدة غضبه ، وأنه كان لا يملك غضبه إذا هاج ، وذكر عن الرجل أنه سافر معه فى طريق بعيد ، فقال : فرأيته وقد غضب على بعض عبيده فضرب العبد بالسيف ضربة كاد أن يفنيه منها ، قال : ثم ندم بعد ذلك على فعله[١] . وقال : ياجالينوس تفضل على وعالج هذا الطبع الذى أنا عليه ، لعل أن [ينقص به من غضبى[٢]] . قال : فقال له : إن هذا لا يداوى بالعقاقير والأدوية وإنما يداوى باللسان والموعظة الحسنة[٣] . قال : فوعظه وعرفه أن ليس شىء أضر على العقل ولا أعدى إلى النفس من الغضب . قال فقبل ذلك وانتفع به .

وأنا أحب أيضا أن تقبل أنت موعظتى كما قبلها ذلك الرجل من جالينوس ، وتنقص من غضبك شيئا بعد شىء ألا يكون فيك خلق مذموم ، ويكون أول ما أعرف من قبولك إطلاقك سبيل هؤلاء الغلمان[٤] ، الذين حبستهم من قبل نفسك دون أن يعلموا أنى سألتك فيهم ، فإنهم قد سألونى فى ذلك ، وتظلموا إلى فيه ، ولكنى والله ما وعدتهم بأنى أكلمك فيهم ، ولا أحب أن يعلموه[٥] ، وبالله لولا ما أعرفه من الأنس بينى وبينك ما ذكرت لك شيئا منه مع ما أحبه أيضا من الخير لك ، وألا توصف إلا بالشفقة والرفق لا بالشدة والغلظة إن شاء الله .

أول توقيع من القائم إلى جوذر :

وحدثنى رضى الله عنه أن أول توقيع [شرفه الله به توقيع[٦]] خرج إليه بخط القائم بأمر الله — صلوات الله عليه — وعرضه على ، وأقرأنى إياه [٢٣] وذلك أنه كان القائم بأمر الله — صلى الله عليه — جالسا فى مجلسه حين[٧] سمع صراخا عاليا ، وبكاء أو عويلا ، فقال : ما هذا البكاء ؟ فقيل له :

(١) ف : سقطت
(٢) ا ، ف : ينقص من غضبى
(٣) ا : سقطت
(٤) ا : الصبيان
(٥) ا : يعلموا
(٦) ف : سقطت
(٧) ا ، ف : حتى

هو فى دار مسلم ، فقال : ادع لنا جوذر . فمضى اليه الرسول فأصابه فى بيت المال وقد توحد(١) فى تعبية شىء من الأموال كان مبسوطا بين يديه ، لم يجد إلى القيام عنه سبيلا ، فعاد الرسول إلى القائم بأمر الله — صلوات الله عليه — فعرفه بذلك . فقال : اتركوه لشغله ، وهلم الدواة ، فقد أراد الله أن يزيده شرفاً وعلواً ، وكتب إليه توقيعاً هذه نسخته .

« يا جوذر سألنا عن البكاء فقيل بأنه فى دار مسلم ، عفا الله عن المسكين ، وأعلمونى أنهم بكوا له على الطريق ، وهذا ما لا يصح أن يكون على أحد من الناس مع البكاء على أمير المؤمنين ومولى الخلق أجمعين صلوات الله عليه وبركاته على تلك النفس الطاهرة الزكية فعز(٢) ولده المسكين وعياله ، ومرهم برفع البكاء غدا إن شاء الله [٣٤] »

تعفف القائم عن المال الحرام :

وحدثنى رضى الله عنه أنه لما سافر مع القائم بأمر الله صلى الله عليه إلى المشرق [٣٥] ، وكثر امتداد أيادى العسكريين إلى نهب غنائم الرعايا المعتصمين بالطاعة ، وأن القائم بأمر الله ، صلوات الله عليه ، أنكر ذلك من فعلهم وعاقب عليه وقتل ، فلما غلبه الأمر ، تقدم إلى مشترى اللحم إلى مطبخه أن يجعل ما يشتريه من ذلك من المدن فى حين جوازه بها من عند الثقاة ، قال رضى الله عنه : فنظر إلى فقال لى :

« يا جوذر لا تأكل من هذا(٣) اللحم إلا ما أطعمناك إياه من مطبخنا حلالا ، فإن كل ما يباع بأسواق العسكر قد خبث لارتكابهم النهى واحتيالهم على النهب » .

وصية القائم لابنه المنصور(٤) :

وحدثنى من أثق به قال : لما حضرت القائم بأمر الله صلوات الله عليه

---

(١) ف : توصل (٢) ا : فعز

(٣) ا ، ف : هذه

(٤) فى نسخة ا عنوان « ذكر وصيه مولانا القائم بأمر الله لمولانا المنصور بالله صلوات الله عليهما على جوذر » ولا يوجد هذا العنوان فى نسخة ف . كما أن الكتاب كله بنسختيه ليس به عناوين تدل على أقسامه ، فلا أشك فى أن هذا العنوان من وضع الناسخ .

الوفاة أحضر (١) المنصور بالله صلى الله عليه فقال :

« يا بني : تسلم ما أمرني الله بتسليمه إليك ، وفقك الله لما يرضيه ويزلف لديه ، ومهد لك البلاد ، وجمع على طاعتك ومحبتك قلوب العباد ، ولكنني يا بني أستودع عندك (٢) وديعة أحب ألا تضيعها بعدى ، قال له : قل يا مولاى صلى الله عليك ، أرجو أن ينسىء الله فى أجلك ، ويهب لنا ولكافة أمة جدك عافيتك . قال : هيهات ، قد بلغ الكتاب أجله ، ووديعتي عندك جوذر المسكين فاحفظه ، ولا يذل بعدى . فقال له المنصور بالله : يامولاى . هل جوذر إلا واحد منا . فقال : نعم ، هو كذلك لأن نفسى طابت عليه .

استخلاف جوذر على سائر البلاد :

ولما اعتزم المنصور بالله ـ صلوات الله عليه ـ على الخروج فى طلب اللعين الدجال مخلد بن كيداد [٣٦] استخلف الأستاذ على دار الملك وسائر البلاد ، وأعطاه مفاتيح خزاين بيت المال ، وكانت مكاتبة المنصور بالله عليه السلام ترد إليه من مدينة القيروان ، وعنوانات الكتب باسم القائم بأمر الله بجميع ما يجرى من أموره ووقائعه فى جميع تلك الحروب المهولة بعد وفاة أمير المؤمنين القائم بأمر الله [٣٧] .

خطاب المنصور بانتصاره فى وقعة يوم الجمعة :

فما أقرأنيه كتاب وصل باسم القائم عليه السلام بشرح الخبر فى وقعة يوم الجمعة بمدينة القيروان ، وما كان من صعوبة تلك الوقعة وهولها حتى أجرى الله على وليه (٣) على جميل عوايده عنده ، وفتح له الفتح المبين على أعدائه المارقين الضالين أحزاب الشياطين ، وكان كتاباً شافياً بليغاً نسخته من عنده من أوله إلى آخره ، وهذه نسخته على ماقدمت ذكره حرفاً حرفاً ، بعد البسملة والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه :

---

(١) ا : حضر

(٢) ف : عندك جوذر

(٣) ا : سقطت

« الله أكبر ، الله أكبر[١] ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد ، الحمد لله على نعمه[٢] التى لا تحصى ، ومننه[٣] التى لا تجارى ، لا إله إلا الله ، والله أكبر تكبيراً ولى عهد المسلمين ، سيف أمير المؤمنين ، ناصر الدين ، شكراً لنعمته رب العالمين ، ياوارث النبيين ، ياسيد المسلمين ، ياخليفة رب العالمين ، ياخير الخلق أجمعين ، ياولى رب العالمين . اليوم أعز الله دين جدك[٤] محمد رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله ، وسنته وأمته ، وأدعم[٥] أركان الدين ، وأظهر برهان أمير المؤمنين وأفلج حجته ، وأعلا كلمته ونصر حزبه ، اليوم فتحت مشارق الأرض ومغاربها ، اليوم ازداد الحق ضياء وسناء وعلاء . الحمد لله رب العالمين الذى نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، والله ياسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، ما سمع من عهد جدك المصطفى رسول الله صلى الله عليه بيوم كان أعز نصراً وتأييداً وظفراً وقهراً (منه ، بعد)[٦] أن عاند الفسقة الفجرة الكفرة عناد من أيقن بالموت واستبسل ، وناصب وعاند ، فأبى الله عز وجل إلا إتمام نوره وإعلاء كلمته على كره الكافرين ورغم الراغمين . جملة ما أبشر به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أن قتلاهم غطت الأرض وامتلأ المسكر المنصور من غنائمهم ، وكذلك مدينة القيروان ، وما عجز الأولياء عن حمله واستثقلوه أطلقت النار عليه فأحرقته ، واستولينا على مناخ اللعين بما فيه من قليل وكثير ، فقتل به ما لا يحصى ، سوى من قتل فى المعركة ، وليس إلى إحصاء قتلاهم سبيل لكثرتهم ، وكان اللعين قد صابر وحامى فقصدته بنفسى ، فأخذته السيوف والرماح بين يدى ، وليس على اللعين إلا قميص واحد - سربله الله سرابيل جهنم - فقيل إنه قد صرع فى المعركة -

---

(١) ا : اسقطت
(٢) ا : نعمته
(٣) ف : منته
(٤) ا : جد
(٥) ف : أدعم به
(٦) ا ، ف : من بعيد

وقد أمرت بالتفتيش عليه ـ وأرجو ذلك ، على أنه إن كان قد هرب بحشاشة نفسه فهو أسير يومه أو غده[١] . وأنا راحل فى ليلتى هذه بعد نصف الليل أو فى السحر لأشق البلاد طولا وعرضا ، أطأ ديار الفاسقين ، وأمحو بسيفك آثارهم بحول الله وقوته ، وعزه ونصرته ، وقد بعثت بكتابى هذا إلى أمير المؤمنين (مولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين]‏[٢] مع ثلاثة من عبيده ممن شهد الوقعة الميمونة تحت ركابى ليشافهوا أمير المؤمنين صلى الله عليه بما شاهدوه ، وإن كان وصف النعمة معييا وشكرها معجزا . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد نبيه سيد المرسلين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين . وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وثلاثين وثلثمائة » [٣٨] .

خطاب آخر من المنصور يعلن موت القائم :

ورحل المنصور بالله صلى الله عليه فى سحرة ذلك اليوم فى طلب اللعين ، وكتبه ترد بالأخبار وقتا بعد وقت إلى الأستاذ (ووصل كتاب من المنصور بالله ـ صلى الله عليه[٣]) إلى الأستاذ بأوامر وأحكام وحوائج ، فقرأت فى هذا الكتاب فصلا فيه تصريح المنصور بالله بموت القائم بأمر الله (صلى الله عليه[٤]) ، وذلك أنه أوصى فى الكتاب[٥] بصيانة مخلفى القائم بأمر الله وإجراء رسومهم على حسب ما كانت عليه . وهذه نسخة الفصل :

« وأقول بعد الصبر والاحتساب : الحمد لله على جميع الأحوال ، قد تعلم اللهم أنى طالما ناجيتك فى[٦] ظلم الليالى مبتهلا متضرعا إليك أسألك ألا تشهدنى فقده ولا تحيينى بعده ، فأبى قضاؤك الماضى وحكمك النافذ ، فصبرنى على ما ابتليت ، وأرضنى بما قضيت ، وصلوات

---

(١) ا : وعد
(٢) ا : صلوات الله عليه مولانا
(٣) ف : سقطت ما بين القوسين
(٤) ف : قدس الله روحه
(٥) ا : كتاب
(٦) ف : سقطت

الله ورحمته وبركاته ورضوانه على جسمه المطهر وروحه المقدس في الدنيا والآخرة ».

فعند ذلك علم الناس أن القائم بأمر الله (صلى الله عليه[1]) توفى.

رسالة من المنصور في مال تقرب به جوذر :

وقرأت في فصل من كتب المنصور بالله ـ صلوات الله عليه ـ كان جوابا للأستاذ عما كتب به إليه في أمر مال تقرب به وعمل عمله، وكان الأستاذ لا يجتمع له شيء من المال إلا تقرب به إلى مواليه الأئمة صلوات الله عليهم وكانت جملة ذلك المال فوق عشرة آلاف دينار، فكان الجواب له في هذا الفصل :

« وصل المال الذي بعثت به يا جوذر، زكى الله سعيك، وأكمل أجرك، إلا أنك حملت نفسك حملا ثقيلا، والله عز وجل يقول : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » [٣٩] والوسع دون الطاقة، وقد قبلت منه ألف دينار وهو كثير، ورددتها إليك، فاعمل لنا من هذه الألف دينار سرجا مذهبا خفيفة شمرية بأقل من ألف درهم، وتخير لها عودا واسعا جيدا، واعمل بما بقي منها سيوفا بحمائل على نصول تطبعها بالمهدية تكون لها [٤٠] ولا يكون منها افرنجى [٤١] ولا يماني ولا غيره، فإن هذه السيوف المستعملة أمضى من كل سيف رأيناه، وقد اختبرنا ذلك وجربناه[2] مرارا، وليكن حلية كل سيف منها بخمسين دينارا ليكون لك بذلك أجران : أجر فيما تقربت به إلى الله عز وجل، وأجر تشارك فيه من يجاهد بها بين أيدينا في سبيل الله إن شاء الله، وسائر مالك فانتفع به، ثمره الله لك ومتعك به ».

رسالة من المنصور إلى جوذر :

وكان ذلك والإمام المنصور بالله صلوات الله عليه بمدينة القيروان.

---

(١) ف : قدس الله روحه وصلى عليه وعلى آبائه (٢) ف : سقطت

مانهض بعد فى طلب اللعين [٤٢] ، فلما قرأ الأستاذ الكتاب تداخله وحشة واغتمام لمفارقة الإمام [٤٣] ، واتصل ذلك بالمنصور بالله — صلوات الله عليه — فكتب إليه :

« ياجوذر أحسن الله اليك ، وأتم وأسبغ نعمه عليك . الذى يتصل بى عنك من الضبط والقيام والكفاية هو أحسن [١] الظن بك والرجاء فيك وذكر لى إفراط فى الوحشة والاغتمام لفراقنا، فلا يضعف قلبك لبعدنا عنك بشىء يسير ، فإنك معى ومنى وإلىّ ماقمت بالمفترض عليك ، وعملت لربك ورغبت فى عهده ، قال ابراهيم عليه السلام « فمن تبعنى فإنه منى » [٤٤] نسأل الله عونك وتوفيقك لما يرضيه ويزلفه [٢] لديه » .

انهزام مخلد بن كيداد :

وودحل الإمام المنصور بالله — صلوات الله عليه — فى طلب اللعين مرحلة بعد مرحلة [٤٥] حتى نوغل فى بلاد المغرب ، وكانت كتبه ترد عليه وقتا بعد وقت بأوامره وبالبشارات [٣] بما يفتح الله له وبه ، ويؤيده من النصر والظفر على أعدائه المارقين الملحدين الأزارقة [٤٦] أعداء هذه العترة من أول ابتداء هذا الدين فى حياة رسول الله صلى الله عليه ، قتلة على بن أبي طالب صلى الله عليه ، حتى نزل اللعين فى قلعة بجبل وعر حصين لايكاد أن يوصل الى من حلّه . تعرف القلعة بكيانة [٤] هى فى الوصف كما قال على ابن محمد الإيادى الشاعر [٤٧] يصفها ويذكر اللعين أبا يزيد ونزوله منها :

فارتقى الملعون من خيفته ... فى ذرى أعيط عال مصعد

---

(١) ا : حسن (٢) ا : يزدلفه

(٣) ف : بالعشاريات

(٤) ا ، ف : بكفانة وفى ابن الأثير واتماط الحنفا .. كتامة .. والتصحيح عن ابن عذارى وتقع القلعة جنوبى مدينة سطيف بين تاهرت والقيروان .

في ذرى خلقاء ملساء على ... ذلك المعقل ليست بصدد[1]
معقل من فوقه الله ومن ... تحته المنصور في جيش ممد
فارتقى المنصور بالسيف له ... يوم طعن كشآبيب البرد
واثقا بالله في غربته ... عن بني أحمد ناء منفرد
فإذا مخلد في كف الردى ... موثق[2] الجيد بحبل من مسد
قد رمته الحرب عن غاربها ... واهي الركن ذليل المستند[3]
كنفيض أخرجته أمه ... ليس إلا نبض عرق وجسد
فأوى من كرم المنصور في ... كنف رحب وخفض ورغد
طلبا منه ليبقى[4] روحه ... وبقاء الروح أشفى للكمد
فأبى الله سوى إبجاله ... وعذاب الله للجسم أحد
فنضا عنه أديما دنسا ... كان قد أسرف فيه ومرد[5]
كأديم التيس لما لم يطب ... ريحه جرد منه فانجرد
وحشاه سالخوه سعفا ... ماليا بين كعب وكتد
ثم رقاه على مستحصد ... باسق أجرد[6] ما فيه أود

وكان المنصور بالله ، صلى الله عليه ، نزل على اللعين في حين لجأ إلى هذا الجبل بعسكره[7] في أيام الخريف ، وأقام محاصراً له برهة من الزمان ، وكانت بين الفئتين وقائع صعبة وحروب شديدة ما رأى الناس قط في الإسلام مثلها ، ولا دار زمن يعرفه الناس بما يشبهها . حدثني من أثق به أنه حضر يوماً من هذه الأيام وقعة تعرف بقصور الحيتان بأرض الزاب ، قال : لما رحل العسكر ومشى الناس في هذا اليوم بعينه . ما راعني إلا رجوع المقدمة ، وتشوش الجيش ، فقلت : ما هذا ؟ . قالوا : قد وافانا العدو مواجهة ، فلاذ الناس بأمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، فقال :

---

(١) ف : بصرد
(٢) ف : موفق
(٣) ا : المشد
(٤) ا : لبق
(٥) ا : ومرض
(٦) ف : أحر
(٧) ا : بعساكر

« اضربوا الفسطاط ، وليخرج كل قوم على مراتبهم » .

فوالله ما حان للناس أن يأخذوا أهبة الحرب حتى نظرت إلى وادٍ قد أحدق بالمعسكر من كل الجهات إلا الجهة التى قابلنا العدو منها ، فوالله ما كنا على تواطؤ من ذلك ، واشتد الحرب ، وكان يوما صعبا ، ثم فتح الله لوليه وابن نبيه ، وانهزم الفسقة الأزارقة ، وأمر المنصور بالله بقطع الرءوس ، فقطع منها مايعجز الوصف ويخرج عن الحد والنعت .

شعر للمنصور :

وفى هذا اليوم يقول المنصور بالله صلوات الله عليه

تبدلت بعد الزعفران وطيبه	صدا الدرع من مستحكمات السامرى
ألم ترنى بعت المقامة بالسرى	ولين الحشا[1] بالخيول الضوامر
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم	يثورون ثورات الأسود الخوادر
أرونى فتى يغنى غنائى ومشهدى	إذا رهج الوادى لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد	بسيفى أقد الهام تحت المغافر

وبعث بهذه الأبيات إلى الحضرة العالية[2] فى كتاب ورد منه ، وكانت وقائع عظيمة بعد ذلك ، وكتب بهذه الأبيات الأخر[3] فى درج كتابه[4] ، وكانت الأبيات إلى المعز لدين الله صلوات عليهما :

كتابى إليك من أقصى الغروب	وشوقى شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوى الرمال	وأحمل نفسى على كل هول
أريد بذاك رضاء[5] الإله	وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن يرى السير[6] أجسامنا	وكلّ الركاب وتاه الدليل
فواغربتاه وواحشتاه	وفى الله هذا قليل قليل

---

(١) ا . الحشايا
(٢) ا : سقطت
(٣) ا : سقطت
(٤) ف : كتاب
(٥) ف : بذاك أرضى
(٦) ا : السيف

وما ضقت ذرعاً ولكننى نهضت بقلب صبور حمول
وقد مَنَّ ذو العرش من فضله بفتح مبين وعز جليل
وفى كل يوم من الله لى عطاء جديد وصنع[1] جميل
فلله حمد على ما قضى وحسبى ربى ونعم الوكيل »

عتق جوذر وتلقيبه :

ولما انهزم اللعين الدجال ، واستولى الأولياء على أكثر ما كان له من العدد ، واشتد الحصار على الفسقة الأزارقة[2] ، وكانت وقعة أخذ فيها الملعون أسيراً ، وأظفر الله به وليه وابن نبيه ، حسب ما ذكره على بن محمد الإيادى فى شعره الذى قدمنا ذكره ، أمر المنصور بالله صلوات الله عليه عبده جوهراً الكاتب بإنفاذ السجلات على البريد إلى جميع الآفاق بالفتح ، وكتب إلى الأستاذ سجلا عظيما ، وفى داخله رقعة بخط المنصور بالله — صلى الله عليه — فيها [٤٨] :

« ياجوذر ، أسعدك الله بطاعته ، وتولاك بكفايته . إنا قد أوجبنا على أنفسنا من العتق والصدقات[3] وفعل الخيرات شكر الله عز وجل على ما أنعم به علينا من هذا الفتح العظيم قدره الجليل خطره ، ما قد نفذ أمرنا إلى كل عامل بما يعمل به فى جهته حسب ما رسمنا له ، وإليك — صانك الله — بما تمتثله فى إخراج ما رسمناه من الصدقة على الفقراء بالمهدية وما حولها ، لكننا لم نجد فى باب العتق عملا ولا أقرب قرباناً[4] عند الله عز وجل من عتق رقبة مؤمنة طاهرة زكية مثلك ، فأنت حر لوجه الله العظيم ورجاء[5] ثوابه الجسيم ، قد أعتقت جسمك وروحك فى الدنيا والآخرة ، وسميناك تشريفاً

---

(١) ا : ووضع
(٢) ا : سقطت
(٣) ا . ف : الصدافات
(٤) ف : قربة
(٥) ف : ورجائى

« بمولى أمير المؤمنين » ، فاجعل مكاتبتك لمن كبر قدره وصغر من جميع الناس « من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان » ولا تكنى أحداً ، ولا تقدم على اسمك اسماً إلا اسم مولاك أبى تميم [٤٩] استرعاه[1] الله وبارك فى عمره » .

فما زالت مكاتبته الناس على هذا مدة أيامه حتى صار [إلى رحمة الله][2]

اسم جوذر على الطرز والبُسُط :

وأنفذ إليه بعد ذلك بأن يثبت اسمه فى الطراز من أعمال العبيد الرقامين بالذهب فيما يلبسه الأئمة صلوات الله عليهم ، وكذلك أيضا ما يعمله العبيد الحصريون من عجيب أعمالهم ومعجز صنعتهم ، وقال له :

« اكتب لهم يثبتوا فى الطراز والبسط « مما عمل على يدى جوذر مولى أمير المؤمنين بالمهدية المرضية » . .

وكل ذلك تشريفا له ، وتعظيما لقدره ، صلوات الله على مولانا وسيدنا أمير المؤمنين الإمام المنصور بالله . وكان عليه السلام معجبا بأعمال هؤلاء العبيد ، وكثيراً ما [كان] يأمر صلى الله عليه بحفظهم ويقول .

« إن أعمالهم رياض مونقة »

المنصور يكرم جوذر :

ولما وصل الإمام المنصور بالله صلى الله عليه إلى دار ملكه — إلى المهدية [٥٠] — تلقاه الأستاذ جوذر بأحسن زى وأكمل عدة ، بموضع الوادى المعروف بالمالح [٥١] ، ولما وقعت عينه عليه أعجب به وملىء به سرورا وبرؤيته ، ثم قال :

« ما أدرى أين أخىء جوذر من الموت ، ولو أن الشباب يشترى لبذلنا له فيه النفيس مما نملكه »

ثم سلم عليه سلاما تاما ، وأقبل عليه إقبالا حسنا ، وكساه فى الوقت خلعا

---

(١) ف : استودعه   (٢) ا : إلى الله رحمة الله عليه

كان أعدها له ، وحمله على فرس أبلق من مراكبه يعرف بأبلق بن نيوط[1] ، وقوّد بين يديه مراكب أخرى بسروج ثقيلة ، فلما وصل إلى قصره وحضر الطعام ، أمره بالجلوس معه على المائدة ، وكان ذلك أول جلوسه على المائدة بين يديه .

ذخائر المنصور تودع عند جوذر :

وكان المنصور بالله صلوات الله عليه يدخر عنده نفيس ما احتوى عليه ملكه ، وأرفع ذخائره من كل فن ونوع ، ولقد أخرج إليه يوما كتبا كثيرة تحتوى على علوم شتى من ظاهر وباطن ، وكتب إليه معها رقعة نسختها :

« بعثت إليك كتبي وكتب الأئمة[2] آبائى الطاهرين ، وقد ميزتها ، فأقرها عندك مصونة من كل شيء ، فقد وصل الماء إلى بعضها فغير فيه ، وما من الذخائر شيء هو أنفس عندى منها ، فأمره محمدا كاتبك [٥٢] ينسخ لك منها ثلاثة كتب ، ففيها من العلوم والسير ما يسرك الله به . وهي كتاب الإيضاح [٥٣] وكتابان فيهما خطبتان إحداهما من تأليف القائم بأمر الله صلى الله عليه[3] ، مما أمر المروزى [٥٤] أن يخطب بها فى أيام اللعين الدجال مخلد بن كيداد ، والثانية من تأليفنا نحن ، وهى التى خطبنا الناس بها فى سنة ست وثلاثين وثلثمائة بعد انصرافنا من المغرب ، أعلنا فيها بموت القائم بأمر الله صلوات الله عليه وذكرنا فيها عظيم المصيبة به »

خطبة القائم بأمر الله التى ألقاها المروزى :

وقد أثبت فى كتابنا هذا من ذلك ما يجب ذكره ، وأباح الله ووليه إظهاره ، وتركنا ما سوى ذلك كراهة اكتساب الآثام ، والتجاوز إلى

---

(١) ا : بياض بمقدار كلمة (٢) ف : وكتبا للأئمة

(٣) ف : قدس الله روحه وصلى عليه

المحظور [٥٥] فأثبتنا الخطبتين جميعا أولا فأولا ، وفى ذلك حياة لقلوب العارفين ، وبدأت بخطبة القائم بأمر الله صلى الله عليه التى أمر المروزى أن يخطب بها فى أيام الحصار [٥٦] وهى التى يقول فيها بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبى محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين :

« أيها الناس ، إن هذا اللعين النكارى قد استشرى أشره ، واستوبأ مرتعه ، وحملته الأمانى الغرارة ، والنفس التى هى بالسوء أمارة ، على أن غمط نعمة الله عليـــه ، وسول له الشيطان الذى هو قرينه ألا غالب له ، وإنما أرخى له أمير المؤمنين فى زمامه(١)، ليعثر فى فضل خطامه ، فلعنه الله لعنا وبيلا ، وأخزاه خزيا طويلا ، وصيره إلى نار تلظى ، « لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى » [٥٧] وقد علمتم ، يا معشر كتامة ، ما مضى عليه آباؤكم وقدماء أسلافكم من لزوم الطاعة والاعتصام بحبلها ، والتفيء بظلها ، والمجاهدة فى الله حق الجهاد(٢)، وأنكم خبيئة الله لهذا الحق المحمدى الفاطمى المهدى حتى أظهره الله وأعلاه ، وجعل لكم فخره وسناه ، فأنتم كحوارى عيسى وأنصار محمد صلى الله عليه . يا أبناء المهاجرين والأنصار الأولين السابقين المقربين ، أليس بكم أزال الله دول الظالمين التى مضت لها أحقاب السنين ، حتى جعلهم الله حصيدا خامدين ، وأورثكم أرضهم وديارهم ، فصرتم تغزون بعد أن كنتم تُغزَون ؟ نزل بإزائكم الدجال اللعين فى شرذمة ضالة مضلة ، لم يستضيئوا بنور هداية ، فهم كالأنعام المهملة والصور الممثلة والخشب المسندة والحمر المستنفرة إن أقاموا هلكوا وإن طولبوا أدركوا ، فلا تنكصوا بعد الإقدام ، وأنتم حزب الله ، وهم حزب الشيطان ، وقتيلكم فى الجنة ، وقتيلهم فى النار ، فأى حق بعد هذا الحق تطلبون ، ومع أى إمام بعد إمامكم تقاتلون ، قاتلوا رحمكم الله أحزاب الضلال ، وذئاب الطمع ، وفراش

(١) ف : زمانه

(٢) ا : جهاده

النار ، واطلبوهم فى نواحى الأرض وأقاصى البلدان وجميع الآفاق، حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون »

فلما سمع الأولياء هذه الخطبة قالوا: سمعا وطاعة ، وارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج ، وانصرفوا من مصلاهم إلى الحرب ، وكان لهم بذلك أول الفتح على الحرورية ، مخلد اللعين وأصحابه الضالين . والحمد لله رب العالمين .

خطبة المنصور يعلن موت أبيه :

خطبة الإمام المنصور بالله ، أظهر فيها موت القائم بأمر الله صلوات الله عليه :

« الحمد لله حمد شاكر لأنعمه التى لا يحصى لها عدد ، متعرض للمزيد من فضله الذى لا ينفد ، ولا إله إلا الله إخلاصا بالتوحيد ، ولا إله إلا الله إجلالا لذكره العلى المجيد ، سبحان المستشهد بآياته على قدرته ، الممتنعة من الصفات ذاته ، ومن الأبصار رؤيته ، ومن العقول تحديده [٥٨] ، ذى الكبرياء والعزة والجلال ، والقدرة والثناء والعظمة ، له السموات العلى والأرضون السفلى ، وما فوقهما وما تحت الثرى ، كل خاضع لعظمته ، متذلل لعزته ، متصرف لمشيئته ، واقع تحت قدرته. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اختاره وانتقاه ، وأكرمه واصطفاه ، وانتجبه وارتضاه ، وبعثه بالهدى ودين الحق الذى تعبد به من فى السموات من الملائكة المقربين ، ومن فى أرضه من الثقلين [٥٩] ، واضطلع عليه السلام بما حُمّل ، وبلّغ ما به أرسل ، صادعا بأمره صابرا على البأساء والضراء فى جنبه ، إلى أن أظهر الله دينه على الأديان ، وأزهق حقّه أباطيل الأوثان . صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرم .

عباد الله : أوصيكم بتقوى الله وطاعته وخشيته ومراقبته ، والتقرب إليه بما يرضيه ، فإنه بما فى قلوبكم عليم ، وبأعمالكم خبير

بصير ، لاتخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه فى السموات والأرض مثقال ذرة ، ولا ينجى من سخطته ولا يوصل إلى رحمته إلا طاعته « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما » ألا وأن الله عز وجل جعل يومكم هذا عيداً معظما على الأيام ، ختم الله به شهراً مفضلا على الشهور ، وافتتح أيام شهور الحج إلى بيت الله العتيق الذى عظمه وكرمه وجعله قبلة الصلاة ، ومحل البركات ، ومنزل الرحمات ، مثابة للناس وأمناً ، ومناراً للناس وعلما ، فتقربوا إلى الله فى يومكم بأداء فطرتكم [٦٠] التى هى زكاة صومكم وسنة نبيكم سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، كل امرىء منكم عن نفسه ، وكل واحد من أهله ، ذكورهم وإناثهم ، وصغارهم وكبارهم صاعا من بر أوصاعا من زبيب ، أو صاعا من شعير من طعامكم وأهلكم لا من غيره ، فليس يقبل منكم إلا ذاك ، وأكثروا الدعاء واستشعروا الحذر والرجاء . « ياأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، ولتنظر نفس ماقدمت لغد [٦١] » فقريب والله وكأن قد[1] إنه عز وجل لم يهملكم إهمال الهمج ، ولم يجعل عليكم فى الدين من حرج ، ولا عذر بعد إيضاح النهج ، وتأكيد الحجج برسوله وأئمة الهدى من ذريته عليهم سلام الله ورحمته ، وفقنا الله وإياكم[2] لديه ، فإنا به وله ، وصلى على سيد المرسلين وعلى الأئمة المهديين الذين بالحق قضوا وبه يقضون ، وبه عدلوا وبه يعدلون] .

[ثم جلس][3] وقام بالثانية فقال .

« الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلوات الغاديات الرائحات الزاكيات الناميات الباقيات على محمد وعلى آله الطيبين ، الأئمة المهديين ، السادة الأكرمين ، الأطهار الأبرين ، حمداً حمداً وشكرا

---

(١) ف : والله كان قد كان أنه (٢) سقطت فى ف

(٣) ف : سقطت

شكرا ، أنجزت وعدك ونصرت عبدك على كره الكافرين، وصغار المارقين الأخسرين الأجفرين ، أصحاب الدجال اللعين، المغضوب عليه وعليهم الضالين ، الأرجاس الأنجاس ، أولى [١] الذل والاتعاس . الأشقياء الأخزياء ، الملعونين فى الأرض والسماء ، حمدا حمدا ، شكرا شكرا ، عودا بدءا ، وسعا طولا ، لامكافيا نعماءك ، ولامجازيا آلاءك ، معترفا بالعجز عن الشكر ولو بكل لسان طول الدهر . سلام الله وصلواته ورحمته وبركاته وتحياته عليكما يا أميرى المؤمنين، يا ابنى الهداة المهديين ، يا أبتاه، ياجداه [٦٢] ، يا ابنى محمد رسول الله ، سلام مسلم لله فيما قضاه [٢] على من فقدكما ، صابر على ما امتحننى من بعدكما أوان الحسرة وشرق العبرة عليك يا أبتاه ! يامحمداه ! يا أبا القاسماه! ياسيداه ! ياجبلاه ! واشوقاه ! واألماه . وخالق الأرض والسماء ، باعث الموتى مميت الأحياء : ما أنا فى ريب من اختيار الله لك ، ونقله إياك إلى دار كرامته ، ومستقر رحمته التى بوأها محمدا رسوله صلى الله عليه جدك ، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب أباك ، وفاطمة الزهراء البتول أمك ، وآباءك المهديين الأبرار ، لكن لوعة المحزون باعثة للشجون [٣] ، مبكية للعيون، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وله مسلمون وعلى كل حال تصرف بنا حامدون ، ولنعمائه شاكرون ، فقد أعظم الله عز وجل النعمة ، وضاعف المنة بما ربط به على قلبى من الصبر، وما أكرمنى به من العز والنصر الذى أرسى به قواعد الإسلام ، ونور به قلوب المؤمنين بعد الإظلام ، وبعد انقطاع الرجاء لتطاول مدة البلاء [٤] بالفتنة العظمى وأهوالها [٥] وبلبالها ، وهى الصماء الصماء الجهلاء [٦] بدجال النفاق وأحزابه المراق، أعداء الدين وأنصار

---

(١) ا : ذوى

(٢) ا : أقضى

(٣) ا : للشؤن

(٤) ا : البلايا

(٥) ا : وأحوالها

(٦) ف : الجاهلية الجهلاء

إبليس اللعين ، أمهلهم الله استدراجاً ، وأملى لهم فازدادوا فى الغى لجاجا ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، ولينظر أولوا الألباب مصداق وعد الكتاب « ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين [٦٣] وعدا من الله لا يخلفه ، وحكما لا يبدله فى الأولين والآخرين الى يوم الدين » فكانت بحمد الله ونعمته على أعدائنا فتنة أعمتهم وأصمتهم وأردتهم وأتعستهم وأركستهم فأذلتهم وأخزتهم (١) ، ولنا ولأوليائنا محنة أكسبتنا أجرا وذخرا ، وأعقبتنا عزا وفخرا ، وكان وجهها شتيما (٢) وعقباها كريما لما أراد الله عز وجل من تجديد دولتنا وإعزازنا ، وظهور نعمته علينا ، وتكفله بنصرنا وتمحيص ذنوب أوليائنا ، وتمحيق أعدائنا ، حتى إذا انتهت منتهاها ، وبلغت أقصى مداها ، ورجع الشيطان [خادرا [٦٤] ونطق [هادرا] (٣) وأذكى ناره ، وأدام إصراره ، وآسف (٤) الله ، أذن بالنقمة فيه بتسليط عبده ووليه ، فجلى الله ظلمتها ، ونور بهمتها (٥) ، وكشف عماها ، وصرف لأواها بى وعلى يدى ، كرامة من الله وفضيلة حبانى بشرفها ونعمة لى ذخرها ، وعلىّ قصرها ، وصل بحديثها علىّ قديم أنعمه على آبائى الطاهرين ، وسالف منته على أجدادى الأئمة (٦) المهديين ، شهرت دون ذلك السيوف فكسرها ، ودلفت إلىّ الزحوف فصمدها ، وتظافرت على جنود الكفرة فخذلها ، وطمحت نحوى العيون فطمسها ، ورفعت الرءوس فنكسها ، وشمخت الأنوف ، فأرغمها ، وصعرت الخدود فأصرعها ، وأبى جل جلاله إلا إتمام

(١) ا : أخذيتم
(٢) ا : سبتها
(٣) ا : خاطرا ونطقها در
(٤) ا : وأسف . وآسف الله بمعنى أغضبه
(٥) ا : ف بهجتها
(٦) ا : سقطت

أمرى واعزازى ونصرى ، وإظهارى وإظفارى ، وتأييدى وإعلائى انجازا لوعد محمد رسوله صلى الله عليه وسلم باعزاز ملته ، واعلاء حجته ، ونصر أئمة الهدى من ذريته ، فأمضى قضاءه قادرا ، وكبت أعداءه قاهرا ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، ولا شريك فى الحمد له .

يا أهل دعوتنا ، يا أنصار دولتنا ، يا كتامة ، احمدوا الله [١] واشكروه على ما خصكم به من نعمته وجسيم منته ، وفضلكم به على كافة الخلق فى غرب وشرق ، بدأكم [٢] بالنعمة العظمى ، ثم شفعكم بالمنة الكبرى ، ووالى بينهما من سوابغ نعمه بما لا يحصى ، بصركم والناس عميان ، وعلمكم والناس جهال ، وهداكم والناس ضلال إلى دينه ونصرة حقه وطاعة وليه ، علم الهدى وسراج الدجى ، وحبل الله المتين ، فأفازكم بالسبق إلى نصرته ، والسعى فى طاعته ، والتفيء بظل دولته ، والاستنارة بضياء حكمته ، حتى إذا قضى الله زلزال البلاد واختبار العباد ، وجلل الظلام ، وتزلزلت الأقدام ، وعظمت الخطوب ، واشتدت [٣] الكروب وفسدت القلوب ، عصمكم الله ، وهدى قلوبكم ، وثبت أقدامكم إلى أن جلاها الله عنكم خاصة ، وعن العباد كافة بنا وعلى أيدينا ، وكانت عليكم [٤] نعمة ، وعلى العباد حجة ، فانجلت والله عنكم بيض الوجوه موفين بعهد الله معتصمين بحبله .

«اللهم إنى أصبحت راضياً عن كتامة لاعتصامهم بحبلك ، وصبرهم على البأساء [٥] والضراء فى جنبك تعبدا لنا واعترافا بفضلنا ، وأداء لما افترض الله على العباد لنا ، وتوسلا إليك بطاعتنا . اللهم فارض عنهم ، وضاعف حسناتهم ، وامح سيئاتهم ، واحشرهم فى زمرة نبيك

(١) ا : لله
(٢) ف : بدأ بكم
(٣) ف : استبد
(٤) ف : علينا
(٥) ا : ف البؤس

الذى دانوا به، ووليك الذى والوه، وأبق نعمتك عندهم وأتمها عليهم، وأكمل حسناتك إليهم، وخلد العز فى أعقابهم، وأجزل ثوابهم، واهدهم وطهر قلوبهم، إنك سميع الدعاء قريب مجيب ».

قال: فقلت للأستاذ مولاى رضى الله عنه: لقد قرأت خطب الخطباء، ووقفت على بلاغة البلغاء، فوالله ما شاهدت[1] مثل بلاغة الأئمة عليهم السلام. فقال لى: يابنى أين أنت من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله أجرى مصابيح الحكمة — على ألسنة أهل البيت » والله ما أراد بذلك صلى الله عليه وسلم إلا الأئمة الطاهرين من ولد على وفاطمة والحسين، الذين أنفسهم من نفسه، ودماؤهم من دمه، وطاعتهم موصولة بطاعة الله وطاعته، صلى الله عليه وعلى الخيرة الطيبين الأبرار من آله وسلم [٦٥].

المنصور يهدى أموالا إلى جوذر:

جرى من مكاتبات المنصور بالله صلى الله عليه إلى الأستاذ أشياء، من ذلك: أنه لما أمر المنصور بالله صلى الله عليه بضرب السكة المنصورية على اسمه [٦٦] الطاهر، وارتفع أول الضرب إليه، بعث منها إلى الأستاذ ألف دينار إلى المهدية، وكتب معها رقعة بخطه — صلى الله عليه — إليه، وهى:

« ياجوذر، صانك الله وسلمك. بعثنا إليك ألف دينار رباعية منصورية مضروبة على اسمنا، فاقبضها لنفسك مباركا لك فيها، واحذر أن تردها إلى بيت المال، فإنى أعرفك وشحك على أموالنا، وما من أموالنا شىء أزكى من مال وضعناه بأيدينا حيث نشاء ابتداء منا، ولا أعظم بركة على من وصل إليه بطيب أنفسنا، وإنك عندنا لأهل خير، وما نرضى أن نستكثر هذا البعض من تحت يديك فاعلم ذلك ».

رسالة المنصور بشأن هدية لملك الروم:

وكتب المنصور بالله صلى الله عليه إلى الأستاذ عند وصول بعض

---

(١) ا. ف: شهد

السرادقة رسولا من قبل ملك الروم بهدية ، فأراد المنصور بالله صلى الله عليه أن يصرفه بأحسن من تلك الهدية وأفضل، فكتب إلى الأستاذ يأمره بأن يحمل إليه من الخزائن التى تحت يديه أشياء وصفها له مما يصلح أن يبعث للملوك ، فقرأت فى فصل من هذا الكتاب قوله :

« وأنا أعرف من حرصك على ألا يكون فى الدنيا شىء حسن إلا وهو عندنا وفى خزائننا ما أظنه يحملك على الشح على النصارى بمثل هذا الذى أمرنا بإنفاذه إلينا ، فلا تفعل ، فإن ذخائر الدنيا فى الدنيا تبقى ، وإنما ادخرناها لمباهاة الأعداء ، والدلالة على شرف أنفسنا وعلو همتنا وسخاء قلوبنا بما تضن[1] به النفوس ويشح به كل أحد » .

وكان صلى الله عليه من النظر إلى الدنيا بمثل هذه العين ، وسماحة نفسه بها على حال مشهور وظاهر معروف [قدس الله روحه ، وصلى عليه][2] » .

رسالة المنصور إلى جوذر فى أهل القصر :

وكتب المنصور بالله صلى الله عليه إلى الأستاذ بما أثبته من الرسوم والوظائف[3] لأهل القصور عامة ولحرمه خاصة ، وآثر عامة أهل القصور بزيادة على ما رسمه لحرمه وخاصته ، وهو :

« يا جوذر ، صانك الله وسلمك . قر[4] عند أهل بيتنا هؤلاء عجزهم عن القيام بأنفسهم فضلا عن غيرهم ، وحاجتهم إلى فضلنا الذى لا غناء بهم عنه، ولا عوض لهم منه ، فليأخذوا ما وصل إليهم بحقه وشكره ومعرفة قدره ، وليوقنوا[5] أن الدنيا والآخرة مجموعتان فى قبضة صاحب الحق وحده ، فبمعرفتهم ذلك تتم لهم نعمة الدنيا والآخرة ،

---

(١) ا : تضر
(٢) ا : سقطت ما بين القوسين
(٣) ف : الوصايف
(٤) ا : قرر
(٥) ا : وليوقنون

قد علم الناس كافة أنى كنت منذ نشأت معرضا عن الدنيا زاهدا فيها، شبيها براهب من الرهبان إلى أن رزقت الأهل والولد، فملت إلى التجارة بالحلال الطيب، فاسألوا أهلى وولدى كيف كان إحسانى إليهم وإفضالى ونعمتى عندهم، والله ما كانوا يرضون منى بما يكفى ويزيد حتى يأخذوا منى إسرافا جزافا، وإنهم بعد أن أفضت إلىّ الإمامة والخلافة لقد ضاعوا بعدى وعدموا الفضل والإحسان الذى كنت عودتهم إياه، لشغلى بأثقال ما حملت من أمر العباد عن التجارة، وما كنت عودته أهلى وولدى من تلك العادة [٦٧]. ثم والله الذى لا إله إلا هو ولا رب غيره: ما قبلت من أحد من العباد درهما فما فوقه هدية قط إلا من جوذر، فإنه كان يهدى إلىّ وكنت أنهاه ولا ينتهى، فأقبل ذلك منه لما كنت أؤمله منه، إذ كان القائم بأمر الله صلى الله عليه أكرمه بأن أطلعه على أمرى وألزمه بيعتى وعهدى، والناس يومئذ فى ظلمات الغى يموج بعضهم فى بعض، كل يعبد هواه ويؤثر دنياه، ولم أفاخركم بالتجارة ولا حضضتكم عليها، ولكنى أحببت أن تعرفوا أن أولياء الله موفقون فى كل ما تصرفوا فيه من الأمور، مجموع لهم خير الدنيا والآخرة».

فسألت الأستاذ رضى الله عنه عند قراءة هذا الفصل، واستفهمته عن أخذ القائم بأمر الله صلوات الله عليه العهد عليه خاصة للمنصور بالله دون جميع الخلق، قال: نعم، كان الأمر كذلك.

رسالة فى أهل القصر أيضا:

وكان أهل القصرين جميعا يتجنون على الأستاذ بعد هذا الفصل[1] وهذا الخطاب لهم من المنصور بالله، ويكثرون عليه العيب ويطلبون التصرف فى الأسواق ومع العامة، وكان يمنعهم من ذلك ويزجرهم عنه، فكتبوا

(١) ا: الفعل

إلى المنصور بالله صلوات الله عليه يشكون أمر الأستاذ ، ويقعون فيه ، ويذكرون أنه جاهل متحامل فيما يفعله ؛ فلما صح ذلك عند الأستاذ ، وأنهم كتبوا إلى الإمام المنصور بالله عليه السلام ، كتب هو إلى المعز لدين الله صلوات الله عليه — وهو يومئذ[1] ولى العهد ، كتابا يذكر فيه عارهم وفضوحهم ، وما يجرى من قبيح أفعالهم . فلما وصل الكتاب إليه وقرأه ، رفعه إلى الإمام المنصور صلوات الله عليه ، ووافق ذلك كتاب القوم ، فلما وقف الإمام المنصور بالله صلوات الله عليه على الكتابين جميعا ، صرف الجواب إلى ولى عهده المعز لدين الله عليه السلام ، ونسخته بعد التسمية :

« استودعك الله ، وأسأله تمام النعمة عليك ، وعلىّ فيك وبك وبذريتك . ماخفى عنك محل جوذر عندى ، ومكانه من نفسى ، فكيف يكون عندى جاهلا متحاملا ، ولكنهم هكذا أسموه فى كتابهم ، لمنعه إياهم الانتهاك ، وحرصه على سلامتهم ، ونفى العار عنهم ، ولعمرى إن من وضع الإحسان فى غير موضعه كالزارع[2] فى السباخ ، فعرّف جوذر ماله عندى من الرضا عنه ، والشفقة عليه ، والمحبة له ، ووكّد عليه فى فتح الأبواب لهم ورفع الحجاب ، حتى يزداد عارهم وفضوحهم ظهوراً ، فإن فى ذلك صلاحا للملك ، وزينا للدولة ، وبرهانا لطالب الحق ، ومحوا للعار المتقدم بينهم وبين جدك [٦٨] صلوات الله عليه ، وإنه عار قد سارت به الركبان ، وامتلأت منه البلدان ، وليس له سبب إلا أنه أراد صيانتهم ، والأخذ على أيديهم ، فعادوه لذلك وأبغضوه ، وكذبوا وشنعوا عليه ، فأصبح جدك عند الناس حديثا إذ كان عذره عنهم غائباً ، وأصبحت اليوم عاملا على بصيرة ، ليكون عارهم وشنارهم ظاهرا فيكون عذرى واضحاً ، وفضلى بحمدالله باديا . واعلم يا بنى أن الشجرة الملعونة فى القرآن هم بنو أمية

---

(١) ف : حينئذ   (٢) ف : كالزراع

بالأمس ، وبنو جديك المهـــدي بالله والقائم بأمر الله [٦٩] ـــ صلوات الله عليهما ـــ اليوم ، لأن بني أمية إنما استحقوا ذلك لعداوتهم لجدك رسول الله ووصيه علي بن أبي طالب ، صلى الله عليهما ، وكذلك استحق هؤلاء ذلك بعداوتهم لله ولأولياء الله ، وجحدهم فضلنا وإنكارهم حقنا ، فاعلم ذلك وتدبره . وسأدفع إليك كتاباً [٧٠] عملته في هذا لم يسبقني إليه أحد قبلي ، ولم أظهره إلى الآن ، أردت به هداية المؤمنين وتثبيت قلوبهم وإزالة الشك عنهم ، وملأته علماً ظاهراً وباطناً ، وبراهين شافية تسرك وتبهجك وتفيدك مالا نفاذ له أبد الآبدين ، فإن أكثر البلاء إنما دخل على ضعفاء المؤمنين المساكين من مثل هذه القردة والخنازير ؛ فقل لجوذر يُسَكِّنْ قلبه من هوانهم عليه ، وخساستهم في نفسه ، وقلتهم في عينه ، مايُسكِّنُه لليهود والنصارى ، والله لاحلوا ولاعقدوا أبدا ، ولا اتّبعهم من الكلاب فضلا عن العباد اثنان ، فإن الخير إذا ظهر للناس ملك قلوبهم ونفوسهم ، وأخذ بأسماعهم وأبصارهم ، وقد أعزهم الله ، وله الحمد من الخير كله ، وأما العار والشنار الذي تنفر منه النفوس والقلوب فقد لبسوه وارتدوه ، فهل لجوذر المسكين عندهم ذنب إلا أنه منعهم من الانتهاك والانكشاف ، وأراد صيانتهم بترك هذا البنيان العظيم ، فصار له ذلك ذنباً » .

رسالة من المنصور إلى جوذر في بني عمومته وإخوته :

فلما وقف الأستاذ على هذا الكتاب ، حمد الله وأثنى عليه وأعظم شكره ، وجعل يعامل القوم بحسب ما أمر به ، إلا أن القوم مايغفلون عن الشكوى وتوبيخ الإمام ، صلوات الله عليه ، وجعلوا يكتبون إلى الإمام ـــ صلوات الله عليه ـــ « أنهم لو كانوا من موالي رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ

لوجب حفظهم، فكيف وهم من آل رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله ».
فلما وقف عليه السلام على هذا من قولهم، كتب إلى الأستاذ بهذا الفصل، وهو:

« من العجب المعجب أيضاً قولهم: نحن آل رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — وبنو المهدى بالله، وبنو القائم بأمر الله — صلوات الله عليهما. فقل لهم: ياحمير، وهل فى الأرض نفس آدمى إلا من ولد آدم [رسول الله] (1)؟، أو ليس السودان من ولد حام بن نوح رسول الله؟ أو ليس الصقالبة من ولد يافث بن نوح رسول الله؟ أو ليست القردة والخنازير التى مسخت من النصارى واليهود كانوا من أولاد ابراهيم خليل الله وصفيه ونبيه ورسوله أبى الأنبياء والأوصياء والأولياء؟ وهل خرج من خرج إلى الكفر بمحمد — صلى الله عليه وعلى آله — وبما أنزل عليه، إلا من هذا الباب، حين أنكروا فضله وخصوصية الله، فعَمِىَ بصائرهم عن فضله، وجهّلهم بما خوله الله، كجهلكم أنتم وعماكم ياحمير! وأما ذكرهم موالى رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — فموالى رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — خير منهم، قل لهم: هل تدرون، ياحمير، مَنْ موالى رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله؟ أحد مواليه سلمان الفارسى، إمام مفترض الطاعة بعد الإمام الأعظم، لا يوصل إلى طاعة الله ورسوله — صلى الله عليه وعلى آله — وطاعة علىّ وصيه إلا بطاعة سلمان سيد المؤمنين فى عصره، فمن أنتم، يابقر البقر، حتى تشبهوا أنفسكم بسلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله — الذى أعتق رسول الله وعلىٌّ جميعاً جسمه وروحه من النار فى الدنيا والآخرة ومن عذابها. والله، لو أدرككم سلمان ماسلم عليكم، ولأمر (2) الناس أن يسلموا عليكم ولا يدنوا منكم، لئلا تحرقوهم بناركم

---

(1) ا: سقطت (2) ف: ولأمر

وعاركم ، ولكان أشد عليكم وأضر بكم من جوذر أضعافاً كثيرة .
ماأظنكم سمعتم قول عيسى عليه السلام لليهود: [٧١] « ياأولاد الأفاعى، تقولون: نحن أولاد ابراهيم خليل الله ؟ كذبتم ، لو كنتم أولاد ابراهيم لاتبعتم [١] سنة ابراهيم عليه السلام ولزمتم دينه ، واهتديتم بهدايته . أو تظنون أن الله ليس بقادر أن يخلق من هذه الحجارة أولاد ابراهيم عليه السلام ؟ اعلموا ياأولاد الأفاعى أنه من لم يولد مرتين : يولد جسمه ، ويولد روحه ، فليس من أولاد ابراهيم » . ولا سمعتم قول الله عز وجل « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم [٧٢] » وما لا يحصى من هذه الآيات لكثرتها ، ولا سمعتم قول رسول الله — صلى الله عليه وآله : « ياعلى، [٢] يافاطمة : لا يأتينى الناس بأعمالهم يوم القيامة وتأتونى بأحسابكم ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً » يقول هذا لأكرم العباد على الله ، فاطمة بنت رسول الله الطاهرة المطهرة التى خلق جسدها من جسده ، وروحها من روحه ، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب سيد الأوصياء ، وأكرم النجباء ، وخازن علم السماء ، حجة الله العظمى على خلقه بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، وعلم الهدى وسراج الدنيا والآخرة . فكيف يا أهل العار [٣] والشنار إذن أردتم أن تشبهوا أنفسكم بفاطمة الزهراء وعلى [٤] أمير المؤمنين ، وبالأئمة المهديين صلوات الله عليهم ، وتنتسبوا إليهم ، فانظروا قبل ذلك أعمالكم وأعمالهم ، وانظروا إلى خروج فاطمة الزهراء من الدنيا : كيف كان وعلى أى حال كان ، هل خرجت مذمومة أو محمودة ؟ وانظروا إلى بيتها الذى [٥] قبعت به إلى أن ماتت ، وانظروا بنيانكم وفضوحكم ، وانظروا إلى أعمال على

---

(١) ف : اتبعتم
(٢) ف : سقطت
(٣) ا : النار وفى ف : البار
(٤) ا : أو على
(٥) ا . ف : التى

ابن أبي طالب كلها، وقارنوا (١) أعمالكم بها، وانظروا إلى هذين الإمامين القريبي العهد صلوات الله عليهما، فاجعلوا أعمالها مرآة بين أيديكم لتروا فيها وجوهكم، فيصح أنها وجوه القردة بلا شك والله في ذلك. ووالله لقد صدق القائم بأمر الله صلوات الله عليه، ومازال صادقاً في قوله وهو يحلف ويقول: والله ماهم لنا بأولاد، لقد شاركنا فيهم إبليس. » [ومرة أخرى](٢) يقول: الشيطان ».

فقل لهم: ياوجوه العار، ياشرار الأشرار، تنتسبون إلى فاطمة الزهراء صلوات الله عليها وأنتم أعداؤها، المخالفون لها، المكذبون لقولها، المفارقون لطريقها، الناقضون لسنتها، كذبتموها وكذبتم بعلها أمير المؤمنين، وكذبتم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله — لأن أئمة الهدى عليهم السلام رووا أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كنت جالساً عند رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — إذ قال: ياعلى: ما المرأة؟ فقلت: يارسول الله، عورة. قال: صدقت. فمتى تكون أدنى من ربها؟ قال: فلم أدر ما أقول، وسكت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فانصرفت ودخلت على فاطمة صلوات الله عليها فقالت: ياأبا الحسن مالي أراك منكسر أ(٣) ا قال: فقلت لها: سألني رسول الله صلى الله عليه اليوم عن مسألة لم أدر جواباً فيها، فقالت: ماهي؟ فأخبرتها. فقالت: ياأبا الحسن أفلا قلت له: يارسول الله — صلى الله عليك — أدنى ما تكون المرأة من ربها إذا لزمت عقر(٤) بيتها. قال: فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فأخبرته، فقال: ياعلى هذا من نفسك؟ قلت: لا، يارسول الله، بل من فاطمة. قال: صدقت فاطمة وبرت، إنها بضعة مني. فأما أنا فإني كنت يوماً (٥) جالساً بين

---

(١) ف: واقرنوا
(٢) ف: سقطت
(٣) ا: منكرا
(٤) ا. ف: قعر
(٥) ا: سقطت

يدى المهدى — بالله صلوات الله عليه — وحدى ، وهو يملى وأنا أكتب ، إذ دخلت عليه إحدى جواريه فقالت له : ولد لابنك فلان بنت . فسكت ساعة ثم قال لها : اخرجى يانسكرة . فخرجت ، فأقبل علىّ عليه السلام وهو يتمثل بهذا البيت :

تهوى حياتى ، وأهوى موتها شفقاً
والموت أكرم نزّال على الحرم [٧٣]

ثم دمعت[1] عيناه ، قلت له : ياسيدنا ومولانا ، بل يديم الله عزك والعز بك ، ويبلغك آمالك ، ويجعلنا فداك . فما رد علىّ شيئاً ، ثم عاد لما كان عليه ، فجرح ذلك والله قلبى ، وبقيت مفكراً فيه ، وقلت فى نفسى : تخاف أمير المؤمنين عواقب الدهور ، فمن ذا ينبغى له أن يأمنها[2] ؟ وزادنى ذلك زهداً فى الدنيا . ، وإن كنتم لاترون عليكم شيئاً فى النظر من هذا البناء[3] العظيم الذى كشفتم للناس[4] عنه ، فاذكروا قول رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — الذى ترويه أئمة الهدى — صلوات الله عليهم — أنه قال : العينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما اللمس ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى إلى الفساد ، فهذا قول رسول الله سيد الأولين والآخرين الذى لم تسمعوه[5] ولم تعوه ، لا أسمعكم الله خيرا ، ولا أرشدكم إليه ، ناذهبوا إلى لعائن الله ، لكم دينكم ولى دين ، لعن الله كل من يؤذينا ، وينطوى لنا على نية سوء ، فوالله ما كنا قط أصحاب دَخَل[6] ، وما مضى منا إمام إلا وهو يود أن الله ينجى العباد كلهم من النار ، ويعفو[7] عن ظالميه ، ويحسن إلى من أساء إليه . وبذلك

---

(١) ا : رمدت . وفى . ف : رمق . والصواب ما أثبتناه
(٢) ف : يأتيها
(٣) ا . النبأ
(٤) فى النسختين : كشفتم الناس منه
(٥) فى النسختين : ولا
(٦) ف : دخل
(٧) ا : ينجى

ينصرنا الله عز وجل ويخذل[1] أعدامنا ويهلك مناوينا [2]، والحمد لله رب العالمين [٧٤] ».

ولما وقف القوم على هذا الكتاب ارتدعوا وخافوا مع ما عاينوه من جوذر من الصرامة وقلة المبالاة بهم، وإقامة الحق عليهم وعلى غلمانهم، وامتداد اليد إليهم، ومنع التجار المخالطة بهم. ولقد قبض يوماً على جماعة من التجار اختلطوا بهم منهم زياد الكاتب وابن الخطيب المعروف بابن كليب الداعي وغيرهما، فأما ابن كليب فلما عرف به أطلقه حقاً لأبويه[3]. وأما زياد فضربه بالأسياط، وضرب غيره، فاستقامت الأحوال، وإنما كان دعاهم إلى ارتكاب ما فعلوه غفلة الأستاذ عنهم بعد وصول الإمام المنصور بالله، صلوات الله عليه، إلى مستقره ودار ملكه بعد أخذ اللعين مخلد بن كيداد.

رسالة فى بعض المفسدين :

وكان الأستاذ رضى الله عنه قد قبض يد نفسه — عما بسطت فيه من قبل نفسه — عمن استحق القتل واستوجب العقوبة، وقال إنى كنت أفعل هذا فى غيبة الإمام، فإذا حضر فسبيلى السكوت، فاضطرب البلد وكثر المفسدون وقطعت السبل، حتى إنه خرجت رفقة من المهدية بعث فيها الأستاذ أحمالا فيها آنية وغير ذلك إلى أمير المؤمنين، فخرج عليهم أرذال الناحية، فانتهبوا ما كان لهم دون موضع يعرف بتماجر [٧٥]، وأخذوا ما كان لأمير المؤمنين. واتصل الخبر بالمنصور بالله صلوات الله عليه، فكتب إليه :

كيف جرى مثل هذا بالقرب منك ؟

فكتب إليه الأستاذ يعتذر ويقول :

« إن العمال بالنواحى لا يريدون[4] من ينظر فيما تقلدوا أمره من الأعمال بالنواحى، ويجعلون ما أمروا به من ذلك سبباً لتأخر المال »، فلما وقف الإمام عليه السلام على ما كتب به إليه، كتب إليه :

---

(١) فى النسختين : يجزل

(٢) ف منا : ، وفى ا : مناوبنا

(٣) فى النسختين : لأبوة

(٤) ف : يزيدوا

« ياجوذر ، صانك الله وسلمك ، وأحسن إليك . اعلم أنى كنت حامداً [(١)] لك فى غيبتى أكثر من حمدى إياك اليوم ، فمثلك عندى مثل وكيل أقامه سيده ودفع إليه بضعة قليلة وغاب ، فتاجر الوكيل ، وقلب المال ، فقام بنفسه وولده وسيده وعياله وحشمه ، وفضل بين يديه ربح كثير ، فلما قدم سيده من سفره شكر له سعيه ، وحمد عمله وزاده ، فاتكل الوكيل على سيده ، وألقى كلَّه عليه ، وآثر الراحة لنفسه ، وقصر [(٢)] عن عمله الأول ، أو ليس العجب أنك كتبت إلىّ شكوى [(٣)] المرصدين الذين أقامهم ابن الدنهاجى بالوادى المالح وغيره ممن حولك ؟ ومن ابن الدنهاجى وغيره فى الحق ؟ ومايمنعك أن ترسل فى طلبهم فتروى السوط من ظهورهم وبطونهم ، وتملأ أعناقهم سلاسل ، وكعابهم وركبهم قيوداً وأثقالا حتى يلزم كل واحد منهم شغله ، ويقبل على عمله وما كلفه ، ويكون القريب والبعيد والخاص والعام منك على حذر وخوف ؟ أو ظننت أنى جعلتك وكيلا على باب القصر ؟ يا سبحان الله [(٤)] ! ما هكذا والله يكون الضبط ! ولا شىء يكون فى المهدية كلها وفى كافة ما حولك من الأعمال مثقال ذرة إلا وأنت تعرفه وتعنى به وتحكم فيه » .

فاستقام عند هذه الأوامر للأستاذ بعد ذلك ما أحبه الإمام من أمور الناحية .

رسالة من المنصور فى الخارجين بصقلية :

ولما أخرج الإمام المنصور بالله صلوات عليه الحسن [(٥)] بن على إلى أهل صقلية [٧٦] ، وكانوا يأخذون كل سفينة غصباً ، ويكثرون إظهار السلاح فى المساجد ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، منهم بنو ماضوض ،

---

(١) ا : حاسدا
(٢) ا : قصد
(٣) ف : شكر
(٤) ف : وما هكذا
(٥) ا : حسن

وبنو أخيه ، وبنو الطيرى [١] وغيرهم ، فلما وصل الحسن بن على كتب إلى الأستاذ يسأله سؤال أمير المؤمنين المنصور بالله ، صلوات الله عليه ، فى رجل يعرف بمحمد بن عبدون ، وكان هذا الرجل قد رفع من صقلية مع جملة من رفع منها ، فرفع الأستاذ كتابه إلى أمير المؤمنين ، فلما قرأه وقع إليه :

« فأما سؤال الحسن بن على فى محمد بن عبدون : فلم أر ذلك فى كتابه ، فعلمت أنه خافنى فمال إليك لتسأل له فيه ، فإنما احتبسته [٢] قطعا لمعاذير حسن لئلا أدع له فى البلد شغلا ، فإن وثق بنصيحته ووفائه وتضمن أيضا أخرجته ، وإلا فلا ، لإنه إن كان إنما سأل فيه لشهادة أهل البلد له بالعافية والاستقامة ، فأهل البلد أيضا لو سئلوا عن الطيرى لشهدوا له بأكثر من ذلك . وأما خباب وابن الطيرى الأشترى [٣] ، ورجاء بن أخى حية [٤] فاستوثق منهم ، وطالبهم بما سرقوه من أموالنا واقتطعوا ، ثم ابعث بهم بعد ذلك مكبلين ، وقد أنفذت إليه جواب كتابه مع هذا الكتاب إليك إلا أنى لم أعرفه بسؤالك فى محمد بن عبدون ، فاذكر له أنت فى كتابك ما كتبت به إليك ، وحضه حضاً شديداً على الصرامة ، وأن يكون مراً مريراً شرساً ، فإنه فى بلد قد أسكرت أهله النعمة ، وأبطرهم الإحسان ، واعتادوا مع خليلٍ [٧٧] أشياء لا يخرجها من رؤوسهم إلا السيوف ، وليكن صعباً مستصعباً على كل داعر وفاجر ، وليرفع عنهم السوط ، ويستعمل فيهم السيف ، فإن الواحد مسعف الألف ، ولا يصغ إلى من يُهَوِّل عليه بالأراجيف ، فإنه إن فعل ذلك لم يكن حازماً ولا مفلحاً ، وقد ضبط ذلك كله سالم بن أبى راشد [٧٨] حتى خافته الروم

---

(١) ا : بنوطبرى والتصحيح عن ابن خلدون

(٣) ا : احبسته (٣) ا : الاشتر

(٤) هكذا ، وقد جاء فى تصدير الرسالة ذكر بنى أخيه ، والسياق يدل على أن رجاء بن أخى حيه من نفس البطن . ولاسبيل إلى ضبط الاسم .

فى أقصائها ، وهو حمار قائم ، وهذا أعقل منه وأحزم وأحسن رأياً ولطفاً ، وهو مقبل بإقبال دولتنا وبركة أيامنا إن شاء الله » .

فلما وقفتُ على هذا الفصل من كتاب المنصور بالله ، صلوات الله عليه ، إلى مولاى الأستاذ رضى الله عنه ، علمت أنه بهذا الكلام قدح [1] زند الحسن ابن على ، على أنه كان من الشهامة على ما كان عليه .

آخر رقعة من المنصور إلى جوذر :

وقد ذكرنا من مكاتبات المنصور بالله صلوات الله عليه بخط يده الكريمة على الله صدرا وافرا ، ولو تقصيت الكل لطال به الكتاب . وآخر كتاب قرأت له جوابا عن كتب كثيرة كتب بها الأستاذ ، فألفيت الإمام عليه السلام عليلا ثقيلا ، فتأخرت الجوابات مدة ، ثم انتبه صلوات الله عليه من علته فكتب صلوات الله عليه بخط يده وهو بعد التسمية :

« صانك الله يا جوذر . وردت كتبك ، فوقفت على ما فيها ، وفهمت ماذكرته من جميعها ، وتأخر الجواب لشغل مرة وعلل مرة وضعف شامل للجسم [2] كله ، والحمد لله على كل الأحوال ، وكل مايكتب به إليك أبو تميم [3] فما أشافهه به ، أستودعه الله » .

ثم اشتدت علته فاختار الله له ما لديه ، فنقله إليه صلوات الله عليه [٧٩] وذلك فى سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، وأفضى الله بالإمامة والخلافة إلى مولانا المعز لدين الله ، صلوات الله عليه .

وسأذكر صدرا مما دار بينه وبين عبده الأستاذ من المكاتبات والتوقيعات ، وما شرف به فى حاله فى أيامه . وأشرح ذلك شرحا وافيا ، إن شاء الله تعالى وبه التوفيق .

ذكر مكاتبات الإمام المعز لدين الله [أمير المؤمنين عليه السلام] [4]

إلى عبده جوذر يعرفه بوفاة المنصور بالله صلوات الله عليه .

فأول كتاب أذكره : وصل إلى الأستاذ من قبل المعز لدين الله ، مولانا

---

(١) ا : قرع (٢) ف : سقطت (٣) ا : فا

(٤) مابين القوسين فى ف [صلوات الله عليه]

وسيدنا صلوات الله عليه ، وتسمى فيه بأمير المؤمنين ، وذكر فيه وفاة المنصور بالله صلوات الله عليه ، وأمره فيه بكتمان ذلك ، وهذه نسخته :

«بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين على ما أولى وأبلى حمدا كثيرا ، سلمك الله يا جوذر . قد تعلم اتصالك بنا وتمسكك بولايتنا ، ومحلك من[1] صدورنا ، وتقرر عندك من ذلك ما يكفى ويغنى عن الإطالة والتعداد ، وما أظنه يخفى عن الموسوسين والقردة المخزيين [٨٠] فضلا عن ذوى الولاية والطاعة ، فكيف بمن اجتمعت له الولاية مع القديم ، والرضا من جميع الأئمة المهديين الفاضلين[2] ، صلوات الله عليهم فى الأولين والآخرين . إن الله ، وله الحمد ، خلق الخلق لإظهار جوده وفضله ، ورزقهم بمنه وإحسانه ، وقهرهم بالموت ليعلم المخلوقين أنه جل جلاله هو المتفرد بالبقاء والوحدانية ، فلم يبق فى هذه الدنيا الخسيسة نبى مرســـل ، ولا ملك مقرب ، ولا إمام فاضل ، ولا [خسيس أذل][3] إلا صاروا إلى الحكم العــــدل ، فتعالى الله ذو الجلال والإكرام . ومن كانت حاله عندنا كحالك ، وجب أن نشركه فى سرورنا وحزننا ، وفى جميع ما تصرفت به أحوالنا ؛ وكان من قضاء الله السابق ، وأمره النافذ أن أجرى على سيدنا ومولانا أمير المؤمنين من حكمه وقضائه ما أجراه على آبائه المهديين وجده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله ، فامتحننى بفقده ، والانفراد بعده فى الديار الموحشة والقصور الخالية ، والبلد المشاقق ، بين كل عدو وفاسق ، وقد جمعوا من أقطار الأرض من شرق وغرب وبر وبحر ، فأنا فيهم الفريد [الغريب الوحيد][4] المتوكل على ذى القوة المجيد ، فإنا لله وإنا إليه

---

(١) ا : عن
(٢) ف : سقطت
(٣) ا : حسن
(٤) ا : سقطت

راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ما أعظم محنتى [وأشد بليتى][1] ، فعلى الله أتوكل ، وإليه أفوض . وعليك فيما قِبَلَكَ بالاحتراس ما أمكنك ، والضبط ما استطعت ، ومنع هؤلاء القردة [٨٠] من الوصول إلينا [٨٠] ، والخروج من أبواب بيوتهم ، فضلا عما سوى ذلك . والكتمان ثم الكتمان عن الأهل والخاص والعام ، وإن اتصل بهم شىء من ذلك فكذّبه ما استطعت ، وخوّفهم ما قدرت ، ولا تحمل نفسك من الهم والغم ما لا تحمله ، واعلم أنه لو كان ذلك نافعا لتقدمتك أنا فيه والخلق أجمعين ، واصطلمتُ نفسى من قبل هذا اليوم ، ولكن لا راد لأمر الله ، ولا دافع لقضائه ، ولا متوفى دون أجله ، يقول جل من قائل « ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »[2] فواغوثاه بالله من شدة فجيعتنا ، وواغوثاه بالله من عظيم مصيبتنا ، عجل الله لنا الاجتماع معه ، والحشر فى زمرته ، والورود معه على حوض جده ، فياسرورا اتصل بالقائم بأمر الله والمهدى بالله ، وبآبائه البررة من كريم هذه الجوهرة ، ويا عظم داهية ولد فاطمة بعده . استغفر الله لنفسى من الزلل ، وأتوكل عليه فى التوفيق للعمل بما يرضيه ويزلف[3] لديه . والسلام عليك ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وعلى الإمام المنصور سيد الوصيين ، والحمد لله رب العالمين » .

رقعة من المعز جواباً عن حاجة طلبها جوذر :

ثم أورد الأستاذ رضى الله عنه محمداً الكاتب على أمير المؤمنين بجواب هذا الكتاب ، ورغب إليه ، صلوات الله عليه ، فى إسعافه بحاجة من حوائج

---

(١) ف : واشتد بليتى واستدرزيتى .
(٢) سورة الأعراف سورة ٧ آية ٣٤
(٣) ف : يزدلف

الدين مازال يطلبها من الأئمة قبله ، ويبتغيها إلى أيام المعز لدين الله ، صلوات الله عليه . فوصل محمد الكاتب ، وأدى عن الأستاذ ما كان وصاه به ، وعاد محمد الكاتب راجعا إلى المهدية ، ثم كتب بعد ذلك مذكرا فى حاجته ، فجاءه الجواب ، وكان المعز عليه السلام على حركته إلى موضع يعرف بجبل أوراس[1] [٨١] :

« صانك الله ياجوذر ، وسلمك . قرأت كتابك ، فوقفت على ما ذكرته من سرورك بما أداه محمد الكاتب مما كنت أجريته معه ، وابتهاجك بما تأدى إليك من ذلك ، ورغبتك المتجددة ، وإنما أذكر لك شيئاً يكون تنبيهاعلى مابعده ، وتصديقاً لما تقدم منه ، مع ما لديك من معرفتك ما أذكرك إياه ، وذلك أنك قد كنت أنت وعلى بن حمدون [٨٢] ، رحمه الله ، رغبتما وسألتما القائم ، صلوات الله عليه ، [فى الحاجة التى تعلم ولم يزل صلوات الله عليه[2]] يعدكما ويبسط آمالكما ، إلى أن طال ذلك ، وكان علىّ فى كل يوم إلا قليلا من الأيام تأتى بطاقته فى اقتضاء إنجاز الوعد وسؤال الإسعاف بالطلبة إلى يوم خروجه [فأصبته طيب النفس ، فقال لى : بشّر جوذر بنجاح حاجته[3]] فأخرج الحاجة ، فقال لى : خذها . فلما دنوت لآخذها جبذ يدى وقبل بين عينى وقال لى : أنت أبو تميم ، ولن يخرج على يديك شىء غير تام [٨٣] ، وجئت فأخبرتك بما تفضل به عليك ، وخرجت الحاجة إليك على يدى أبى الفرات لك ولعلى وناصر ، وإنما أردت بذكر هذا لتعلم : ما من ولى سالف إلا وقد أطلعه الله على حد ذلك الولى الخالف ، وإن لم ينهه ، ولا تحسب أن هذه كناية وضعت لغير معنى ، بلى[4] والله ، اشتملت على معان ، وبالله لقد ألهمنى من

---

(١) النسختين : أرواس ، وقد وردت فى الكتاب مصححة قبل ذلك .

(٢) مابين القوسين سقط فى ف

(٣) مابين القوسين سقط فى ا

(٤) ف : بلا

فضله حسب ما لم أزل أتعرفه منه قديما وحديثاً بأن استمتعت من عمل سيدنا المنصور بالله صلوات الله عليه ما يكفى ويشفى ، وجشمت (١) عمله بقوة الطلبة وكثرة الرغبة ، فأرجو أن يجمعنا الله وإياك على خير وعافية ، فتفوز والله بما لم تكن تؤمله — كما قال لك من صلى الله عليه ، وجدد على روحه (٢) منه التحية والسلام — من السعادة والغبطة ، ويخرجك الله من الدنيا ، الماً فى أيامنا مختوماً لك بالسعادة والغفران ، وفى أقل من هذا كفاية ومقنع ، بلغك الله إياه . وقد اعتزمنا على هذا السفر المبارك ، وأرجو أن يجعل الله به هلاك أعدائنا وشفاء غيظ صدورهم ، (٣) آمين ، رب العالمين [٨٦] » .

خطبة المعز فى نعى المنصور :

ثم أقام صلوات الله عليه بالمنصورية إلى أن خطب بالناس خطبة عيد الأضحى من سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، نعى فيها المنصور بالله صلوات الله عليه ، وأظهر وفاته ، وجاء فيها من الحكمة بما هو أهل لذلك صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين .

« ذكر أول خطبة خطب بها مولانا المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، بالمنصورية ، أظهر فيها وفاة المنصور بالله صلوات الله عليه ، وهى خطبة عيد الأضحى ، أثبتناها فى هذا الكتاب من أولها إلى آخرها ، على حسب ما خطب بها المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لما فيها من الحكمة البالغة والفائدة الجزيلة . وبالله التوفيق . فأولها :

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الأعز الأقدر ، الخالق المدبر ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملكوت ، الأحد الصمد ، الفرد المتفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر ، مبدع السموات والأرض بالقدرة ، ومالكها

(١) ا : حسمت

(٢) سقطت فى ا

(٣) ف : صدورنا

بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة(١) ، الذى كل شىء من موات وحى بالدعاء إليه ، والدلالة عليه ، والشهادة له بالتوحيد والتعظيم والتحميد ، فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شىء قبله ، وانتهاؤها(٢) إلى الغايات دليل على ألا غاية له ، وإحاطته بحدودها منبىء بأن لا حد له ، فالضعف والعجز والفقر والنقص الذى لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده جل ثناؤه بالإلهية والفردانية والقدرة والربوبية والتمام والكمال والأزل والدوام(٣) ، تبارك الله رب العالمين ، أحسن كل شىء خلقه ، وتكفل لكل حى رزقه ، ثم هدى بالعقل الذى قامت حجته ووجبت طاعته [٨٩] ، والكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته ، فصلى الله عليهم أجمعين ، وعلى محمد سيد المرسلين الذى رفع ذكره ، وأعلى قدره ، فأكرمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هاديا للعباد ، ونوراً فى البلاد ، علم به من الجهل ، وهدى به من الضل(٤) ، وكثر به القل ، وأعز به من الذل ، فألف به [بعد الشتات(٥)] ، ونور به دياجير الظلمات ، صلوات الله عليه وعلى آله المهديين ، الأخيار الطيبين .

يا أيها الناس : إن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يهملكم سدى ، ولم يجعل عليكم فى الدين حرجا ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحاً ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم ، وجعل للطاعة أعلاماً منصوبة وفروضاً مكتوبة ، ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق مبوأ ابراهيم خليل الله ، وقبلة محمد رسول الله صلى الله عليه ، فتقربوا إلى الله بما أمركم به ورزقكم إياه من بهيمة الأنعام ، مقتدين سنة محمد

---

(١) فى النسختين : الصفة

(٢) ف : وانتهاؤه

(٣) ا : فى الدوام

(٤) ف : الضلال

(٥) مابين القوسين سقط فى ف

نبي الرحمة والهدى ، مستشعرين لله التقوى ، فإن الله عز وجل يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » [٨٦] فبالتقوى تقبل الأعمال ويدرك الأمل ، وكبروا الله على ماهداكم واشكروه على ما أولاكم، ألا وأن خير الهدى الإبل، وخير الإبل إناثها ، وكذلك من البقر ثم الفحول من الضأن ، وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال ، نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتنانه وبلوغ الأمل[١] من رضوان الله ورحمته وإحسانه » .

وجلس فى الثانية وقام وقال :

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر شأناً وأعظم سلطاناً ، وأوضح آيات وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده ، خالق السموات والأرض ، ومالكهما ومدبرهما الفرد الصمد ، الواحد الأحـــد ، الذى لا شريك له ولا ند ، الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، النافذ قضاؤه ، الكائن ما يشاؤه ، المتقن كل شيء صنعا ، الموسع كل شيء رزقاً ، والمحيط بكل شيء علماً ، أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأفوض اليه وأتوكل فى كل الأمور عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً خيرته من عباده ، ونجيبه من بريته ، وصفوته من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعثه[٢] بالإمامة إلى الثقلين ليبلغ حجة الرب ، ويوضح محجة الحق ، فأدى رسالة الله ورحم ورأف بعباد الله ، وصبر على الكبار من مكر الكفار إلى أن أدال[٣] الله للحق على الباطل ، والهدى على الأضائل ، محمد صلى الله

---

(١) ا : الأهل

(٢) ف : بعثه

(٣) ا : دل

عليه وآله أفضل الصلاة وأزكاها وأكملها وأنماها (١) ، وأخلدها وأبقاها ، وعلى الأئمة المهديين من عترته الكرام الأبرين الذين اختارهم للخلافة ، وارتضاهم للإمامة ، وأكد بوصية الرسل حجتهم وأوجب فى التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين ، وعلى أفضل الوصيين ، وعلى أمه سيدة النساء ، خامسة أصحاب الكساء ، صلوات الله عليهم ، وعلى أميرى المؤمنين المهدى بالله والقائم بأمر الله ، سيدى الورى وإمامى الهدى ، اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين ، وأقام بهما دعوة الدين ، وأزهق (٢) بحقهما باطل المدعين ، وأكاذيب المتخرصين ، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين ، صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحياته عليهما . اللهم اخصص الإمام الفاضل ، والوصى العادل ، والبر الفاضل ، والغيث الوابل ، ذا الآيات المعجزات ، والعزائم النافذات ، الباذل نفسه الكريمة فى حين الأزل والكربات ، الصابر فى البأساء والضراء حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء ، عبدك ووليك ونجيبك وصفيك أبا الطاهر المنصور بك ، والمتوكل عليك والمفوض اليك ، العامل بما يرضيك ويقرب إليك ويزلف لديك ، الذى فجعتنا بفقده ، وأوحدتنا من بعده ، وأفردتنا منه وأوحشتنا فقبلت دعاءه ، وأجبت نداءه ، وجمعت بينه وبين أحبته فى مستقر جنتك وسعة رحمتك ، وإن القلق وشدة الحرق عليك ياأبتاه ، ياسيداه ، يا إسماعيلاه ، ياأبا الطاهراه ، يابحر علوم الأئمة الطاهرين الهداة المهديين ، يابقية أبناء الرسول ، وأبناء الوصى والطاهرة البتول ، ياأمام الأئمة ومفتاح باب الرحمة ، ياسراج الهدى وشمس الورى ، ومجلى الطخياء (٣) ، يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة ،

---

(١) ا : وأبهاها (٢) ف : وأهرق
(٣) ا : الصحياء وفى ف : الضحياء ، وكلاهما تحريف . والطخياء : الليلة المظلمة

عظم والله علينا المصاب بك ، وحل البلاء ، وعدم العزاء لفقدك ، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء شمائلك [1] ، وتعداد مناقبك ، وحق الذي اختصك بكرامته ، وحباك بجزيل عطائك ، وشرفك بأبوة رسوله ، لولا ما أوعزت إلى به وأكدته على ، من القيام بحق الله والذب عن أمة جدك رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة [2] الجهالة ، وبحار الضلالة ، ومهاوى الفتن ، ومعاطب المحن . وما تقرر عندى ، ورسخ فى صدرى من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ، ولأئمة الهدى لضربت على وجهى سائحاً فى البلاد ، قالياً [3] العباد ، راضيا [4] ببلغـــة من الزاد ، إلى أن يلحقنى الموت سريعا بك ، فأفوز [5] بقربك ، ورحمة ربك ، لكنى فكرت ونظرت وتدبرت [6] فلم أر لى وجها أستوجب به درجتك واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب ، فتجلدت ، وصبرنى ربى فصبرت ، وغلب على البين فأمسكت [7] ، فأقول إنا لله وإنا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم الرحمن الرحيم ، له الحمد على ما أبلى ، والشكر على ما أولى .

معاشر أوليائنا ، والقائلين بطاعتنا ، والمتمسكين بولايتنا هذه والله المحن الشداد ، المنضجة للأكباد ، هذه الزلازل العظام التى لا تثبت لها الأقدام ، هذه المشاهد التى لم يألكم أئمتكم لها تثبيتا ، ولم تزل راغبة إلى الله فى تثبيت أقدامكم وعصمة قلوبكم عند حلولها بكم ، ووقوع المحنة فيها عليكم ، فتثبتوا تسلموا ، ولا تضلوا لتندموا فإن يخلى الله أرضه وعصره فى كل زمان من قائم لله بالحق ، شاهد على الخلق ، يقر به المؤمنون ، ويجحد به الكافرون الضالون

(١) ف : فضائلك
(٢) ا : خيرة
(٣) ف : قانعا
(٤) ا : عاليا
(٥) ف : فأحظى
(٦) ا : وقد دبرت
(٧) ف : فأحسنت

الأخسرون ، إن الله بحمده خلق الخلق من غير حاجة كانت منه إليهم ، لكن لعبادته وإظهار فضله وجوده عليهم ، وجعل الحياة فيهم قوة عاملة ، والموت كأساً دائرة ، وما بعد الموت جزاء للعمل وبين لكم بين هذين نهج السبيل برسله المنتجبين ، وبأئمة الهدى المختارين ، وجعل ثوابهم وحظهم على مقدار بلاغهم وقيامهم ، واضطلاعهم بأمره وإرشاد خلقه ، وجعل بينهم درجات فى الفضل فقال جل ثناه « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير » [٨٧] تبارك الله رب العالمين ، الذى لم يرض بالدنيا ثواباً للمؤمنين ، ولا عقاباً للكافرين . يا أيها الناس ما من حى إلا وهو رهين بالموت ، ولا موت إلا وبعده نشور ، ولا نشور إلا بحساب ، فثواب وإلا عقاب ، فطوبى لمن لقى الله متمسكا بحجزه(١) أوليائه ، معتصما بعصمتهم ، قائماً باوازم الطاعة المفترضة عليهم بحجته(٢) وأصفيائه ، متفيئاً بظلال ألوية عترة سيدنا محمد رسول الله سيد المرسلين ، يوم لا ينفع إلا الدين ، ولا ينجى إلا الصحة اليقين ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » [٨٨] . يا أيها الناس إنما الأعمال بخواتمها ، والجزاء من الله بحسب الوفاء لله ولرسوله ، ولأئمة الهدى من ولد الرسول ، وقد شاهدتم سيد الأئمة وراعى الأمة وسراج الدجنة فى مواطن ومشاهد قضى فيها فرض ربه عليه ، وأدى وديعة جده محمد لديه ، وبين لكم من سننه ما إن اقتديتم به لن تضلوا ، ولن تبت أيديكم من رحمة الله ، ولن تعشو أبصاركم عن قصد السبيل الأقوم ، والتمسك بالدليل

---

(١) بحنجرة . وفى ف : بحجرة .   (٢) ف : بحجته .

الأعظم ، وما من ولى سالف إلا وبعده وصى خالف قائم لله بحقه متحر ثوابه ، عامل بما يرضيه حسب طاقته ، ومنتهى استطاعته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يرتضى للقيام بدينه وهداية خلقه ورعاية[1] أمة نبيه إلا الأفاضل الأمجاد ، الآحاد الأفراد ، ذوى الهمم العالية ، والأخلاق الرضية والنفوس الأبية من خالص الذرية [٨٩] ، وقد جرت سنة الله فى خلقه ، ونفذ فى حكمه مالا يستطاع له جحد ، ولا للقول به رد ، من مواصلة الرسل لتبيين السبيل فى الزمان بعــد الزمان ، لإعلان دينه حسب الإمكان ، وأوجب للعباد الثواب بطاعتهم وإجابة دعوتهم وقبول هدايتهم ، والعقاب بإسخاطهم وجحدهم وإنكارهم ، وليس المؤمن بأولهم جاحداً آخرهم ، ولا ينفع جاحد أولهم تصديق آخرهم للثواب والرحمة ، من العذاب الأليم والخزى المقيم ، وقد قرن الله طاعة أئمة الهدى بطاعة الرسل ، وطاعة الرسل بطاعته ، فقال « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم[٩٠] » بذلك جرت عادته فى الأنبياء والمرسلين ، « ولن تجد لسنة الله تبديلا » [٩١] « ولن تجد لسنة الله تحويلا » [٩٢] وهل لمقر نبوة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام حاجة بتفضيل سيدنا محمد خاتم[2] النبيين وسيد[3] المرسلين إذا أنكر نبوته ، وهل له انتفاع بأعماله أو ثواب لعبادته . النور — أيها الناس — فينا مصون ، وعطاء ربك لنا غير ممنون ، فأين تذهبون ، وفى أى أرض تتيهون ، هيهات هيهات لما توعدون فأطيعونا تهتدوا ، وتمسكوا بحبلنا ترشدوا ، واعملوا بما تفوزون فى أخراكم تسعدوا ، ولا تجعلوا همتكم أكبر دنياكم ، فإن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أبا الأئمة المهديين صلوات الله عليه وعليهم

---

(١) ا : رعايته . (٢) ا : سيد . (٣) سقطت فى ا

أجمعين قال : إن الله أحل حلالا وأعان عليه ، وحرم حراماً وأغنى[1] عنه ، فدعوا ما قل لما كثر ، وما ضاق لما اتسع ، فقد أمرتم بالعمل ، وتكفل لكم بالرزق ، فلا يكون طلب المضمون لكم أولى بكم من طلب المفروض عليكم . اللهم أوزعني شكر نعمتك ووفقني لما يرضيك ويقرب إليك ، ويوجب المزيد من فضلك ، والذخر عندك بإتمام نعمتك على في الدنيا والآخرة . إله الخلق رب العالمين ، اللهم أيدني بنصرك ، وافتح لى على أعدائك فتحاً تحيى به الدين ، وتعز به ملة محمد سيد المرسلين ، وارزقنا زيارة قبره والارتقاء[2] على منبره ، وحلول داره ، وقضاء الحج إلى بيتك الحرام ، والوقوف بتلك المشاهد العظام براياتنا[3] ، وقد جددت لنا العز ولأوليائنا ، وقد أيدتنا وإياهم بالنصر ، وأكرمتنا بالظفر وأظهرتنا على القوم الظالمين ، وأخضعت لنا رقاب العاصين ، وقد تقدم منك الميعاد للآباء والأجداد ، ولا خلف لوعدك ، ولا راد لأمرك ، والرضا والتسليم بما قضيت ، عجلت أو أجلت . اللهم اجعل ما مننت به من إحسانك ، وما تجدد لى من فضلك ونعمتك على وعلى العباد رحمة منك ، اللهم واقرن بكل عز تجدده لى ذلا تسكنه قلبي لعظمتك وجلالك وهيبتك ، فلا عز إلا في الخضوع والعبودية لك ، ولا غنى إلا في الفقر إليك ، ولا أمن إلا في خوفك ، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا برضاك ، يا رب العالمين ، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات واخصص أولياء دولتنا وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين الشاكرين من رحمتك بما استوجبوه بطاعتك وقضاء فروضك وموالاة

---

(١) ا : أغفل . (٢) ا : الأرتفاع . (٣) ا : برأينا .

أوليائك ومعاداة أعدائك ، وصلى الله على رسوله محمد سيد الأولين والآخرين . أذكروا الله العظيم يذكركم » .

رقعة من جوذر إلى المعز ورده عليها

وخرج الإمام عليه السلام إلى أوراس ففتح الله له الفتح العظيم ، ولم يقف له أحد ، ولا حال دونه مانع ، ووصل معه وجوه البربر وقوادهم والمذكورون منهم إلى الباب الطاهر [٩٣] ، منهم أيوب بن السماك ، وأبو العزة ومسنونه (١) وغيرهم طائعين خاضعين مستسلمين لأمره ، واقعين تحت حكمه ، راغبين فى العفو عنهم ، فعفا صلوات الله عليه وأوسعهم إحسانا منه ، وانصرف من سفره قاهرا ظافرا عزيزا مقتدرا ، ووصل إلى دار ملكه المباركة سالما غانما ، ثم وصل إلى المهدية المرضية ، وأقام بها أياما ، وأقبل على الأستاذ إقبالا حسنا ، وأفضل عليه إفضالا جزيلا ، ثم تذكر الأستاذ رضى الله تعالى عنه ما كان تقدم به وعد الإمام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين له فى حاجته المتقدم ذكرها ، وسؤاله فيها ، فكتب رقعة يقول فيها بعد الصدر :

« قلب عبدك يا مولاه وسيده منتظر ، ورجاؤه متصل ، وأمله لدى أمير المؤمنين مستحكم فيما وعد به صلوات الله عليه من التحنن عليه ، والرحمة له ببلوغه إلى ما رغب فيه من الاختصاص بالفضل على غيره فى درج الآخرة ، كما فضله وشرفه فى هذه الدنيا ، فإن الدنيا يا مولاى دار زوال بما فيها ، والآخرة دار بقاء بما فيها ، وما يفعله مولانا وسيدنا صلوات الله ، عليه فى عبده فبرأفته ورحمته وتفضله لا باستحقاق عنده » .

فلما وقف عليه السلام على رقعته ، أجابه بهذا الفصل بخط يده الكريمة وهذه نسخته :

---

(١) ف : منونة .

« يا جوذر صانك الله ، والله ما وعدتك بشيء وأنا أرجع لك فيه ، وأنك لمحقوق عندنا لكل خير ، وبالله ما ادخرنا عنك شيئاً يجب إعطاؤه لغيرك ، وما فى نيتك وولايتك كدر يحتاج إلى تصفيته ، ولم يبق لك علينا إلا إسعافك بما سألت ، ونحن فلم نجىء إلى المهدية إلا بالمستخف من القيروان[١] ، ولا يتهيأ وصول هذا إليك إلا من يدى إلى يدك ، ونحن نصل إلى المنصورية على خير وعافية إن شاء الله ، والذى تطلبه بها ، ولا يتهيأ أن يخرجه غيرنا ، فبعد يومين أو ثلاثة إن أمكنك أن تظهر أنك عليل ، وتختفى عن الناس ، بعد أن تسكن وحشتهم منا ، ثم تنسل إلينا بالليل من حيث لا يعلم بك إلا من تثق به ، يكون نزولك عندنا ، فتنال ما أملت ، وتشاهد زيارة قبر المنصور بالله صلوات الله عليه ، وتنصرف من وقتك ، فإن وصولنا من المهدية يبعد من الساعة إلى حين الربيع ، والموت بيد الله ، وقد قال عز وجل « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت [٩٤] » ، وأنا أوجه إليك بكتاب مليح هو بخط المنصور بالله صلوات الله عليه فيه كلام الأئمة عليهم أجمعين أفضل التحية والسلام ، ومواعظ ، تتدبره هذين اليومين ، ونحن لك على إتمام ما أملت ، فكن من ذلك على ثقة إن شاء الله » .

وخرج الإمام عليه السلام راجعاً إلى المنصورية المباركة ، فبعد إقامة أيام قلائل[٢] ، نفذ الأستاذ على حسب ما كان نفذ به الأمر إليه ، وبلغ ما أمله من حاجته ، وانصرف مسروراً لم يشعر به أحد ، ثم ما أقام بعد ذلك بالمهدية المرضية إلا يسيرا حتى نقله الإمام إلى المنصورية ، وأسكنه عنده

---

(١) ف : القتب .   (٢) ا : أقامته أياما

فى دار البحر داخل قصره المبارك حسب ما جرت عادته من السكنى مع مواليه حيث كانوا عليهم أفضل الصلاة ، وكانت كتب من بقى من المتخلفين[١] بالمهدية فى الخدمة مثل نصير خليفته ، ونظيف صاحب بيت المال ، وابن حسون وصاف ، وحسين بن يعقوب صاحب البحر وغيرهم ممن يكاتب (ترد عليه)[٢] فيكاتبه كل إنسان بما يحتاج إليه من خدمته ، ويستأمر عليه هو ، وكان الأستاذ يخرج من كتبهم فصولا فيها ما يحتاج الاستئمار عليه ويدع بين كل فصلين بياضا فى الدرج ، فيخرج الجواب بخط الامام المعز لدين الله صلوات الله عليه تحت كل فصل بما يعمل عليه ، وما زال العمل على ذلك إلى أن رحل إلى المشرق[٣] .

ونحن نذكر من هذه الفصول وجواباتها بأسماء من كتبها والجواب منها حسب ما شرطناه ، وبالله المعونة وهو الموفق للصواب إن شاء الله[٤].

«تم الجزء الأول ولله المنة والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على النبى محمد والصفوة من آله الطيبين[٥]» .

---

(١) ا : المخالفين .

(٢) سقط ما بين القوسين فى ف .

(٣) ا : الشرق .

(٤) ف : ولله الحمد والمنة .

(٥) هكذا فى ا ، وفى ف : تم الجزء الأول والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على النبى محمد والصفوة من آله الطيبين ، يتلوه الثانية أولها ورد الكتاب من حسين بن يعقوب متولى البحر بالمهدية .

الجزء الثانى

« فيه تشريف موالينا الأئمة الأطهار البررة الأخيار لعبدهم جوذر رضى الله عنه ، وما جرى فى ذلك من التوقيعات والمشافهات والمكاتبات مع كل واحد منهم فى عصره وزمانه صلوات الله عليهم أجمعين — مما عنى بجمعه مملوكه منصور العزيزى الجوذرى » .

بسم الله الرحمن الرحيم

توقيعات المعز إلى جوذر

١ — ولما ورد الكتاب من حسين بن يعقوب متولى البحر بالمهدية يذكر فيه أنه اتصل به أن رجلا يعرف بابن وسيم الاطرابلسى [١] من أرباب البحر والمراكب يستعمل أذيته عند الإمام عليه السلام ، وقذفه بالخيانة فى شعير كان نفذ الأمر إليه بحمله إلى صقلية فى مراكب التجار المعروفة لمعونة الغزاة ، وأقسم ابن يعقوب على الأستاذ برفع كتابه الوارد بهذا الشرح إلى مولانا الإمام عليه السلام ليقف عليه ، ففعل له ذلك ، ولما وقف الإمام عليه السلام على الكتاب ، صرف الجواب فى ظهره بهذا التوقيع وهو :

« يا جوذر — عرفه أنا قد سمعنا ما ذكره فى كتابه ، ونحن نسمع منه ومن غيره ، ولا ندفع من قول أحد من الناس إلا ما دفعه الحق ، ولا نقبل إلا ما صح وعرى [٢] من الشبهات ، وعوائد الله عندنا جميلة مع الصبر والتأنى ، والمحل الذى أحللناه فيه وأهلناه له يحتاج إلى القيام المحمود والنية الخالصة ، وهو أعلم بنفسه من جميع الخلق ، فإن علم خيرا فليطب نفسا ، ويثق بالله ربنا ، وإن علم غير ذلك فلا يخالجه الشك فى أن الله يهتك أستار الظالمين ، ويطلعنا على

---

(١) ف : هو من . (٢) ا : غرم .

عيوبهم ، وماله عندنا مخافة إلا أن يصح عليه ما يقول ابن وسيم وغيره ، فمن أهل نفسه لغـــير ما أهلناه ، فاللوم عليه لا علينا ، ففضلنا غير خفي بفضل الله علينا وعلى الأمة بنا ، فمن شكر النعمة أدامها الله ، ومن كفرها سلبه الله ما أنعم به عليه منها ، وإن أحب أن يصل إلينا إلى سوق الأحد فليفعل ، مع أن كونه وأمثاله مع نصير إلى الرسم أصوب وأوفق إن شاء الله » .

٢ — ونفذ أمر الإمام عليه السلام إلى الأستاذ بأن يكتب إلى نصير خليفته بالمهدية يتقدم إلى الحصريين بعمـل حصير مصلى للصقلبي المأسور في الواقعة المعروفة بالحفرة على يدى الحسن بن عمار بن أبي الحسين[٩٥]، ورسم لهم ما ينقشون في طرازها ، وقد كانت الرســـوم جرت في هذه الطرازات من أعمال الرقامين(١) والحصريين أن يكتب فيها « مما عمل على يد جوذر مولى أمير المؤمنين » فلم يذكر الإمام فيما رسمه من الطراز اسم جوذر، وكان التقدير عنده أن الموضع يضيق فلا يحمل ، فاختصر على ما لا بد منه من الطراز، فلما وصل الأمر إلى نصير ، وقد تقدم إليه الأستاذ في كتابه بأن لا يذكر له فيها اسما، وألا يعدو مارسمه الإمام، فتقدم نصير(٢) إلى العبيد في ذلك ، فلما بسطوا العمل بين أيديهم ، اتسع الموضع لهم لذكر الاسم على ما جرى به الرسم ، فعملوه ، فتم الحصير ، فلما وصل إلى الأستاذ ليرفعه إلى الإمام عليه السلام وقف على اسمه فيه ، فعظم ذلك عليه، وضاق به صدره، وذلك أن الحصير عمل بذهب وتأنق الصناع في عمله ، فلم يستبد من رفعه ، وكتب معه رقعة يقسم فيها بالله وبمولانا عليه السلام أنه ما أمر بذكر اسمه فيه ، ووصف تخوفه من الموجدة عليه في ذلك ، فلما وقف الإمام عليه السلام على رقعته وقع على ظهرها بخط يده صلى الله عليه بهذا الفصل وهو :

---

(١) ا : الرقاعين . (٢) ا : سقطت .

« والله يا جوذر إنك لتأخذ على نفسك بما لا يؤخذ عليك ، وتظن ما لا نظنه بك ، وما جاء الحصير إلا غاية فى الجودة والحسن ، وما منعنا أن نذكر اسمك فى التاريخ إلا تقية ألا يتسع به الموضع لكثرة الكلام ، فأما إذ قد وسع فذلك أوكد وأحسن عند القوم إنه من عمل عبيدنا(١) — والحمد لله كما هو أهله ووليه — على يد عبدنا(٢) »

٣ — ورفع الأستاذ كتابا ورد من ميمون بن فتوح التيفاشى(٣) وغانم الكاتب صاحبه ، يذكر أن ما حل عليهما من ريان الصقلبى أيام خروجه فى طلب الأرديا وإصلاح البلد وما جاز عليهما من الامتحان والتعريث [٩٦] ، وكتب الأستاذ رقعة مع الكتاب يقول فيها : —

« الثقة بفضل مولانا عليه السلام حملت عبده على ذكر ما ذكره فى رقعته هذه مما تواتر عليه من المحن بانبساط أيدى العمال وغيرهم ، فقد أنهى إلى مولانا ما كان من فعل بلخ الصقلبى بفندق ريحان [٩٧] ، وما كان من فعل غلام كنون [٩٨] بالكاتب المقيم بمنازل صطفوره ، ثم ما فعله ريان الآن بهذين العبدين ، ومولانا يقف من كتابهما على ما لا أشك أنه لا يرضاه فى عبده » .

فلما وقف مولانا صلوات الله عليه على الكتاب والرقعة ، كتب على ظهرها بهذا الفصل وهو :

« يا جوذر صانك الله ، وقفنا على ما ذكرته وعلى الكتاب المدرج فيها ، ووالله الذى لا إله إلا هو ما علمنا بشىء مما وصفت ، ولا بلغنا إلا من رقعتك هذه ، وإلى الآن ما وصل إلينا من ريان كتاب بشىء من الأحوال ، ومن التقيه من مثل هذا وغيره أمسكنا عن إخراج أحد لإصلاح البلد حتى صرنا فى إحصار(٤) ، وتداعى

---

(١) ف : عبدنا .
(٢) ف : عبيدنا .
(٣) فى ا ، ف : النفاوى .
(٤) ا : حصار .

الفساد من كل الجهات بما لم يجر الله مثله فى دولتنا وله الحمد ، ولا ظننا أنه يكون أبداً ، فلما عظم الخطب وجل الأمر — وسهل والله عندنا قتل الأولاد إذا انصلح بهم العباد وسكنت[1] البلاد فضلا عن غيرهم — أخرجنا هذا العبد وتوخينا به خيرا ، ثم لم يقنعنا ذلك حتى استظهرنا عليه بوجوه من رجالنا وأوليائنا من كتامة ومن أهل المشرق ممن أكثرهم فى أعداد القضاة ، وعرفناه وإياهم أنا لا نجيز إلا ما وقعت فيه شهادتهم على الظالم والمظلوم ، وإلى الآن ما بلغنا عنهم ما يوجب حمدا ولا ذما، ولا بد أن يرفع إلينا شرح ماجرى فى هذا الأمر على وجهه ، فيكون فيه ما يوجبه الحق ، فما يخفى عليك والله جميل رأينا فيك ، وإيثارنا لك ، وإكرامنا لكل من عرفك ، فالذى أحسبه أوجب ماكان من ريان ، وإن كان غيره كان أولى به أنه وافى القوم مجتمعين لمناصبة أهل تداس[2] لعنهم الله ، وجميع أهل الشره ، فرأى تفرقة جموعهم لئلا يمضى عنهم ويتركهم فيحدث عليه بعد ذلك الفساد ، ويتهاون به من يستقبل من ذوى الشره ، هذا منا على الظن لا على التحقيق ، فأما أن يقصد أصحاب جوذر بهذا المكروه العظيم مراحا دون غيرهم — مع احتياطنا على الضعيف فضلا عن غيره بما قدمناه فى سجلنا إليه ، واستظهارنا به من إخراج الأولياء معه — هذا مستحيل جداً بعيد من القياس ، ومهما اتضح لنا فى هذا الأمر شىء بلغناك منه فوق الإنصاف ، فأما التبرى من هذه المنازل وغيرها فما لا تجده عندنا إلا بالانتقال عنها إلى ما هو أفضل معنا بحول الله وقوته ، وقد قرب ذلك، يسره الله وقرن الخيرة به إن شاء الله ، فأما على غير هذا الوجه فلا والله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وحق جدنا محمد رسوله ، وحق الأئمة من آله آبائنا وحقنا ، ما أظهرناك من رضائنا وتقريبنا بما أبطنّا لك ضده ، بل والله باطن رأينا فيك

---

(١) فى ا ، ف : سكن . (٢) ا : ندس.

أفضل من ظاهره ، وقد جرى على يديك من الأحكام فى دولتنا ما تعلمه ، فهل وجدت السبيل إلى إقامة حق إلا من بعد خوض بحور من الباطل ، وما أحوجنا إلى ما فعلناه من الاستعانة بهذا وأمثاله إلا عدم غيرهم ، واستحقاق هذه الخليقة الرعناء التى يفسدها الإحسان ويبطرها النعم ، والله يكفينا شرهم ، ويصرف عنا ضرهم، ومع هذا فسنكتب إليه كتابا نخزيه فيه ، ونصرفه إلى الإنصاف، وتوخى ما يبلغ به محبوبك من إقامة الحال والجاه إن شاء الله»

٤ — وكان الأستاذ رفع إلى مولانا المعز صلوات الله عليه كتابا ورد عن نظيف الكاتب متولى بيت المال بالمهدية — يذكر ما وقع بينه وبين علوش السكاك من المشاجرة على الطبع بسكة المهدية ، وما نسبوه إلى علوش فى أمر العيار، وذكر نظيف أن علوش رغب فى أن يختبر عليه العيار من الغلة ، فوقع مولانا صلوات الله عليه الجواب عن هذا الفصل ببيان واضح وهو : —

« ياجوذر : هذا الذى ذكره فى الاختبار عليه من الغلة محال ، إذ هو يعرف ما يرفع فى الغلة فليس يجعل على نفسه شاهدا منها ، ولكن إنما يختبر عليه ما بأيدى الناس ففيها تقع المصانعة ، لأن التاجر يرضى له أن يأخذ من الغلة على الجودة ويسامح فى غير ذلك إذ الربح مشترك بينهما ، فعرفه ذلك ، وحذره من السقطة ، وأحذر بدرا [1] إلى نفسك واسمع كلامه على ذلك ، ثم عرفنا بما تقف عليه من قولها إن شاء الله » .

٥ — وكتب الأستاذ عن نفسه رقعة يرغب فيها إلى مولانا صلوات الله عليه فى إسعافه بما تقدمت رغبته فيه من حاجته ، ويسترحم فى ذلك ويتضرع إليه ، فوقع إليه مولانا : —

---

(١) ف : وحذر بدر فى ا : واحذر بدر .

« ياجوذر ، والله ما نسيناك ولكن تعاورتنا أشغال وفكر حالت بيننا وجميع ما تريده من ذلك ، فو الله ما أخرج من بيتى إلا هربا منه لثقل ما يرد على النفس عند الخلوة ، إذ لا معين إلا الله الواحد القهار ، فأخرج لكى أستريح من بعض ما أجده ، فما أزداد إلا تعبا ونصبا ، والله ييسر لنا كل عسير ، ويسهل كل مستصعب ، والذى رغبت فيه [١] تناله على ما تحب [٢] بحول الله وقوته إن شاء الله » .

٦ — وكتب رقعة يذكر فيها مطالعة أحمد بن حسن [٣] وحسن بن عمار له فى فرسين من دوابه حسب ما جرى به عوايده عندهما وعند أبويهما من قبل ، ويستأذن مولانا عليه السلام فى الإذن له فى ذلك ، وكان لا يتقدم [٤] فى شيء يفعله إلا عن مشورة ، فوقع إليه مولانا عليه السلام : —

« ياجوذر افعل من ذلك ما أردت ، وقد عزلنا نحن لك فرسين فارهين مباركين يصلان إليك عوضا مما تخرجه لهما ، فما تستغنى عن الجيد منها ولا تعدمه معنا إن شاء الله » .

٧ — وكتب رقعة إلى مولانا عليه السلام فى حين تصرف مولانا فى إخراج العساكر إلى المشرق . واحتاج إلى الإنفاق فى ذلك ، فاقتضت الأستاذ نفسه وديانته إلى ذكر ما توفر عنده من حسن نظره فى شيء باعه من الخزائن ، واستخرج بقايا الأموال على ما أضاف إلى ذلك من مال نفسه عملا وتقربا ، وكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار واثنين وعشرين ألف درهم بعث بذلك إلى مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فأجابه مولانا عن هذه الرقعة بجواب هذه نسخته : —

« ياجوذر وقفنا على ما ذكرته ، فأسأل الله أن يهبك من رضاه

---

(١) ف : تنال . (٢) ف : يجد .

(٣) ا ، ف : حسين والتصحيح من كتب التاريخ .

(٤) ف : لا يقدم .

وحنانه ومغفرته ما يستغرق أملك ، وأن يحسن إليك عنا جزاءك ، ويكشف ضرك حتى تشاهد معنا حج بيت الله الحرام ظاهرا كما حججته باطنا [٩٩] ، وترى فى مخازننا من الأموال الحلال ما يكون لنا فى جمعه الأجر عند الله ، وخزى لأعدائنا فى الدنيا ، فما يعبد الناس غير الجماد ، والذى يلزمنا من الاخراج فهو والله شىء لو كان من ماء البحر لكان عجبا ، ولا موفّر لدينا [١] بل الكل أعوان على التمزيق والاخراج ، وقد تدخلنا [٢] فيما لا يمكننا التقصير عن بلوغ الغاية فيه ، فأسأل الله أن يتقبل ذلك منا ، ويجعله لوجهه خالصاً وبقاء هذا الذى ذكرته من الأموال عندك مما تقربت به ، قبل الله سعيك وأجزل من رضاه أوفر حظك — فأحوط عليه من غيرك فابقه عندك إن شاء الله » .

٨ — وكتب رقعة يذكر فيها أمر حاجته المتقدم ذكرها — ويسترحم الإمام عليه السلام ويتضرع إليه ، ويذكر ضعفه بعقب علته — فوقع عليه مولانا صلوات الله عليه .

« أسأل الله ياجوذر أن يهبنا عافيتك ، ويكشف ضرك حتى تشاهد معنا ما كنت تأمله بفضل الله ، وحاجتك تصل اليك من رضانا بأجزله مقرونا بالعظيم من حبائه ، وطب نفسا ، فأنت والله على خير وأمن بفضل الله وسعة رحمته » .

٩ — وكان الأستاذ رفع كتابا ورده من صافى الاكريكى فى حين ولايته على قصر الافريقى [١٠٠] يذكر فيه تحزب البربر وتناصرهم عليه ، وأنه خائف على نفسه أن يهلكوه ، وسأل نصرة الإمام مولانا عليه السلام ، وأوصل الأستاذ معه رقعة ، فلما وقف مولانا عليه السلام على ذلك صرف الجواب على ظهر الرقعة وهو : —

(١) ا : ولا مؤخر عابنا .   (٢) ف : توحلنا .

« ياجوذر وقفنا من كتب [1] صافى على مثل الذى ذكره لك وأكثر ، وصافى فمشكور عندنا فى قيامه وحزمه وتوفيره لما يتولاه غير أنه شديد الاستقصاء ، سماع لكل ما يرد عليه من الأخبار من خير وشر ، وإذا سبق وهمه شىء لم يزله عنه ، وهذا الذى نسبه إلى القاضى الذى فى بلده هو من بعض ما ذكرنا ، وإنما ذلك لأن كتبه لم تزل تصل بتصديق مايحكيه صافى ، غير أنه يشرح ما الذى أوجبه ذلك ، فيكون لأولئك فيه بعض العذر ، وقد وقف إلينا جماعة من أصحاب القبالات يشكون بأنه قبض على رجل منهم بسبب تظلمه إلينا فأغرمه مالا وأودعه السجن ، فسألناه عن أمره فذكر غير ما وصفوا لنا هم ، فأمرنا بإطلاقه وملاطفة القوم ليرجعوا له إلى ما يجب ، فامتنع من إنفاذ أمرنا ، فجعل الرعية ذلك عليه حجة فى [2] نفارهم منه ، والواجب عليه وعلى كل من أراد الله سعادته البدار بامتثال أمرنا ونهينا ، إذ بهما صلاح دينهم ودنياهم ، فوالله لا كان أحدهم أشفق على نفسه منا عليه ، ولا أعرف بصلاح باله منا ، لكنا قد كتبنا إليه بما أن عمل به سعد ، وانكشفت هذه الأحوال المكروهة وعاد البلد إلى عمارته ، وأمرناحسينا بالارتفاع إلى الباب ، فإن أجاب إلى ذلك فقد أصلح الله الأمر بالكتاب ، وإلا فالخيل والقوة ترده فى أسرع وقت ، وإنما انتظرنا بذلك ما يظهر لنا بعد وصول كتابنا اليه ، ولكن تكتب أنت جواب كتابه اليك وتنبهه وتعرفه ما يجب أن يستعمله من اللطف والمداراة وصحة العزم حسب ما يجب من ذلك فمن لم يستعمل نفسه فى مثل هذه الأشياء ولم يحتمل الناس منه الإقامة على حال واحدة ، فوالله ما يعفون لمن تعافى منهم ، فكيف من تولى شيئاً من أمرهم ، والله يصلح لنا الجميع بفضله إن شاء الله ».

---

(١) ف : كتاب .

(٢) ف : نفاذهم .

١٠ — وكان أفلح الناشب عامل برقة [١٠١] قد رفع إلى الأستاذ أبعرة هدية زهاء عشرين بعيراً ، والأستاذ كان قليل القبول لهدايا الناس ، وذلك أن الأستاذ بعث إليه فى عشرة أجمال ، فلما وقف على هذه الزيادة من العدد أنكر ذلك ، ثم احتشم من أفلح وقبل منه العشرين [١] بعيراً ، فاحتاج إلى أن وصف لأمير المؤمنين صلوات الله عليه صورة الخبر ، وعرفه أنه يعمل على مكافأة أفلح بهدية عوضاً من هديته ، وسمى ذلك فى رقعته ووصفه ودفع إليه الجواب بخطه عليه السلام هو :

« ياجوذر أسعدك الله ، مارأينا فى كل ماذكرته إلا خيراً ، فاعمل به ، فلازلت فى أيامنا عزيزاً رفيعاً تجازى من تشاء بالنفيس من فضل الله وفضلنا عندك . فالسماحة طبع من فضل النفس وعلو الهمة . وكثير من تعظم نعمته وتصغر همته ، فلا ينتفع بكثير النعمة عند صغير الهمة . والله عز وجل لم يزل يعرفك البركة فى كل ماتصرفت به ، ولا يزال إن شاء الله »

١١ — وذكر بعد هذا الفصل فى رقعته فصلا آخر يذكر فيه أن الجمال لها مؤن ثقيلة ، ويجب عليها أغرام فى الأبواب والرحاب وغيرها ، وسأل فى سجل يكون بيد وكيلها المتصرف فيها إلى وقت الحركة [٢]. فأجابه مولانا الإمام صلوات الله عليه :

« ياجوذر والله لقد أردنا أن نبدأك بهذا من أنفسنا لعلمنا بثقل مئونتها ثم عاق عن ذلك مايعرض من الأشغال ، فاذكر خبرها لجوهر عن أمرنا ليكتب لك كتاباً بما أردت من العدد لحمل جميع المئونة فى جميع ماحملت ، وفى باب المنصورية وغيره حيث ماتوجهت إن شاء الله ».

١٢ — وكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه يذكر ماأوجبه شفيع

---

(١) ا : عشرن . (٢) ا : حركته .

الصقلي[١٠٢] على نفسه فى المنازل التى كانت لميسور [١٠٣] بتونس، وعاد النظر فى أمرها إلى الأستاذ، فرجع إليه الجواب على ظهرها.

« أقبل منه ما أعطى فيها على أنه ينزل لكل سنة واجبها، ولا يترك له مال سنة إلى غيرها، فإن ذلك معنى من الحيل قد انتبهنا له، وأمرنا أصحاب الدواوين أن لا يقبلوا من العمال إلا اتصال مال كل سنة عند انقضائها، فمن عجز عن الوفاء فى أول سنة كان عنه فى التى تليها أعجز وتلافى(١) النظر فى الأول أحق من النظر فى أدبار الأمور »

١٣ — وتظلم إلى الأستاذ عبد يعرف برصيف عبد الأمير تميم — أطال الله بقاءه — من رجل يعرف بابن سهيل قريب لحسين بن رشيق الريحانى فى ضيعة هى فى يدى رصيف، فتطاول ذلك الرجل إلى أخذ بعض أرضها فشرح الأستاذ لمولانا صلوات الله عليه صورة(٢) ما أوجبه الديوان وسأل نفوذ الأمر بما يعمل عليه، فرجع إليه الجواب على ظهر الرقعة:

« ياجوذر رفع إلينا رصيف هذا ظلامته، ورفع إلينا حسين(٣) ابن رشيق مثل ذلك، وذكر أن هذه المسارح مشتركة لكافة أهل المنازل التى تجاورها، وأن الذى يحدها بأسرها حسنون بن كشون [١٠٤] وليس للصقالبة من شهد لهم بذلك إذا لم يتخطوا إلى غير حقهم فيما ذكر، وأحب أن يصطلح مع رصيف على أن يترك من هذه المسارح له القطعة التى ادعاها فتشاحنا على ذلك. فلا أحب أن تحيف مع أحدهما المسارح فتكون له القطعة التى على الآخر فيهلك من له فى ذلك حق من أهل المنازل التى ليس لها من يحميها ويناظر عنها، فنأثم على شىء لا مقدار له، وينسب إلينا الظلم فيه، فرأينا أن نصرف أمرها فى ذلك إلى القاضى فيكشف(٤) عنها بالأمناء والصالحين،

---

(١) ا: وقال فى.
(٢) سقطت فى ا.
(٣) ف: حسن.
(٤) ا: عنهما.

فإن كانت المسارح مشتركة كما ذكر أخذ كل امرىء[١] منها حده ، وان كانت لقوم دون قوم أخـــذوها بما يوجبه الحق ، وكان مايتقلدونه من ذلك بأعناقهم ، وكنا نحن من ذلك براء إن شاء الله ولو ادعت الرعية علينا بشيء هو فى آيدينا مارجعنا فى ذلك إلا إلى ماوصفنا ، فمن رضى بالظلم طوقه الله إياه » .

١٤ — وكتب الأستاذ رقعة عن نفسه مذكراً بالحاجة التى تقدم سؤاله فيها ، فأجابه مولانا صلوات الله عليه .

«والله ياجوذر مازال لك من قلوبنا مكان الرأفة والرحمة دائماً ، وصل الله ذلك بنعمته العظيمة لمعرفتنا لموضعنا من نفسك قديما وحديثا ، ونحن نأتى من حاجتك ماتحبه إن شاء الله » .

١٥ — وكان أبو عبد الله محمد بن عثمان الكاتب قد تقدمت خدمته للأستاذ زهاء أربعين سنة ، صار له كالصاحب الذى وجب حفظه ، وله ولد يدعى جعفر أحب الأستاذ ترشيحه عند الإمام مولانا — صلوات الله عليه — بالإذن له فى الدخول مع ذوى الرتب ، وأن يتصرف فيما هناك ، فكتب بذلك رقعة ، وسأل فيها الإنعام عليه بما رغب فيه وإسعافه به ، فعاد الجواب بخطه عليه السلام فى ظهر الرقعة وهو :

« ياجوذر مانميزك من أنفسنا ، ولا نعد من حسنت صحبته[٢] لك إلا كالأولاد الذين لانحتشمهم[٣] فى شيء من الأشياء ، فافعل بجعفر ذلك الذى سألت فيه له ، وأرجو أن يكون مثل والده ، فإنه نعم الخادم الوفى والله لمودته سراً وإعلاناً ، ويبارك الله لنا فى ولده حتى يكون خيرا منه إن شاء الله » .

١٦ — ورفع الأستاذ رقعة لحسين بن يعقوب يذكر فيها مايحتاج إليه

(١) ا ، ا : أمير . (٢) ا : صحبتك . (٣) ا ، ف : نحشمهم .

من الحوائج لإنشاء المراكب والنفقـــة وأسباب البحر ، فصرف مولانا صلوات الله عليه إليه الجواب على ظهر الرقعة بخطه وهو :

« ياجوذر سلمك الله ، بعثنا إليك بجريدة ابن يعقوب المدرجة فى رقعتك هذه بعد وقوفنا عليها ، ونحن قد استعفينا البحر ، فلو لم نقاس من أهواله إلا ما كان فى هذه السفرة بالمهدية [١٠٥] لما وجب أن نذكره أبدا ، ووالله لاجعلنا من أعان علينا فى شىء مما كان سرا وعلانية فى حل أبدا ، فانتقم الله منهم بعلمه فانه لا يخفى لديه خافية. ولا نشك فى أن إقامة مانقيمه من الحربية فى الصناعة تعظم فيه الفائدة من عز الولى(١) وقمع العدو ، فإن علم ابن يعقوب أنه يأتى فى ذلك مايرضينا فليسرع فى إقامة عشرة [صنادل من القارب] (٢) الكبير وإن كان الأمر على ما نعرف فالترك من الساعة أوفق ، فلسنا نختار مقاساة أهوال البحر بعد الذى قاسيناه منه مع ما نستقبله من السفر فى البر الذى يقرن الله العزم فيه بالخيرة بمنه وفضله إن شاء الله » ،

١٧ — ورفع الأستاذ كتاباً ورده من قبل نصير الصقلى خليفته على المهدية درجه رقعتان لولدى قاسم بن القائم بأمر الله صلوات الله عليه ، وكان فى تلك الرقعتين من سخفهما مالا يذكر [١٠٦] ، فوقف على ذلك ، وصرف الجواب وهو :

« ياجوذر أسأل الله أن يهبك العافية ، ويصرف عنك المكروه ، وقفنا على الرقعتين وصرفناهما إليك ، ونحن نقول وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله كثيرا على ما وهبنا من فضله ، ووسم به عدونا من الذلة والصغار ، فهم فى عذاب وكرب لايفرجه الله عنهم والحمد لله » .

---

(١) ف : الوالى .

(٢) ف : سناديل بن القالب . وفى ا : صناديل . والتصحيح عن كتب اللغة .

١٨ — وكان الأستاذ ضيعة واحدة من إقطاع المهدى بالله صلوات الله عليه بكورة الجزيرة وكان من زهده فى الدنيا قليل الكسب للضياع والمستغلات قانعاً بما يتصرف فيه من التجارة ، فاعترض عليه حمزة بن صلوك ، وكان عاملا على البلد ، وتسبب إلى رعيته بكل قبيح ، فرفع الأستاذ رقعة بذلك إلى المعز صلوات الله عليه ، فخرج على ظهر الرقعة إلى جوهر .

« ياجوهر ، أكتب إلى حمزة بأن لايعرض لمنازل جوذر بسبب من الأسباب ، فليتنا نجد من الإنصاف مع كل من غمره إحساننا مانجده مع جوذر ، ودعه يأخذ منهم حقوقنا بالحق والعدل ، واكتب له منشوراً بذلك ، فإن لم يثق بوكيله ، أو أحب إخراج الحسن بن يصقلى[1] إلى الموضع الموقوف على ذلك ، أو الكتاب إلى الحاكم بالاستشراف على وكيله فى ذلك ، فأجبه إلى أيهما أحب وأختار ، بعد أن تعرف جميل رأينا فيه ، فما فى جوذر شك فى ظاهر ولا فى باطن ، نفعه الله بما يعتقده من حميد النية لأوليائه إن شاء الله » .

١٩ — وكان الأستاذ جوذر متحرزا جداً لايحكم فى صغيرة ولا كبيرة إلا بعد مطالعة واستئمار ، ومما استأمر عليه أنه رفع إلى مولانا صلوات الله عليه أن الفرانقين[2] الذين يختلفون إلى المنصورية من المهدية يحملون كتب أهل القصرين إلى قوم فى داخل قصر أمير المؤمنين ، وقال : أرى أن تؤخذ الكتب من أيدى الفرانقين ، ويقف عليها مولانا صلى الله عليه : فنفذ إليه الأمر بأن لايعرض لهم ، حتى إذا مرت لذلك أيام قلائل خرجت إليه رقعة فيها :

« ياجوذر كنت خاطبتنا فى أمر كتب القصرين إلى دار تميم وغيره ، فأمرناك بترك العرض لهم وإذ الله قد أجرى على فكرك

---

(١) ا : يصلى .

(٢) ب : الفرنقيين : والفرانق هو الذى يدل أصحاب البريد على الطريق معرب بروانك .

ما فيه التوفيق ، ونحن ما نظن بأحد سوءاً من الأباعد فكيف من الأقارب ، وقد ظهر لنا بعض ما نكرهه [١٠٧] ، فاعمل على حمل مايكون من كتاب وغيره إلينا ، ولا تنفذه حتى تعرفنا به من حيث لايشعر بك أحد البتة إن شاء الله » .

٢٠ — ووردت رقعة من قبل أبي عبد الله بن القائم يذكر ويسأل أن يطلق له البكاء والنوح على ولد مات له ، فخرج الجواب عن ذلك :

« وقفنا ياجوذر سلمك الله على ماسأل فيه الأحمق من إطلاق البكاء له والنوح على ولده ، وهذا مالايتمكن[١] منه شيء ولايتهيأ ، لأنا إنما أنكرنا عليهم ما أمر الله ورسوله بإنكاره ، فإن أحب أن يبكيه بعبيده وخدمه فليفعل من ذلك ما أحب إن شاء الله [١٠٨]» .

٢١ — ولما بنى الأستاذ الموضع الذى نقل إليه من المهدية وهو فى بعض قصر مولانا عليه السلام ، احتاج إلى حصر رفيعة لفرشه ، والحصريون يومئذ تحت يديه ، فاستأذن على ذلك ، وأن تكون النفقة عليها من مال نفسه ، فرجع الجواب إليه :

« استعملها لنفسك من خير السامات [١٠٩] وأجود الصنعة من فضلنا ، فما حرم الله عليك ذلك ، والحمد لله » .

* * *

٢٢ — ولما أثبتناها هنا كل ما تقدم ذكره رأينا أن نذكر ماجرى من التوقيعات والجوابات والمكاتبات فى أمر جعفر بن على بن حمدون ، وكان فيما جرى بينه وبين يوسف بن زيرى [١١٠] اختلاف كثير آل بينهما الأمر فيه إلى أن أحضرهما مولانا صلوات الله عليه إلى الباب الطاهر ، وتكلف مئونة الجلوس لهما ، واستماع كلامهما ، وأن يفصل بينهما بالحق وبالعدل ، وعمل[٢]

(١) ا : يكمن . (٢) ا : أمر .

صلوات الله عليه على أن يكون(١) ذلك فى خلوة لها دون أن يحضر رجاله وشيوخ دولته ، وطلب من (٢) الأستاذ حضوره ، فاعتذر لعذر حال بينه وبين ذلك ، فلما أصلح بينهما مولانا صلوات الله عليه ، وخرجا عنه ، كتب الأستاذ رقعة فيها يذكر سروره بما أجراه بينهما مولانا عليه السلام من الرفق والصلح ، ويذكر أن فى ذلك حسم الاختلاف بينهما وسبب كل خير ، فلما وقف صلى الله عليه على ذلك صرف إليه الجواب بأن قال :

« ياجوذر(٣) : كان ما بلغك والحمد لله ، وأنه لحقيق(٤) بأن يسر به كل ولى ، ويكمد به كل شقى غوى ، ولقد احتملنا منهم ما لو كان بين يدى أقل عبيدنا لكبر عليهم ، لكن للذى أردناه من صلاح الأحوال احتملنا ذلك وصبرنا عليه ، ولا سيما(٥) أن كان ذلك بين أيدينا ، وفى خلوة لم يبد لأحد من أوليائنا أو عبيدنا ، وقد علم الله أن ذلك ليس هو لفقرنا(٦) إلى أحد منهما جميعاً ، بل لو شئنا الاستبدال بهما لوجدنا كثيراً يبذلون على ذلك الأموال العظيمة ، فيجب عليك أن تؤكد على جعفر فى موافاة نفسه ، وأخذها بما يجب لنا عليه من امتثال أمرنا ، فإن مات عاملا بأمرنا فأقل ما أوجبه الله عليه ، ذلك لو كنا صرفناه ، فكيف ونحن الأئمة المفترضة طاعتنا ذوو الأنفس الطاهرة فى الحنان(٧) والإشفاق والسماح والاحتمال ، والحمد لله على ذلك كثيرا ، فالعمل بأمرنا واجب من كل الوجوه ، فإن يحمل له ما أوردناه فقد سعد واستعجل الراحة وأراحنا ، وإن مات باذلا روحه فيما أرضانا فقد قضى فرضه وكشف لنا ما اشتبه علينا . فخذه فى هذا الباب بما تعلم أن تم معه

---

(١) ا : كان .
(٢) سقطت فى النسختين .
(٣) سقطت فى ا .
(٤) ب : تحقيق .
(٥) ف : اذ .
(٦) ا : لفقدنا .
(٧) ف : الجنان .

إرادتنا ، فليس والله فى كل وقت[١] تتسع الصدور بمثل الذى كان منا ، وهذا المقام هو الفضل ، يخير لنا ولهم بحول الله ، [ويخير لنا][٢] وضده لمن تنكّب إرادتنا ، وإنما ذكرنا ذلك لبعض ما شاهدناه بالأمس ، فقد كان يبدو لنا[٣] أن اليأس من صلاحهم أغلب علينا ، ثم نعود إلى الرجاء فيما عودنا الله إلى أن تم ما رأيناه وبلغك ، وإن كان ثم[٤] فيه بعض مافيه لكن عوائد الله عندنا جميلة ، وفضله علينا واسع ، وهو يجرينا على أفضل ماعودناه إن شاء الله » .

٢٣ — وكان الأستاذ قد أطلع مولانا برقعة يذكر ما ورد به كتاب صافى متولى خزائن البحر بالمهدية من اعتزامه على خزن الأزواد النافذة إليه فى مسجد عند دار الشبامة ، فلما وقف على ذلك صعب عليه أن يستعمل المسجد مخزناً فوقع إليه :

« ياجوذر وهبك الله السلامة فى دينك ودنياك ، وقفنا على ماذكرته عن صافى ، فاكتب إليه بأن لايقرب المساجد ، ولايخزن فيها ، فما يقوم خير ذلك بشره ، وفى تعظيم المساجد فضل كبير وأجر عظيم ، وفى الاستهانة بها ضد ذلك ، عافاك الله من الإثم برحمته إن شاء الله » .

٢٤ — وكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه يذكر فيها أنه غير غافل عن تحريك المأمورين بالنظر فى شراء حوائج الأساطيل ، وكان ذلك بعقب تضجر جرى من مولانا عليه السلام من أجل تأخر وصول الحوائج وتهاون من كلف النظر فى ذلك وغفلتهم ، فوقع إليه عليه السلام :

« مانشك والله ياجوذر فى جميل نيتك كما لانشك فى أنفسنا ، فجزاك الله خيراً ، ونفعك بما أسلفت ، وبما أنت عليه ، ولم نردك بما

---

(١) ف : متسع .
(٢) سقطت فى ف .
(٣) ف : تمام .
(٤) ف : من .

كان من الخطاب ، وإنما أردنا من يتخلف من امتثال أمرنا وإنفاذه بسرعة ، فأما أنت فما على ما عندك مستزاد والحمد لله » .

٢٥ — وكتب مذكراً بحاجته ، وقال فى الرقعة : «يا حبل الدين المتين، وصراطه المستقيم ، عبدك الفقير إلى رحمتك متوسل اليك بكرم نفسك وفضلك الواسع على ماسألك ، وما لم يسألك ، فارحم مملوكك ، صلوات الله عليكم » فوقع اليه :

« وسيلتك إلينا لأعظم الوسائل ، وهو ما أطلعنا الله عليه من حميد نيتك وحسن طويتك ، ولو لم يقبل سعيك ما مكن الله لك فى صدور أوليائه ما مكن ، ولا أطال مدتك فى خدمتهم التى توجب لك مزيد الأجر ، وما أبقاك إلى أيامنا إلا ليكمل لك السعادة فى دينك ودنياك ، ونحن نسعفك بما سألت فيه ، فثق بالله ووعدنا ، فإنا ننجزه عن قريب إن شاء الله » .

٢٦ — وكتب رقعة يذكر فيها موت صافى بن حسين[1] ، ويسأل له كفنا ، فرجع اليه الجواب :

« خذ له من ابن حسين كفنا جيداً ، وابعث به إلى أهله ، فلقد كان نعم العبد ، فرحمه الله ورضى عنه ، وأثبت ولديه فى موضعه ، فأرجو أن يضع الله فيهما البركة إن شاء الله »

٢٧ — وكتب رقعة رفعها إلى مولانا صلوات الله عليه يذكر فيها موت الكرشى ، فرجع اليه الجواب :

« رحمه الله ، فقد كان نعم الخادم فى جميع ما تولاه » .

٢٨ — وقد كان نفذ أمر مولانا صلوات الله عليه باعتقال المراكب عن السفر إلى صقلية لما يريده من حمل العدة والسلاح والأطعمة إلى صقلية لنصرة العساكر بعد انصراف احمد بن الحسن[2] عنها ، وصرف النظر فيها

---

(١) ف : ابن صافى حسين .
(٢) ف : أحمد بن الحسين .

إلى أخيه أبى القاسم على بن الحسن[١] ، فنفذت مراكب ، وتنكب بها أربابها السبيل ، وأقلعوا بها من بعض المراسى ، فأغلظ فى ذلك جدا ، وأنفذ سجلا إلى أبى القاسم بحرق تلك المراكب وقتل الرؤساء ، فأنفذ أبو القاسم أمر أمير المؤمنين ، وكتب إلى الأستاذ يعرفه ذلك ، وكيف امتثله ورفع الأستاذ كتابه ، فلما وقف عليه مولانا عليه السلام ، صرف الجواب على ظهره وهو :

« يا جوذر وقفنا على هذا الكتاب ، فاكتب اليه باستحساننا فعله ، ورضانا بما يبلغنا من حميد سيرته ، وليدم على ذلك ينفعه الله به إن شاء الله » .

٢٩ — وكتب رقعة يذكر فيها سؤاله فى الذى تقدم ذكره من حاجته بعد أن ذكر كبر سنه ، وضعف بدنه ، ومثل ذلك ، فوقع إليه :

« يمد الله فى عمرك على أفضل محابك ومحابنا فيك حتى تشهد معنا كل الذى يسرك من بلوغنا حقنا ، ونيلنا مازواه أعداء الله عنا على رغم أنوفهم بفضل ربنا إلهنا ، وهو محمود مشكور على ماقضى لنا به من حسن العواقب ، وأما حاجتك ، فأنت والله على خير ، فلا تهم نفسك ، فالذى أنلناكه[٢] من ذلك غاية ما بعدها ، إلا الذى تتوكف من رضوان الله فى المنقلب والذى وعدناكه[٣] ، فالازدياد فى ذلك كالمستزيد مالا إلى ماله ، وسيصل إليك ما وعدناك به من ذلك إن شاء الله »

٣٠ — وكان قد أخرج عليه السلام صقلبياً على يد حسن بن رشيق [١١١] فى تحريك العبيد الزويليين إلى الباب الطاهر ، وكان من فعل الصقلبى فى المنازل التى للأستاذ مالا يجب ، فكتب إلى مولانا صلوات الله عليه يعرفه بذلك وأفرط[٤] فى الشكية . فرجع الجواب إليه وهو :

---

(١) ف : على بن الحسين .
(٢) ا : انلناك .
(٣) ا : وعدناك هو .
(٤) ب : وأطرف .

« ياجوذر ، وقفنا على رقعتك هذه ، فأما محلك من رضانا وموضعك من جميل نظرنا فهو شيء ما نحتاج أن نعرفك به ولا نؤكد عندك من ذكره أكثر من علمك به ، وأما ما ذكره الوكيل من فعل الصقلبي بالرجال الذين ذكرهم فقد فعل غير الواجب ، لكن مثل ذلك من الفعل غير معدوم ممن نتوخى فيه الخير ، ونظن به أحسن الظن ، فكيف ممن لم يعرف منهم إلا السفاهة والغلظة ، وقد تقدمنا إلى حسن بن رشيق بأن يكتب بترك العرض إلى هؤلاء الرجال الذين ذكرهم ، وأنكرنا عليهم ما شكوت به إذ كان كل ما تشاهده أنت بنفسك هو عندنا بحال ما نشاهده نحن بأنفسنا ، وإنما الخوف مما يستتر [1] عنا ، فلو جرت الأحوال على ما نريده نحن للخلق لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولجمعت لهم السعادات فى دنياهم وأخراهم ، وأرجو أن يصلح الله لنا وبنا كل ما فسد ، ويوفقنا وكافة أهل طاعته للعمل بما يرضيه ويزلف عنده إنه جواد منان » .

٣١ — وكانت الأشانيع قد كثرت على أحمد بن المهدى [2] فى حين اضطراب مولانا عليه السلام إلى الشرق ، وقيل عنه إنه يكثر القبيح ويتقول [3] على المقام ويتأخر عن الحركة مع أمير المؤمنين ، فكتب الأستاذ بما أنهى اليه من ذلك رقعة ورفعها يعرف مولانا الإمام عليه السلام أنه استفهم نصيرا صاحب المهدية عن ذلك فرفعه أن الخبر مستشيع بهذا فى الموضع ، فوقع اليه [١١٢] .

« ياجوذر ، أتم الله نعمه عليك . وقفنا على ماذكرته ، ورب

---

(١) ب : ستة .

(٢) ب : اضاف « قدس الله روح المهدى بالله » .

(٣) ب : يكثر القبح ويعول .

العزة أحب أن يعطينا فضله هنيئاً كما سبق من وعده ، ففعل بنا ماهو أهله . وكشف لنا من سرائر هذا الخلق ماستروه ، وانفرد بالحمد والشكر [١] من لاحمد ولاشكر منا إلا له وحده ، وقد كبر على كل ذى نعمة ماوهبنا الله ، واستعظموا الخروج مما هم فيه ، فلو وجدوا من سوء الشنع كل عظيمة — يرد الله شرها — برؤسهم لفعلوا إرادة أن يطفئوا نور الله «ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» [١١٢] وبالله إن أكثر من يظن به الظنون على مثل هذا الحال وقد قال الله سبحانه وتعالى «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض» [١١٣] فجعل البغى مع سعة المكسب والفقر لا بغى معه ، فقد رأينا ذلك عيانا أن أكثر الناس نعمة أكثرهم تثاقلا ، والفقراء أسرع لما ينالونه ، وهذا الشقى أحمد فقد تقدم له رسم فى الشوم ، فمن نزعت حيلته رجع إلى الأستاذ يذكره ، فالذى بيده ملكوت كل شىء أرغب إليه فى هلاك كل ضال غوى من قريب وبعيد ، ومسر ومعلن وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

٣٢ — وكتب رقعة يقتضى فيها أمير المؤمنين صلوات الله عليه فى حاجته المتقدم ذكرها ، فكتب اليه :

« لا نشك يا جوذر أن الله يبلغك أملك وفوق أملك من مرضاه ورضانا نحن ، بنيتك وجميل اعتقادك وقديم خدمتك وحديثها ، فأنت بحمد الله على سبيل خير فى جميع أمورك ، ومتى أمكننا إسعافك بمسألتك لم نؤخرها عنك إن شاء الله » .

٣٣ — وكتب أيضاً رقعة أخرى فى اقتضاء هذه الحاجة ، وذكر أنه مخوف الموت قبل نيل ما أمله منها ، فوقع إليه :

« يا جوذر الموت والحياة بيد الله جل جلاله ، والله يقول :

---

(١) ا : ما . وفى ب : ممن .

« كل من عليها فان » . لكنا نسأل الله جل اسمه ونرغب إليه أن يهبك العافية ، ويؤخر فى مدتك حتى تشاهد نعم الله علينا وبلوغنا أملنا ، وتحج معنا ظاهرا كما حججت باطنا [١١٤] ، فلا تشعرن نفسك ما يضعفها ، فليس يكون من فضـــل الله إلا ما هو أهله ، وحاجتك نحن نجتهد بالإسراع بنجاحها إن شاء الله » .

٣٤ — وكتب رقعة يذكر فيها أمور حوائج البحر ، ويسأل سرعة نفوذ الأمر ، ويتخوف أن يستثقل لكثرة الاقتضاء لها على مولانا عليه السلام من الأشغال(١) ، فوقع إليه الإمام عليه السلام :

يا جوذر صانك الله وسلمك ، والله ما نستثقلك فى شىء نعلم أن سعيك فيه ابتغاء مرضاتنا ، ولكن لو أن نفسا احترقت بلهبها وحر ما يجده الجسم الذى هو مسكنها ، لكانت تلك النفس نفسى مما أقاسيه فى كل وجه ثم لا أفتح عينى على معين ، بل أجد الكل معينا على التمزيق ، وإذا ضاقت نفسى خرجت من الحجر الذى أنا فيه طمعا أن أجد الراحة ، فأشتغل بما لا فائدة فيه فى دين ولا دنيا فأنظر إلى نفسى ، فأتصورها بصورة مجنون بين عقلاء ، وعاقل بين مجانين ، فأتعزى بما سمعت المنصور بالله يصفه عن المهدى صلوات الله عليهما وعلى سلفهما وخلفهما ، كان يقول فى كثير الأحايين وهو ماشى : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » [١١٥] فعلمت أنه كان يجد ما أجده أنا فى وقتى هذا ، وكان يستريح إلى ما يقوله فيكون له فى ذلك بعض العزاء إذ لم يخرجوا عما كانوا عليه ولولا هذه الأحوال الفاسدة المتمكنة فى هؤلاء الهمج الرعاع [١١٦] لم يكن نور الله الذى بأيدى أوليائه يخبو ويضعف ، وباطل أعداء

---

(١) ب : الاشتغال .

الله ينمو ويتسع ، ولكنهم لما لم يجدوا لأثقالهم حملتها أمسكوا وطووا ما فى أنفسهم على من لا يأسى عليهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والتوقيعات نحن نخرجها إليك . فأحسن الله عنا جزاءك فى دينك ودنياك إنه جواد وهاب » .

٣٥ — وكان الأستاذ قد عرضت له علة ، فتأخر من حضور المائدة وعن التصرف ، فكتب إليه أمير المؤمنين صلوات الله عليه مبتدياً بعد أن سأل عنه فعرف سبب تأخره :

« سلمك الله ياجوذر ، وأتم نعمته عليك ، قد علم الله شغل أنفسنا بعلتك ، أعقبك الله بعدها الصحة ، ولو كانت المعافاة يوصل اليها بثمن من أعراض الدنيا ، وإن جل ، ما بخلنا بابتياعها لك من النفيس الخطير من نعمة الله عندنا ، لكننا لا نبخلك (١) من الدعاء الذى نسأل الله أن يتقبله منا فيك ، وأن يهبك من سعة فضله ما هو أهله ، وعندنا ترياق عمله موسى [١١٧] لمثل هذه التى بك ، واختبرناه فرأيناه من العجائب ، وكرهنا أن نهجم به عليك حتى يتبين لنا حقيقة علتك ، فلما كان الآن ذكر موسى أنه من أنفع شيء لك ، وإنا إن أعطيناك شيئا منه ظهر نفعه ، وتبين أثر بركته ، فبعثنا اليك منه فى برنية فضة ، تخذ منه وزن مثقال بماء أصول الأمزاج [١١٨] (٢) المطبوخ فيه حتى يستخرج قوته ، فإذا عمل به ذلك أخذ من مائه نصف رطل ووزن أوقية من عقيد (٣) العنب يجعل الله لك فيه الشفاء والعافيـــة ، إن شاء الله إنه ذو الفضل العظيم ، والسلام عليك ورحمة الله » .

٣٦ — ولما اعتزم مولانا على الخروج فى طلب الثائر المعروف

---

(١) ا : تحيلك .

(٢) ا : الابراج .

(٣) ب : عقل .

يأبي خزر [١١٩] أمر الأستاذ بالخروج إلى المهدية لإحكام ما بالخزائن التى بها ، وشد الأمتعة إلى المشرق ، وخاض الناس وأكثروا من القول بأن الأستاذ هو المستخلف على إفريقية ، وكتب إلى مولانا صلوات الله عليه يعرف ما اتصل به من ذلك ، ويرغب إليه فى أن لا يفارقه ، إذ السعادة مقرونة بنظره إلى وجه أمير المؤمنين ، فوقع إليه على ظهرها :

« ياجوذر ، وقفنا على رقعتك هذه ، هذا شىء يقوله الجهال من الناس ، ومن لا يعلم ما نحن فيه ، ولا والله ما رأينا هذا فيك لوجوه ، أولها : أنا نحب أن لا ندخر عنك نعم الله عندنا وأن تكون مشاهدها . والثانية : أنك لست ممن نستثقله فيجب الراحة منه . والثالثة : كبر سنك فى طاعة الله وطاعتنا . والرابعة : أنك لا تجد من يصفو لك على ما تريد من فساد أطباع الناس وطباعهم الآن ، فأنت لا تجد معينا [١] ولا عضدا ، ولا من يقوم بين يديك فضلا عن غير ذلك فلا تحدث نفسك بما يضعف قلبك [٢] ، فو الله ما تركناك هينا إلا شفقة عليك ورحمة لك ، ونحن نعلم أنك لو كنت غائبا عنا لمثل هذه الغاية لم تسكن من الأحياء إلى اليوم ، فطب نفسا ، فلن تزايلنا حتى تقضى حجك وتزور قبر جدنا محمد صلى الله عليه بفضل الله علينا وعليك ، فوحقك ما أملنا فيك فى سرنا إلا كالذى ذكرنا وأزيد من الخير والجميل ، ونحن نتوخى لأهل هذا الزمان من نرجوه لهم ويصلحوا له إلى أن نبلغ المراد ، ويرينا الله وجه الصواب ، وليتنا نجد فيمن نتركه هينا مثل نيتك وحدبك على دولتنا ، والله يخير لنا ويختار بحوله وقوته إن شاء الله »

٣٧ — وكتب رقعة يذكر فيها أمر طريق السفر [٣] وغيرها من المراصد

(١) ب : لا تجده معنا .
(٣) ب : السير .
(٤) ب : قواك .

هناك ، وأن كثيرا من رجال الدولة ليست بأيديهم سجلات ، ولا إطلاق بالجواز ، وتركوا العزم ، وأنه يتخوف مايقع بينهم وبين العبيد المرصدين من الاختلاف ، وأن فى جملة من لا إطلاق بيده ورثة الحسن بن على ، واستأمر على مايراه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه فى ذلك فوقع إليه :ـ

« لا تطلق لأحد شيئاً له إلا من بيده سجل ، فأما ولد حسن فما بخلنا عليهم من فضلنا بأجل محل من أنفسنا ، فكيف نبخل بأقل قليل من دنيانا ، معاذ الله ، ولكن تقدم إلى محمد بن حسن بأن يثبت جميع ما لهم من دابة ليكتب لهم جوذر سجلا بذلك وبإطلاقها حيث توجهت من هذه الطرقات وغيرها . وأنت تعلم أن اعتلاق حسن بك بعد فضل الله وأوليائه ، وقد مضى سعيداً إلى ربه فى حين إقباله ، وما نحب أن يكون لأحد عليهم فضل غيرنا حتى يكمل الله له السعادة ولمن خلفه من بعده وإن احتشم محمد من ذكره مثل هذه الأحوال لنا فيقع من ذلك عليهم مالا نشتهيه فيهم ، فتفقد أنت أحوالهم ، واذكر ما يجب ذكره منها ، وارعهم كما رعيت والدهم قبل ، فتخير من رعيت ، ومن به عنيت ، من لم يزل آباؤهم سعداء فى دولة الحق ، وتحت رايات أوليائنا ، ختم الله لنا بهم بمثل ما ختم لنا به فى سلفهم إن شاء الله » .

٣٨ — ولما أن خرج مولانا صلوات الله عليه فى سفره إلى بسكرة [١٢٠] وتوجه الأستاذ إلى المهدية ، اجتاز أمير المؤمنين بعين تعرف بعين كسرى فوقف عليها ، وذكر الأستاذ وقال :

« ذكر الله جوذر بخير ، فإنه كان يسره الوقوف على هذا الماء والشراب منه هلموا جراراً خضراً » .

فأتى بها ، وملئت بين يديه وختمت ، وأنفذها ، وكتب معها رقعة إلى محمد الكاتب [١٢١] نسختها :

« يامحمد ابعث إلى جوذر سلمه الله بتوقيعنا هذا تعرفه أنا ذكرناه بعين كسرى ، ذكره الله بالرحمة والعافية ، وأنا أمرنا أن يملأ له بين أيدينا من رأس العين حملين ماء ، وأنفذناهما اليه ، وبعثنا اليه أيضا بخمسة دنانير من السكة المباركة المضروبة بمصر على اسمنا بفضل الله وعظيم امتنانه ليراها ويتبرك بها ، وأرجو أن يمد الله فى عمره حتى يحج معنا ونعطيه مما يضرب لنا ببغداد ، وقد أكمل الله لنا الآمال ، وعرفه ما نحن عليه من السلامة وتتابع النعم وما معنا من الجموع التى يستعملها الله فيما يرضيه على استيئام أعدائنا حيثما كانوا فليطب نفسا ، فما نلنا إلا كل خير الذى يسره الله به ، والحمد لله كثيرا كما هو أهله » .

٣٩ — وكان الأستاذ فى وقت من الأوقات اشتدت به علته تلك حتى تخوف على نفسه فكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه شرح له فيها حاله ، ورغب اليه فى إسعافه بحاجته ليسر بها فى أيام حياته ، وكان الإمام مشتغلا فى يومه فأقامت الرقعة الى الغد ، فلما أصبح قرأها ووقع على ظهرها [١٢٢] :

« ياجوذر ، سلمك الله من جميع الآفات ، ووهبك العافية ، وصرف عنك المحظور بفضله . وصلت رقعتك الينا بالأمس ؛ وكنا على شغل ، فلم نقف عليها إلا اليوم ، فساءنا والله ماوصفت به نفسك وأوجعنا ، ونحن نرغب إلى الله فى كشف ذلك عنك ، فلا تشعر نفسك الخوف فتعين عليها ، فكم من ضعيف رزق السلامة ، وقوى أعجلته المنية ، وأنت بحمد الله على خير كامل فى محياك ومماتك ، فقد رزقك الله من رضا أوليائه ما حرمه غيرك ، فطب نفسا ، وثق بالله

فلن يشمت الله بك عدوا ولا حاسداً ، وحاجتك تصل إليها بفضل الله ، ويبقيك الله حتى تشاهد معنا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر جدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وما ذلك على الله بعزيز ، وقد بعثنا إليك بشراب كنا دبرناه لمثل ما وصفت (١) من علتك ، فوجدنا نفعه ، فاشربه ولا تبال كان ذلك قبل الطعام أو بعده ، وأرجو أن يجعل الله لك فيه الشفاء والبركة ، وتعرفنا من بعده كيف حالك ، حسنها الله . وما الذى تجده بعد شرب هذا الشراب ، وأرجو أن يكون خيرا إن شاء الله . كما يسرنا الله بك » .

٤٠ — وكان الامام عليه السلام ، قد رأى أن يكون على زويلة سور يدور عليها كما دار على المهدية [١٢٣] . وأمر أن يؤخذ قياس ذلك . فنفذ كتاب الأستاذ عن أمير المؤمنين الى خليفته نصير بالمهدية . وعاد الجواب بمبلغ القياس وذكر ما يحتاج اليه من المال للنفقة عليه . فلما وقف أمير المؤمنين عليه السلام على ذلك ، صرف اليه الجواب وهو :

« هذا بنيان لا نستبد منه ، فاسم المهدية عظيم ، وهى الأصل الطيب ، ودار الملك ، وما يدركها من سوء يؤلم أنفسنا ، ويوجع قلوبنا ، حرسها الله . فلا نستكثر ما ذكرته من النفقة إن شاء الله » .

٤١ — وعاود التذكرة بنفسه (٢) فى أمر حاجته ، فرجع إليه الجواب :

« نفعل ، يا جوذر ، ونصرف إلى حاجتك طرفا من نظرنا . فوالله إنا نؤثر سرورك ونحبه كما نحب سرور أنفسنا لما وهبك الله من رضانا ومكنه لك عندنا ، فطب نفساً ، فستصل إلى ما تحبه إن شاء الله » .

٤٢ — وأخرج إليه رقعة ابتداء من نفسه فيها :

---

(١) ب : وصفته .   (٢) به : من بدل فى .

« يا جوذر ، نعرفك تحب لبس الزانات ، فبعثنا إليك بزانتين من خز استخدمهما المنصور بالله صلوات الله عليه . ونحن بعد قد استعملناهما وقت الحاجة إليهما ، فاستعملهما معترفا [1] من الله البركة والسعادة إن شاء الله » .

٤٣ — وكان الأستاذ كثير المراعاة لأحوال من يلوذ به . فكتب رقعة يسأل فيها لميمون بن فتوح التيفاشى [2] فى الرزق برسم غانم الكاتب . فرجع إليه الجواب :

« ميمون يحفظ لأبيه فتوح وولايته ، لو لم يكن فيه خير فكيف وهو خير من أبيه ؟ . ونعم [3] النشو ، فاجعل رزقه ورزق غانم واحداً ، واذكر ذلك لخلف الكاتب عنا ، إذ كانا يأخذان من عنده ، إن شاء الله » .

٤٤ — وكان الإمام صلوات الله عليه ، يخرج إلى الصلاة فى كل جمعة من شهر رمضان ، فلم يخرج فى جمعة منه ، وكان الحر شديدا ، فتعلقت نفس الأستاذ ، وأحب التطلع إلى علم ذلك ، فكتب رقعة يصف فيها ما هو عليه من القلق والتخوف ، ويسأل عن الحال . فرجع الجواب إليه :

« يا جوذر ، صانك الله ، وقفنا على رقعتك وما ذكرته فيها من شغل ضميرك ، فليس إلا خير ، والحمد لله ، ونحن نسأل أن يشهدنا هذا الشهر العظيم بحال يرضاها بعز أوليائه ووقم أعدائه وإدالته للحق من الباطل ؛ إنه لا يخلف الميعاد . والذى أخر بنا عن الخروج اليوم ، فهذا الحر العظيم يذكر ذوى الغفلة بحر جهنم التى هى دار الفاسقين . أسأل الله لنا ولأوليائنا المتقربين إلى الله بطاعتنا العصمة والنجاة من عذابه ونيل المرغوب فيه من رحمته ونعيم جنته ، إنه الجواد الوهاب » .

---

(١) ب : متعرفا . (٢) ا : التفاوسى

(٣) ا : ويعلم بدل ونعم .

٤٥ — وكان عبد الله بن رفيق استعقد ربع المهدية وشرطها وزاد فيها زيادة أوجبت صورتها قبولها لما فى ذلك من توفير المال ، واستأمر الأستاذ مولانا ، صلوات الله عليه ، على ذلك فنفذ أمره المعظم بعقدها عليه . فلما تمكن بسط يده على الناس ، وقطع العُدوات بما لا يوجبه الحق ، واستعمل التجنى على أهل الستر ، فكثرت الشكوى ، وتظلم الناس، واستغاثوا . فورد كتاب نصير يذكر ذلك كله . ووصل كتاب ابن رفيق يذكر اعتراض نصير عليه ، فرفع الكتابين جميعاً إلى مولانا ، وكتب معهما رقعة يسأل أن يحد له مايعمل فى ذلك . فلما وقع مولانا على القضية وقّع إليه :

« ياجوذر ، سلمك الله ، هذا الذى ذمه ابن رفيق من فعل نصير هو شكر لنصير ، فقد علمت أن المهدية حرمنا وحرم آبائنا الأطهار وأحق الأمصار بنشر العدل وبث الإحسان لوجوه يطول شرحها. وقد علم الله أنا لا نرضى بهذا الظلم والعدوان فى أحد من أهل طاعتنا، وإن كان شاسعاً نائى الدار عنا . ولقد عملنا فى زوال ذلك وإسقاطه عنهم فكيف بأهل المهدية نبيح فيهم ذلك ؟ إذا لم يكن فى المال وفر إلا من هذا الوجه فلا جمعه الله ولا وفره . وأنت تعلم أن بالمهدية وغيرها من يبتغى لنا من الغوائل مايرده الله برءوسهم [١٢٤] . فإذا أطلقنا على أنفسنا القبيح وبغضنا أنفسنا إلى الناس وتعرضنا لمقت الله ، جل وعز ، فقد بلغناهم آمالهم فينا ، ومعاذ الله ألا يكون سرنا فى أمة استرعاناها الله إلا كأفضل ماتكون عليه علانيتنا ، فبذلك نستوكف رضوان الله وبضده نستعجل مقته وغضبه ، أعاذنا الله وأولياءنا من ذلك . فعرف ابن رفيق هــذا وأن هذا الفعل مالا نطلقه له ولا نرضاه من عمله ، وأن تحببه إلى الناس آثر عندنا من توفير مايجمعه . والحمد لله رب العالمين » .

٤٦ — ولما قدم أحمد بن حسن بن على من صقلية وكان بينه وبين إخوته

اختلاف — أعنى محمداً وموسى ابنى حسن بن على — وكان أحمد يكاتب الأستاذ حسب ماجرى به الرسم قديماً ، فتخوف أن يظن به محمد بن حسن الميل مع أخيه دونه ، فاحتاج أن يعرف مولانا صلوات الله عليه بذلك وأنه يتوقف عن الدخول بينهم فى شىء من أمورهم لئلا يعود عليه ذلك باللائمة . فوقع إليه الإمام صلوات الله عليه :

« ياجوذر ! ذكرت أمر أحمد وتجنبك الدخول بينه وبين إخوته تخوفا من أن يقع بينك وبين القوم وحشة ، فالصواب مارأيت فى ذلك ، وإن كنت لاتريد بواحد منهم إلا خيراً ، وفقك الله . لكننا والله نحن فى حيرة من أمرهم ، فقد انتصب لهم الناس ، وأعطوهم آذانهم حتى كأنهم ينتظرون وقعة بين العرب والعجم ، ولا أدرى ماسبب ذلك ، ولا مامعناه ، ولاوقع إلينا طرف نستدل به على شىء . ولم نسمع ، علم الله ، من الحاضر فى الغائب مانكرهه ومن الغائب فى الحاضر ، فلا ندرى أى شىء سبب هذه الأشنوعة عنهم كأن أحدهم يريد أن يبغى على الآخر ويقتله . وأكثر ماوقع إلينا أن فيهم قوما مهتوكين أنذالا يخافون متى اتفق أكابرهم قمعوهم وألزموهم استحقاقهم من الآداب فهم يحبون اختلاف الرؤساء والمنظور إليه منهم فيعيثون مابينهم ، وما شبهت الولد السوء طاهر إلا بقاسم لعنه الله الذى أوقع بين المهدى بالله والقائم بأمر الله [١٢٥] ماتولد عنه كل فاقره وبقى هو بمعزل ، لعنه الله ، فهذا شبهه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وإن كان هؤلاء على محلهم منا بمثل هذه الحال فهذا شغل لنا من حيث لم نحتسب . والذى سأل أحمد فيه من نزول ابن عمار بالدار التى بنيناها له فيكون نزوله بالموضع الذى كان فى حياة عمه له ، ثم ينتقل إلى الدار فى الوقت الذى نأمر به ونختاره له إن شاء الله »

٤٧ — وكان أحمد بن محمد الطلاس متصرفاً تحت يدى الأستاذ فى خزائن

البحر، فلما توفى كتب نصير بخبر وفاته. ورفع ذلك الأستاذ إلى مولانا الإمام صلوات الله عليه. فلما وقف على ذلك كله كتب إليه :

« ياجوذر اخذ له كفناً من حسين بن مهذب مثل الذى يعطيه لشيوخ الأولياء من كتامة، وابعث به إلى نصير مع فرانق ويدفن رحمه الله، فقد كانت له نصيحة متقدمة، ينفعه الله بما أسلف منها إن شاء الله ».

٤٨ — وقد كان دار النظر فى منازل المظفر إلى الأستاذ. وكان مالها ينزل فى ديوان المنصورية مفرداً دون الأموال التى كان يجرى نظر الأستاذ فيها بالمهدية والنفقة منه على العبيد الذين تحت يده، فاحتاج أن يدخل هذا المال الذى يجرى من هذه الضياع فى الجملة التى ينفق منها على العبيد لما أن عجز عليه الدخول عن الذى يحتاج إليه فى وجوه الخروج، فكتب فى ذلك رقعة ورجع إليه الجواب بهذا :

« ماعندنا فى حسن نظرك شك وأنك لو وجدت خزن الهواء فضلا عن غيره لخزنته إلا عن مستحقيه، فاعمل فى هذه الضياع بما رأيته واصرف غلاتها فيما احتجت إليه، فالنفس طيبة على كل ما يكون منك. والحمد لله رب العالمين ».

٤٩ — وورد كتاب على الأستاذ من قبل أحمد بن حسن أيام كونه بصقلية يذكر أن علةً عرضت له وتكلم على أمر قطع العود من الفلاة[1] التى كانت ينقطع منها، فبعثه إلى أمير المؤمنين وكتب رقعة يقول فيها :

« يامولاى صلى الله عليك، هذا كتاب عبدك أحمد بن حسن حدا [١٢٦] مملوكك على رقعة رغب إليه فى فصل منه بعد وصف علته إذ قال : « اذكرنى عند مولانا صلوات الله عليه فلعله ان يدعو

(١) فى نسخة ب : الفلاع

لى بالفرج مما أجده لينالنى من بركة دعائه ورحمته ما ينفعنى الله به ويسعدنى فى الدنيا والآخرة » .

فرجع إليه الجواب على ظهر الرقعة :

« وقفنا على الكتاب ، وصرفناه إليك ، والله يسلمه— وينفعنا به ، ويكمد بصلاح حاله أعداء ملتنا بحوله وقوته . والذى ذكره من أمر العود قد سمعناه ، لكن يؤكد عليه فى أن يبذل فى أمره مجهوده حتى ييسر الله منه العسير بلطفه وجميل صنعه . والعلة التى ذكرتها من ذهاب من كان يستعان بهم فى أمر هذا العود كأهل طبرمين ورمطة ، فتعرفه أن رغبتنا إلى الله فى أن يزيدنا من هذه العلة بذهاب الباقين من أهل هذه الملة المحولة المبدلة المكذوب فيها على ربنا عز وجل المسخطةلله الموجبة لمعتقدها أليم عذابالله ، والله يفعل ذلك ويجيبنا إليه بعدم العود على الجملة ، فيالها من نعم ما ظننا بأنا نستأهلها أو نتناولها ، ولكن بفضل ولىّ الفضل لا إله إلا هو ، ولا معبود غيره ، عليه توكلنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

٥٠ — وشكى إليه نصير بكاتب عنده يعرف بأحمد بن ريحانى ، وكان كاتب سره ، والمتصرف فىالخدمة بين يديه ، وذكر أنه يكثر شربالمسكر ، ويرى سكران فى كثير منأوقاته ، وأنه لايأمن أنيذيع أسراره إذا سكر . فأحب الأستاذ معاقبته بضرب العصا على ذلك ، ثم شاور أمير المؤمنين ، فصرف عليه السلام الجواب إليه عن ذلك وهو :

« ياجوذر ، يجعل نصير هذه الزلة لكاتبه مقدمة وإنذاراً ، ولا يبطش به بضرب ولا غيره ، فإن صلحت له حاله فقد سعد ، وإن تكن الأخرى ففى الناس له سعة يستبدلبه إذا شاء ، ولكن لايكون

---

(١) ا : يسلمك (٢) ب : المكذبون (٣) ب : نشاهدها أو نناولها .

ذلك إلا بعد معاودة الزال ، إذا كان عبدا يضرب بالعصا لا يصلح للأسرار ، والحمد لله رب العالمين » .

٥١ — وورد على الأستاذ كتاب من نصير الخازن عامل أطرابلس ، وذلك بعد وصول الأساطيل إليه مع أحمد بن حسن ، يذكر شوقه إلى رؤية وجه مولانا صلوات الله عليه ويرغب فى القدوم لصلاة العيد معه ، ويذكر مبلغ ما اجتمع عنده من المال ، وماخرج منه من النفقات على هذا الأسطول ورجاله ، ويصف استقامة أحوال البلد ، فرفع الأستاذ كتابه ، فلما وقف عليه أمير المؤمنين صرف الجواب على ظهره وهو :

« ياجوذر : أكتب إليه وعرفه جميل رأينا فيه ، وأن أنفسنا طيبة على ما يتولاه ، وما أعدمه الله التوفيق مذ كان ، ولا يعدمه الآن ، فليجتهد فى الخدمة والنصيحة ، فما نعلم فى ذلك تقصيرا مذ عرفناه ، عرفه الله الخير والبركة . والذى ذكره من أمر صلاتنا فى هذا الشهر المبارك ، وشهوته لو قضى ذلك ، فمن كان فى خدمتنا مثل ما هو بسبيله منها فهو حاضر معنا وإن غاب شخصه ، فكم من غائب حاضر ، وحاضر غائب ، فمن أحب الخير والاستكثار منه وفقه الله لطاعتنا ، والعمل بما يرضينا ، ومن غلبت عليه شقوته فهو لا يبصرنا ولو دخلنا بين أشفاره ، ومن أعماه الله عن تأمل نعمته ليس له بصر ولا بصيرة يبصرنا بها . فليحمد الله على ما وهبه من رضانا ويشكره ، فإنه لا يؤدى شكر ذلك إلا بعون الله ، فأما المال الذى ذكر افتراقه عن يديه بعد اجتماعه فما أخرجه بأمرنا وفى مهماتنا فهو فى حال ما وصل إلينا ، وهل ترى الأموال إلا لهذا الإنفاق ، فالحمد لله الذى قدر إنفاقه فيما يرضيه ، وفيما يعود علينا بفخر الأبد وامتداد اليد وبلوغ آمال الآباء والأجداد ، فوالله لو كانت جبال[1] أفريقية ذهبا أو فضة ،

---

(١) ا : حال .

ثم أنفدناها إخراجاً لأعاضنا الله بها بما قد وهب من فضله وإحسانه، ولكانت قليلة حقيرة فى جنبه ، وإن الذى جعله الله فى أموالنا من البركة من أعظم الآيات وأكبر البراهين ، أسأل الله التوفيق ، ووالله إن الذى عدمنا فى خدمة نصير بين أيدينا ، وما كان ينظر فيه لما كان بحضرتنا سيما بعد غيابه جوهر سلمه الله ونصره ليفى (١) ماضاع فى جمعه بما توفر من مال أطرابلس فى سنة ، وإنا كنا استرحنا بعد خروجه إلى جوهر فوجدنا فيه ومعه ما أردناه ، فمذ خرج صارت الأشياء مهملة ، وركب كل وحش هواه [فلاخزانة ولاحراس (٢)] ولاعبيد ولاحال يوقف منها على محبوب ، والحمد لله على كل حال » .

٥٢ — ولما أنشئت المراكب الحربية بالمهدية وأعجز عن تمامها الأطراف التى كالها بالصوارى والقرايا وما أشبه ذلك . وكانت عند الأستاذ فى مخزنه أعواد حسان ، فتقرب بها إلى أمير المؤمنين ، وكتب رقعة بذلك ، ووقف مولانا عليه السلام على ما كتب به ، فصرف إليه الجواب ، وهو :

« لا والله ياجوذر ، ما نحب أن نخلى مخزنك من مثل هذا العود ، فدعه عندك ذخيرة لنا ، وليلتمس نصير ابتياع كل مايجد إلى ابتياعه سبيلا ، فلنا آمال يبلغناها الله ونشهدها ، ويبلغك أملك فيها من رضاه ورضانا والزلفى عنده بسعاك ، إنه واسع المن عظيم الإحسان » .

٥٣ — ولما توفى نظيف الريحانى الكاتب، ترحم عليه الإمام عليه السلام ثم استأمر الأستاذ فى أمر ولده — وكان ابنه طفلا صغيراً — بأن يعيد عليه رسم أبيه . فوقع إليه مولانا صلوات الله عليه :

« يحفظ ولد نظيف لوالده ، لو لم يرب الصغير لم ينتفع به كبيراً وللتربية موضع ليس مثله بموجود عند كبير قد كسى وجبر يرى أن

---

(١) ا : لبقى (٢) سقطت فى ب

الحاجة دعت إليه لا كمن يرى أنه رشح للخير وأعين عليه من قبل أن يصلح لما أهل له ، فاحفظه ونبهه تنتفع به إن شاء الله [١٢٧] » .

٥٤ — ولما وصل أحمد بن الحسن من صقلية وكان واجدا على ولده طاهر لصحبته مع الأمير تميم وما شنع من القول عنهما ، فأراد قتل ولده طاهر هذا إلا أنه استأمر الأستاذ على ذلك وشاوره فيه ، فلم يجد الأستاذ بدا من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين فصرف إليه الجواب ، وهو :

« ياجوذر ، كثر الله من أوليائنا مثل أحمد ، فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبي الشقي ولده صحبة من كان سبب شقوته . ووالله إن توجعنا به كتوجعنا بمن لنا ، لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى أبدا ، إذ كانت الخطة التي يرفع الله عز وجل بها أولادنا هي خطة الطهارة ، ومن عدمها كان كلا على مولاه ، والحمد لله على ما ساء وسر ، فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه وتشفع له عنده ، وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شنعة يلحقه عارها ويبقى ذكرها مع الأيام ، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى في الأعقاب ، فليمسك ويعمل ما يصلح فيما يستقبله ، فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان يسمى به بينهما ، ونحن نداوي عللهم فمن أطاعنا لم يشق والله ، لقد نكس الله رءوس كل من كان انتصب للشماتة بهم لما رأوه من فضلنا عليهم وإنفاقه . وكذا نحب أن يكونوا ما بقوا في نمو وزيادة لا في النقص ورجوع القهقرى ، فعرفه ذلك ليعمل به ولا يحدث في الصبي شيئا من المكروه إن شاء الله [١٢٨] » .

٥٥ — وذكر صالح بن بهرام الكاتب صهر نظيف الكاتب المتقدم ذكره آنفا أن خادما جاءه من القصر يذكر أن جارية من جواري القائم بأمر الله

صلوات الله عليه رأت فى منامها كأن القائم بأمر الله قال لها : امضى إلى نظيف الكاتب وإن لم تمضى إليه يوم الخميس قبل صلاة العصر لم تلحقيه . فقولى له أبشر فإنك من أهل البيت ، وإنك من أهل الجنة . قال : فقالت له الجارية : يامولاى ، أحمل له شيئاً من نفقة ليكون لى أجرها ؟ فقال لها : لاتفعلى فإنه لن يقبل ذلك منك وهو غنى عنه . فلما عرف الأستاذ بهذه الرؤيا أنهاها إلى أمير المؤمنين فصرف الجواب عليه السلام إليه ، وهو :

« لاشك أنه على ذلك لنيته وصحته ورضاء مواليه عنه . والله لقد كنا فى حال الصبا لايحتشمنا أحد ، ولا يتوهم أنا نميز شيئا ، وكنا نعرف كل واحد وماهو عليه لقوى مواد من عند الله عندنا ، فما علمنا له بشىء من أحوال غيره فى التخليط بل نعرفه على الصحة وقصد السبيل المفضى به إلى رضوان الله ربه . ومن كمال سعادته موته فى أيامنا ، رحمة الله عليه . »

٥٦ — ووصل إلى الأستاذ عود كثير فى مركبه من صقلية وكانت دار صناعة مولانا ، صلوات الله عليه ، محتاجة إلى العود ، فتقرب به ورغب فى قبوله منه فصرف إليه الجواب :

« ما نشك فيما أسعد الله به من توخى رضانا ومكنه فى نفسك من ذلك ، أحسن الله إليك ، وبلغك أفضل أملك من رحمته ورضوانه . قد قبلنا منك ماتبرعت به . فاكتب إلى نصير بقبضه واستعماله إن شاء الله » .

٥٧ — وقد كان وقع بين وكيل الأستاذ وبين رجل من كتامة من إشجانة يدعى ربيع بن صوات تشاجر فى أمر أرض من ضيعة الأستاذ هناك تغلب عليها الكتامى ودافع الوكيل عنها . وكان الأستاذ مشفقا عليهم رءوفا بهم لمكانهم من هذه الدولة الطاهرة ، وادعى الكتامى أنه اشترى هذه

الأرض بستين دينارا، فرفع الأستاذ ذلك إلى مولانا صلوات الله عليه وسأله أن يدفع ستين ديناراً إلى الرجل وينزه نفسه عن الخصومة مع تورعه عن الأشياء . فلما وقف أمير المؤمنين على ذلك وقع إليه :

« ياجوذر ، صانك الله ، وقفنا على ماذكرته فى رقعتك هذه ، وأداء هذه الستين دينارا بالراحة من جور مثل هؤلاء سهل يسير ، فإن هى لم تساو ذلك فاجعلها صدقة على الذين ادعوا فى إملاكها ، وأرح نفسك وإياهم فلأن يكون العدل منك فيهم أولى من أن يكون من هؤلاء السفلة ، والله يثمر مالك من حيث يرضاه ويزلف لديه بلا حرام يشكره ، فقد عصمك الله من ذلك قديما وحديثا وهو يتم نعمته عليك كما لم يزل يعرفه أولياؤنا من جميل صنعه ، لا إله غيره ، ولاشريك له »

٥٨ — وكتب جوهر الكاتب رقعة إلى مولانا أمير المؤمنين يسأل فى الإنعام بسهم شوذب من دار كانت بإزاء دار البغدادى بعد وفاة شوذب وابتياع سهمه فى الضيعة منه وكانت الضيعة فيما بين شوذب وامرأة جوهر. فوقع مولانا صلوات الله عليه :

« ياجوذر ، هذه رقعة جوهر إلينا بما تقف عليه ، فصير إليه سهم شوذب من الدار كما سأل وبع منه سهمه من الضيعة لشفعة فى ذلك بما نوافقه عليه ، فهو أحق باحساننا من غيره ، كثر الله فى عبيدنا مثله إن شاء » .

٥٩ — وكتب الأستاذ رقعة إلى أمير المؤمنين يشكو بربيع الصقلبى فى ضيعة تعرف بفندق ريحان [١٢٩] ، وأنه تعسف على أهلها وأذل الوكيل الذى هو من قبل الأستاذ بها . وكان ربيع هذا قد خرج لحشد البحريين ، فلما وقف مولانا ، صلوات الله عليه ، على ذلك ، صرف إليه الجواب، وهو:

« ياجوذر ، سلمك الله ، والله مارضينا فيك ولا فى أقل من فى

صحبتك بسماع كلمة سوء فضلا عن أن يقف[١] إليك مكروه ، ولو جئنا نتبع أفعال هؤلاء السفل لوجدناهم من الاستخفاف بالله وبنا على غاية يقصر عنها الوصف ويسهل عليك ما يؤلم نفسك من أفعالهم لكنا لانجد إلا هؤلاء ومن هو شر منهم ، لأنا ما أحسنا إلى أحد وندبناه إلى معونتنا فوجدناه عند إرادتنا حتى كأنهم جبلوا على الخيانة وكفر النعمـــة فنقول : الحمد لله على كل حال ، ولا جزى الله من أحوجنا إلى استخدام هؤلاء خيرا . فلا تمكن النذل من هذه المنازل ولا تبلغه بغيته فيها واكتب إلى الحاكم عن أمرنا بالكشف عن صورة هذه الحوادث وبالكتاب إلينا بصحة ما تقف عليه من ذلك لنأمرك بما تعمل عليه إن شاء الله » [١٣٠] .

٦٠ — وكان بالمسيلة رجل يدعى عثمان بن أمين اتصل بالأستاذ عنه أنه يكاتب بنى أمية وأنهم يرعون ذمامه هناك ويقضون حوائجه وأنه يقدح فى الدولة . ولم يكن جعفر بن على أخذ على يده ولا حجزه عن أمر يوجب الإشارة إليه بذلك[٢] . فرفع الأستاذ ما اتصل به من ذلك لأمير المؤمنين صلوات الله عليه ، حسب ما توجبه الديانة[٣] ، فلما وقف مولانا صلوات الله عليه على رقعته ، صرف إليه الجواب ، وهو :

« ياجوذر ، المتفضل علينا بما تفضل يكفينا ما نحذره ظاهراً وباطناً ويجازينا بمـا يعلمه منا ويجازى كل امرىء بما يعتقده لنا ، والذى يجعلنا نتزيد فى الصبر بصيرة علمنا بما عليه أكثر الناس من الكيد والحسد والبغض ، وإن جاريناهم خشينا من آثامهم ، لكنا

---

(١) يقف إليك بمعنى يعرض لك . ولا نظن أن الأصل كان « يقع إليك » .

(٢) المعنى ولا حجزه لعدم وجود أمر بهذا الشأن .

(٣) من تعاليم الفواطم لأتباعهم « أن لا يخفوا شيئا عن الإمام » راجع القاضى النعمان : الهمة فى آداب أتباع الأئمة « نشر الدكتور محمد كامل حسين ، ص ٥٣ .

نجتهد فى صلاح من استطعنا صلاحه ، فإن تم لنا ما نريده كان لنا أجر ذلك وذخره ، وإن لم يتم كان إثم الهلاك على نفسه كما وصف الله عن وليه من بنى آدم إذ قال لأخيه « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار[1] » ، فعاقبة الصبر لنا محمودة بفضل الله . وهذا الرجل الذى ذكرت يوصف لنا مثل ما بلغك ، ويقال إن له من جعفر أوكد حرمة ، وأن ابن رماحة لا يقف له فى حاجة ويعنى بأسبابه ورباعه وأملاكه العناية الوكيدة . فاكتب أنت إلى جعفر كأنك تسأله عن أمره وخبره ، وأن ذلك الذى يبلغك من الوقيعة فيه من غير أن تشرح له ما الذى بلغك ليذكر لك هو صورة أمره عنده فنستدل بقوله على ما عنده ، إن شاء الله » .

٦١ — وجلس عند الأستاذ يوماً عبد الله بن حجون البنا يحدثه ، وكان يألفه ، وللأستاذ فيه صنيعة متقدمة ، وكان الرجل وفياً ، وكان جلوسهما فى حين احتجاب مولانا ، صلوات الله عليه ، لأشغال تكاثفت عليه حتى إنه ما كان يصل إليه إلا إخوته وعمومته ، وكان الأستاذ مؤثر التخفيف لا يدخل إلا وقت المائدة مع أصحاب الرسم ، فقال له ابن حجون : مالى أرى الأستاذ لا يأتى بالغدو والعشى إذا جلس أمير المؤمنين ؟ فقال له : آثرت التخفيف عن قلب أمير المؤمنين . فلما سمع ابن حجون ذلك واجتمع مع أمير المؤمنين ذكر له الخبر . فقال صلوات الله عليه :

« ياسبحان الله ! جوذر يستثقل ! وما الفرق بينه وبين هؤلاء ، وأشار بيده إلى إخوته وعمومته وأولاده » .

فلما دخل عليه السلام إلى قصره ، كتب إليه رقعة يقول فيها :

« ياجوذر ، سلمك الله ، عرفنا ابن حجون اليوم ما كان من قولك . ولا ، والله العظيم ، ما نستثقلك ولا نحتشم فى شىء لمعرفتنا

(١) سورة المائدة رقم ٥ آية ٢٩ .

بما لنا عندك وفى نفسك ، فمتى أردت المجىء إلينا فى كل الأوقات فجىء ، فان لك فى ذلك فرجاً إن شاء الله » .

٦٢ — وكانت أخبار صقلية أبطأت على أمير المؤمنين ولم يرد منها كتاب ولا رسول ، فشغل ذلك قلب مولانا صلوات الله عليه وقلوب الناس ، فبينما الأستاذ جالس فى بيته إذ جاءته رقعة بخط أمير المؤمنين أراد بها إدخال المسرة عليه وهى :

« ياجوذر ، سلمك الله ، نبشرك بخير إن شاء الله ، قال أمير المؤمنين : « ما اشتد حبل قط إلا انقطع » . وأغم مامر بنا من أمر المشركين يومنا هذا فأتى الله بالفرج ، ووصل إلينا بعض الفرانقين بخبر وصول رباح غلام حسن بن على وأنهم خلفوه على دخول ، وذكروا أنهم سألوا بعض القادمين معه من الأخبار ، فذكروا أن المشرك بعث بخمسة عشر مركباً فيها أسارى المسلمين وهدايا وغير ذلك ، وأنهم تركوهم على وصول فى أثرهم ، ومتى تم ذلك بفضل الله فقد حصل المشرك ، وبحصوله هلاك كل وثن من المشركين وغيرهم ، إن شاء الله » .

٦٣ — وكتب الأستاذ رقعة يذكر فيها أنه مع إيثاره للتخفيف عن مولانا يتخوف أن يكون عليه شىء فيما يُذكر به ، ويستأمر عليه من أمر حوائج البحر وغيرها من الخزائن ، ويخشى أن يستثقل ذلك منه ، فلما وقف مولانا صلوات الله عليه كتب إليه :

« ياجوذر ، سلمك الله ، وقفنا على ماذكرته فى رقعتك هذه ، لا ، والله ، ما حالك عندنا حال من يستثقل ، بل نرغب إلى الله ونسأله أن يجعل فيمن يصحبنا كثيرا مثلك ، وما نرى كل مايجىء منك إلا كما يكون من الإنسان لنفسه ، فلاتتوهم غير هذا ، واشكر الله على ما خولك من ذلك . وأما أشغالنا فهى تتأكد بضروب ، وكلما رجونا أن يرزقنا الله عليها معينا عظم شغلنا بعدم المعين . وكان

ذلك علينا لا لنا ، فكفانا الله شر من لا يعرف قدر النعمة وبلغنا الأمل فيمن نرجوه المعونة إن شاء الله » .

٦٤ — وكتب رقعة إلى مولانا عليه السلام يذكر فيها سؤال محمد الكاتب لولده جعفر فى ضيعة يرتفق بها ، فرجع إليه الجواب وهو :

« وقفنا على رقعتك ، ومحل محمد مثله ممن صدقت نيته وقدمت فى الجميل صحبته ، ونحن نحب أن يسبغ الله نعمتنا على من لم يعرفنا ، فكيف من لم يعرف إلا بنا . ونحن نسعف جعفرا لسؤالك ما سأل فيه إن شاء الله » .

٦٥ — ورفع إلى مولانا عليه السلام أن وصفاء من الرقادين كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام ، وشرح من أمرهم ما وقف عليه ، فخرج إليه التوقيع وهو :

« ياجوذر ! أسعدك الله ، أكتب إلى نصير بأن يقبض على هؤلاء المرتدين ويسجنهم ويضربهم ويشهد عليهم العدول ، فإن رجعوا إلى الإسلام أشهد عليهم وأطلقهم ، وإن أقاموا على النصرانية جدد الإعذار إليهم والإنذار لهم مرات فى أيام مختلفة فإن عادوا إلى غيهم أخرجهم وقطعهم إربا إربا على أعين الناس أجمعين ليكون شنعة لغيرهم ، ويعرفهم فى حين الإنذار فى الأوقات الثلاثة أنهم إن أصروا كانت هذه عاقبتهم ، ثم يكون العمل من بعد على ما ذكرنا إلا أن يتوبوا إن شاء الله » .

٦٦ — وكان محل جعفر بن المنصور صاحب اليمن من الدولة وقربه من مولانا عليه السلام المحل القريب ، ومكانه من الأستاذ المكان الأدنى الوكيد فى الدين ، وكان يسكن دارا بالمنصورية بجوار على بن الجنان ، فسأله على فى بيع الدار فلم يفعل ، ثم احتاج إلى أن اقترض دنانير واسترهنه الدار

إلى أجل معلوم ، فلما حان الأجل ولم يجد المال طالبه بالخروج من الدار ، واتصل ذلك بالأستاذ فرفع الخبر إلى مولانا عليه السلام ، فصرف إليه الجواب ، وهو :

« والله ياجوذر ! لقد كثر تعجبنا منه ، وذلك أن عليا أوقفنا على الصك المكتوب عليه منذ يومين ، فقد جاءنا من ذلك خلاف ما كنا نظن به الرجاحة والكمال ، وإنه لحقوق بما ناله وأضعافه إذ أقام نفسه مقام من يحمل ذمامه بيد من لا رحمة له . فإن كان إنما ذهب فى طى هذا عنا مذهب التخفيف عنا فى المسألة فمن الواجب كان عليه أن يتصور ما هو فيه ، وأن الذى كلفنا الآن أعظم من سؤال الفضل (إذ كنا لانبخل عليه[1]) بأضعاف هذا المال الملعون ولا يقيم نفسه مقام الشماتة لئلا يتصل بالقريب والبعيد أن ولينا وابن[2] أجل أوليائنا المسعود برضى الله ورضى مواليه السابق فى الخير كل من جاراه يكون على بابنا وهو عندنا فى أجل الرضا محوجاً إلى ارتهان مسكنه الذى يجاورنا فيه ، ولو كان أحسن مسكن ، هذه ورطة نحن نخرجه ونقذه منها ، فلا يعد إلى مثلها فتسلمه إلى حوله وقوته ، فقرر عنده ذلك إن شاء الله [١٣١] » .

٦٧ — وكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه يذكر أن مركبه عطب ويسأل مولانا الإنعام عليه بأحد مركبين قد اشتريا لمولانا من الروم ليستعين به على حمل نقله فى البحر إلى المشرق ، ويذكر أن الذى دعاه إلى ذلك عدم المشترى وأنه محتشم فى سؤاله ، فصرف إليه الجواب ، وهو :

« ياجوذر ! سلمك الله ، مانحسب مالنا إلا مالك ، فقد وهبك الله من رضانا وممازجة أنفسنا مالو علمنا أن مالك ليس إلا ما فى يديك من نعمتنا مارضينا لك بأضعافها كما فعلنا بمن دونك ، ولكنا

---

(١) ب : أفكنا نبخل عليه (٢) ف : وأباه

تعلم أن مالك أكثر من أموالهم وجاهك أوسع من جاههم بما وهبك الله من رضانا الذى يكمله لك بنعيم الآخرة، فخذ أى المراكب شئت ، بارك الله لك فيه ، وعرفك بركته . وحاجتك التى سألتها تصل إليك فقد حصل لك والله كل ماتحبه فى دينك ودنياك بما مكنه الله لك عندنا ، فثق بالله ، واشكر يزدك من فضله وإحسانه ، ونحن نعجل نجاح طلبتك ، إن شاء الله »

٦٨ — وتوفى الحسن بن على رضى الله عنه ولم يزل مولانا صلوات الله عليه يترحم عليه ويثنى بالجميل فيه كلما جرى ذكره . ولقد ذكره يوما فأطنب فيه ووصف سعيه وبذل نفسه فى ذات الله ، وكان الأستاذ حاضرا لذلك فلما انصرف من ذلك المجلس ورد كتاب أحمد بن الحسن من صقلية يصف عظيم مصابه بأبيه وماصار إليه حال البلد من الاضطراب للفجيعة التى دهمتهم لفقده ، ثم إنه قام فى الناس وعرفهم أن كل رزية قليلة فى طول بقاء أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فسكن أمر الناس وأخذ هو بالحزم فى جميع أموره حتى كأنه لم يرزأ بشىء ، ويسأل الأستاذ فى الدعاء لأمير المؤمنين وشكره على ماتفضل به . فرفع الأستاذ ذلك إلى مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه فخرج إليه الجواب وهو :

« ياجوذر ! أحسن الله إليك فى دينك ودنياك ، وقفنا على كتاب أحمد وأعدناه إليك ، فاصرف إليه الجواب بما يقوى نفسه وحسن رأيه فيما فعل من الصبر ونفى الحزن ، وعرفه مالجميعهم عندنا من الجميل فوالله لاسلبهم الله نعمتهم فيها ماأبقاهم ، ورحم الله حسنا ورضى عنه وأرضاه ، فلقد كان مسعودا فى مماته ومحياه، ولئن أوحشنا فقده فقد آنسنا وسلا وجدنا به يقيننا بما أصاره الله إليه من حسن الثواب وكريم المآب ، ختم الله لمن أطاعنا وصفت نيته لنا من السعادة بمثل ماختم له . وإن فى محمد وأحمد لخلف منه وزيادة . بارك الله لنا

فيهما . وقد علمت أن حسنا لم ينل ماناله هؤلاء فى أيامنا حتى أفنى عمره فى طلب رضانا ، فأبقى لذريته من العز والشرف ما أيسره يفى بعظيم ما كان هو قد ناله منا . والله يعينهم على تشييد البنيان على ما أسسه والدهم حتى تبلغهم آمالنا فيهم بحول الله وقوته إن شاء الله [١٣٢] » .

٦٩ — ولما تطاول العال إلى الزيادة على جعفر بن على فى عمله ، وكان مستكفيا بلا عقد حسب ماتقدم به رسمهم ، كتب الأستاذ بذلك رقعه إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول فيها :

« يامولاى ، صلى الله عليك ، هذا بلد كثر القول فيه وتطاول المتقبلون(١) إليه فالواجب عقده على من طلبه ، ولا يذهب مال مولانا خسارة ، وفى على حسن نظره لجعفر مايعيش به ويستر بقية عمره » .

٧٠ — ورفع كتابا ورد من جعفر يصف دخل البلد وأنه ينصرف وتافه يسير بالإضافة إلى ماأعطى فيه من الزيادة . فلما وقف مولانا صلى الله عليه ذلك صرف الجواب وهو :

« ياجوذر ! وقفنا على كتاب جعفر ، والله ما أدرى ما أقول فى ذلك ، لكن محلك من أنفسنا وموضعك من رضانا يمنعنا أن نطوى عنك ماعندنا سرا وجهرا . وجعفر فقد علم الله رغبتنا فى إصلاح أموره وإجرائها على السداد وبقاء النعمة عليه وعنده ، واحدة : من أجلك وأنه منسوب إليك . وثانية : لأبيه وموضعه من رضاء مواليه ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وثالثة : لنفسه فقد أشدنا بذكره ورفعنا من رتبته . وما نَعُدُّ [ما](٢) عند ولينا وعدونا

---

(١) فى النسختين : المتقلبون (بالقاف) ، وأقرب قراءة هى إبدال القاف غينا وأن نقرأ « المتغلبون » بمعنى أصحاب الأطراف . والسياق يدل على أن المقصود هم المتقبلون الذين يضمنون الضرائب .

(٢) سقطت فى النسختين فتعذر فهم المعنى وفطنا إلى ضرورة إضافتها .

بحال عامل من العمال ، بل بحال مالكه بفضل الله وفضلنا . والبلد الذى هو به فوالله الذى لا إله إلا هو لقد بذل لنا فيه جماعة من الأولياء والعبيد سبعين ألف دينار فى السنة وأقل وأكثر ، فرفضنا أقوالهم ولم نغير نعمتنا عنده ضناً منا به بأنه بقى بدون ذلك . فلو علمنا أن مقدار دخل البلد على ماذكره فى كتابه ثم سألناه عنه وحاسبناه عليه فلا جعل الله لنا رزقا غيره . فوالله إنما المستقل ذلك له صلة لموضعه من الدولة . ولكن اكتب إليه ونبهه وهزه فى ذلك لتستخرج ماعنده وتعرفنا به إن شاء الله » .

٧١ — فلما وقف الأستاذ على هذا الجواب ضاق ذَرْعاً وضجر وقال : إذا كان البلد وسم[1] بهذا المال العظيم واحتاج مولانا صلوات الله عليه أن يقول « إنما تركت ذلك لك ، فأى دين يصح لى إذا أنا أعنت ورضيت بهذه الحال » . وكتب رقعة بليغة وهى بعد الدعاء :

« أما ما أمر به مولانا صلوات الله عليه من مكاتبة جعفر بما أشار إليه عليه السلام فعبده يأتى من ذلك بما يرجو أنه يقع بموافقة أمير المؤمنين إن شاء الله . ولكن الذى أذهل عقل عبد مولانا أنه إنما ترك مثل هذا المال لجعفر فى هذا البلد لجاه عبده ، وما زال مولانا صلى الله عليه وآله واسع الفضل ، قديم الإحسان على عبده وجماعة أوليائه وعبيده دينا ودنيا ، ولو رام مملوكه أن يشكر جزءا مما أنعم به على عبيده ما بلغ إلى بعض الواجب عليه من ذلك ، فأما أن مملوك مولانا يرضى أن يذهب لمولانا جزء من هذا المال بجاهه فهو يعوذ بالله من ذلك ، فليعزله مولانا اليوم عن البلد إن أحب ذلك ، وعبده الحامد الشاكر لذلك مابقى فى الدنيا ، فليس فائدة عنده إلا فيما حصل فى بيت مولاه » .

---

(١) لعلها « رسم » جريا على الاصطلاح المستعمل فى أول الوثيقة السابقة .

فلما وقف مولانا صلى الله عليه، على ذلك صرف إليه الجواب. وهذه نسخته:

« ياجوذر! وقفنا على ما ذكرته وما رأينا أعجب منك، إنك لا تريد مايقيم جاهك بنقص حبة من أموالنا، وهذه إرادة ما تكاد تتفق فى الدنيا لأن الفضل إنما يعد فضلا إذا عافى المتفضل عن واجب وأغضى عن ممكن، فأما سوى ذلك فهو إنصاف ومجازاة. ووالله، ما نشك فى آمالنا عندك وإرادتك لكل ما أرضانا، كما لا نشك فى ذلك من أنفسنا، ولعلمنا به عنك مكن الله لك فى أنفسنا من الرضا والقبول ما أنت أهله. والذى أشرت فى جعفر من عزله فهو غاية أمل حاسديه ونهاية شهوتهم متى فعلنا، لكننا نؤثر الصبر ونحمل على أنفسنا من حيث لا نغير نعمة أنعمنا بها على أوليائنا وعبيدنا، فلو طالبوا أنفسهم لنا بمثل ما نطالب به أنفسنا لهم لكانوا السعداء فى الدنيا والآخرة، وحسبنا الله ونعم الوكيل ».

٧٢ — وكانت عناية الأستاذ بجعفر بن على وحسن بن على بن أبى الحسين على ماقدمنا ذكره، وكان مكانهما من الدولة من حيث لا يخفى على أحد لسابقة أبيهما وجهادهما، وكثر القول فى كثرة عناية الأستاذ بهما حتى قال القائل إن الحسن بن على يتعبد جوذر وأنه لا يجوز إلى قصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه حتى يدخل إليه، ومثل هذا القول. وكان الأستاذ فرقاً من قول قائل، شديد الحذر والتوقى حريصا على خمول الذكر، فلما اتصل به ذلك كتب إلى أمير المؤمنين يصف اغتمامه من تلك الشنع ويقول « إنما هو رجل صقلبى أعجمى لاقرابة له ولا أولاد، وإنه إنما صحب هذين الرجلين بأمر القائم بأمر الله صلوات الله عليه أيام غيبة أبيهما إذ صرف فيما صرف فيه من الجهاد وأنه إذ أطاق فيه وإياهما ما أطاق من القول فعبده يرغب إليه فى البراءة منهما جميعا، ونحو هذا من القول »:

فلما قرأ أمير المؤمنين صلوات الله عليه رقعته صرف إليه الجواب :

« ياجوذر ! سلمك الله تعالى وأحسن إليك دينا ودنيا . وقفنا على رقعتك ، وبالله الذى لا إله إلاهو ماحالك عندنا حال من نظن به ما تخوفته لأنك غير حديث الصحبة لنا فتكشف لنا الأيام من أحوالك ماغاب عنا قديما ، ولا جئناك من المهدية لنغمك ونخلى ذلك الموضع من مثلك مع ثقل وطأتك على من يبغى لنا دائرة السوء التى يردها الله برءوسهم ، ولا أردنا بتقريبك منا إلا ماعاد بمسرتك مدة باقى عمرك ، ولكن من توفيق الله لك أنك تظن بنفسك مايظنه عدوك بك ، ومن اتقى سلم ، وما دل امرؤ قط على من دونه إلا أهلكته تلك الدالة ، فكيف من هو فوقه . فأما ماذكرته من أمر جعفر فحالك مع والده حال أحسب أنى أعلم بها منك ، فرضى الله عن على وأرضاه ، وأصلح لنا جعفرا على ما نحبه ونهواه وأبدله برأيه الفاسد ما هو أعود عليه نفعا ، فقد علم الله أنا نجد به كما يجد المرء بالولد السوء . فأما على أنا نحتسب عليك فى مواصلته فمعاذ الله والشهر الحرام لأنك إن لم تواصل هلك مع سوء رأيه . وأنت والله فالذى لايتخالجنا فيه شك فى صحة ضميره وجميل مالنا فى صدره . وأما ماننكره من أحوال جعفر وغيره فالذى نريده من صلاح الجميع وإقامة حجة الله كما كلفنا ، فمن أبصر رشده وسارع إلى محبوبنا انتفع وسعد ، ومن عمى وضل غوى ، ولو علم فضل التأديب شكر عليه وأقلع عما أنكرناه من فعله وأسقط يقينه وما عند ظننا ، فكيف به أن يتمسك بظنه مع يقيننا . وأما حسن وما ذكرته من حاله وما يقال فيه فوالله لقد سمعنا من ذلك ضروبا لكنه لم يشق لنا سمعا ولا علق لنا بنفس إذ كنتما لو اجتمعتما أو اختلفتما لم يكن اليقين فيكما ينصرف إلى غيره . ولم يتخالجنا الشك فى أن اجتماعكما

ليس إلا لما يعود علينا بالفائدة وتألف قلوب الأولياء . قال الله عز وجل « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم [١٢٣] » بالصواب ما ألهمكاه الله من ذلك . فمن اتقى فاز ، ومن اتقى أولياء الله فقد وفاهم حقهم . ومن اتقى أوليـــاء الطاغوت فقد سلم منهم . وما فى صحبة من ذكرت ما يشينك ، ولا يدخل عليك نقصا بحمد الله فتماد لهم على ما أنت عليه ، فلو أنكرت منك أصغر صغيرة لنهيتك عنها وأرشدتك إلى الصواب . ولكن الذى هيأه الله لك من التمسك بما يرضى مواليك من فعلك قديما وحديثا هى حال يجب عليك حمد الله عليها وشكره بغاية وسعك ومنتهى استطاعتك . فوالله ما فوق حالك عندنا إلا نيل ما ترجوه من رحمة الله التى لها سعيت وإياها ابتغيت . أنالك الله منها أجزلها بعد مشاهدتك معنا بلوغ الأمل من إنجاز ما وعد الله لنا وإظهار أمرنا على رغم الراغمين بمنّة الله رب العالمين » .

٧٣ — وكان الأستاذ وقعت بينه وبين محمد بن حسن وحشة كان أصلها المداعبة إلى أن صارت مهاجرة . وكان يتصل به عن أخيه أبى الفتوح موسى ابن حسن أنه هو الذى يحمل أخاه على إطلاق القول فى الأستاذ ويسعى بينهم بما أوجب المنافرة واعتزم الأستاذ على مصارمة الجميع من بنى أبى الحسين وقطع مكاتبه أحمد بصقلية على أنه كان اتكاله على الأستاذ بمكاتباته وجميع أسبابه ، فكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه يذكر ما جرى وما حل به وما اعتزم عليه . فلما قرأها مولانا صلوات الله عليه صرف إليه الجواب وهو :

« ياجوذر ! سلمك الله وأحسن إليك وأتم نعمته عليك . وقفنا على جميع ما ذكرته فى رقعتك ولا والله الذى لا إله إلا هو ما سمعنا بشىء من هذا إلا منك ، ولا نشك أن فى الأنفس بعض ما فيها مذ

دار بين جعفر بن على وموسى بن حسن مادار . فأما على أنه ظهر لنا غير ذلك فلا والله العظيم . وأما ماذكرته من مزاحك معهم فما كان يجب أن يكون منه فى ذلك ما كان . ومظاهرتك بمقاطعتهم تجعل لهذا خيرا لم يجعله الله . وأكثر الناس اليوم فإنما محبوبهم الجرى بالسعايات والنمائم بما لم يكن فكيف إذا كان بعض الأصول . وأنت فقادر أن تأتى بما تحبه من غير أن يظهر ذلك لأحد من العالمين . وأحمد فلا تقطعه فتظلمه ، وربما أوجع الانسان بعض أعضائه أفيقطعها ؟ والدنيا من هذا وأمثاله على حال لم تزل ولا تزال[1] متقابلة الأضداد تعقب الصحة بالسقم والحياة بالموت وما يكدر اليوم يصفو غدا . فاعمل على صيانة نفسك عما يجب لمثلك أن يصون نفسه عنه والتبذل حيث يجب عليك بفضل الله من هيبة عزنا مايسرك فى كل ماتحبه من جد وهزل . فاطو مافى نفسك لئلا يظهر لمن يجعل معه منه حديثا ومثلا . فقد سلف بينك وبين سلفهم مالا يفككك منهم ولا يفككهم منك شىء . وقد علمت أنه إذ رشقتهم سهام أعدائهم فى حين كادوا يتلفون بسخط إمامهم عليهم حتى تطارحتَ علينا وتطارحْنَا على المنصور بالله صلوات الله عليه فكان منه فى أمرهم ما هو أهله . فمن لم تقاطعه فى ذلك الوقت يجب ألا تقاطعه اليوم مع ماوسمناهم به من فضلنا ورضانا . ولعلهم أن يبقوا خطهم ويعودوا إلى ما هو أولى بهم . والمرء على ستر ما لم يبده أقدر منه على ذلك إذا أبداه . ونحن فلا والله لا أسمعونا هم ولا غيرهم (منه[2]) شيئا مما ذكرته لنا . لكنا نعمل على حسم ما يظهر منه بما يمكن إن شاء الله » .

---

(١) فى النسختين : لا تزول

(٢) هكذا فى النسختين والسياق يقتضى حذف هذه الكلمة (منه)

٧٤ — وكانت المكاتبة تجرى بين الأستاذ وجوهر بعد أن صار بمصر فكتب جوهر للأستاذ : «أطال الله بقاءه وأدام عزه من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين» ، وكان رسم الأستاذ فى مكاتباته إلى جميع الناس : «من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان» . فلما تقرر عند الأستاذ أن مولانا لقب جوهرا بمولى أمير المؤمنين لم يكتب بذلك هو فى كتبه بل تمادى على رسمه الأول فتوقع الأستاذ أن يكون قد وقع فى نفسه شىء من ذلك فكتب لأمير المؤمنين رقعة بصورة الخبر ويسأله كيف يكتب اليه فوقع مولانا صلوات الله عليه :

«يا جوذر ! ما زال بك التوفيق والسعادة مذ كنت ولا يزايلانك ما بقيت حتى يختم الله لك بالسعادة الدائمة والنعيم المقيم بحول الله وقوته ومنه وسعة فضله . فاكتب اليه : «من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى أخيه جوهر مولى أمير المؤمنين» . ففى ذلك تشريف لا أعدم الله ذوى نصيحتنا السعادة فى الدنيا منه . فقد آخينا بينكما كما آخى جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه» .

٧٥ — وكان الأستاذ قد كتب كتاباً إلى أبى القاسم على بن الحسن بن على والى صقلية يقول له إنه إن عجز عن شحنة مركبه شىء فليتمه من مال أمير المؤمنين ويعرفه بمبلغ ذلك حتى ينزله فى بيت المال بالمنصورية المباركة فورد كتابه يذكر أن المركب لم يبق عليه من شحنة إلا بمائة دينار وأنه دفعهما إلى الوكيل من الذى ذكر . فكتب الأستاذ إلى أمير المؤمنين يعرفه بذلك وأنه ينزل مائة دينار عند صاحب بيت المال فوقع اليه صلوات الله عليه :

«ياجوذر ! سلمك الله . مالك هو مالنا . ومالنا هو مالك . وأنت والله أحوط على أموالنا منا عليها ، ولو حطناها حياطتك لما شرب منها أحد الماء فضلا عن غيره . وهذه الدنانير فأنت أحق بها بارك الله لك فيها وفى كل ماخولناك من فضلنا وأسعدك به من

من رضائنا فى الدنيا والآخرة ».

٧٦ — وتخلف الأستاذ من علته تلك أياما، فزاره الأمير عبدالله قدس الله روحه . فلما انصرف عنه كتب رقعة إلى أمير المؤمنين يصف فيها عظيم نعم الله عنده بما شرفه به ولى عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين من زيارته إياه وأتبعها فرشا رفيعا كان استعده مما يصلح الملوك ويرغب إلى أمير المؤمنين فى الإذن للأمير بقبوله . فلما قرأ مولانا صلوات الله عليه رقعته صرف الجواب اليه وهو :

« ياجوذر ! وهبك الله العافية وصرف لنا عنك المحذور . والله لو علمنا أنا نستطيع دفع مابك من ألم بزيارتنا إياك لما استنكفنا عن ذلك ، وما نرغب فى حياتك وسلامتك لأنها خيرتك قد أسعدك الله ووفقك للعمل بما يرضيه ويرضى أولياءه . فلك الخير فى أمورك كلها ، ولكن لتشاهد معنا ما أنعم الله به علينا إذ كنت المشارك فى ذلك . فعله الله ولا أشمت بك عدوا ولا حسودا ، إنه على ما يشاء قدير . وهذا الفرش وغيره يقبله عبد الله — استودعته الله — وثمر الله مالك وزاد فى خيرك وما كنا نحب أن تكلف نفسك شيئا من ذلك ، فالذى بذلته من نصحك ومودتك أعظم مما تتقرب به من مالك ، سلمك الله وعافاك من المكروه كله بفضله ورحمته إنه جواد كريم ».

٧٧ — واتصل بمولانا صلو الله عليه أن مركبا للأستاذ عطبت فى قدومه من صقلية مشحونا بحمله فكتب اليه مولانا صلوات الله عليه مبتديا على سبيل التوجع له رقعة وهى :

« ياجوذر ! بلغنا ماكان من أمر الله فى عطب مركبك وعافاك الله من كل محنة تمتحن بها فى مالك وعافاك الله فى نفسك حتى تبلغ

معنا أملاك من إعزازنا إياك دينا ودنيا وتشهد معنا ما خولناه الله من ديار الظالمين الذين اشتروا الضلالة بالهدى وتحج بيت الله الحرام وتزور قبر جدنا محمد صلى الله عليه فتكون قد شاهدت الحج ظاهراً وباطناً بحول الله وقوته . »

٧٨ — ورفع الأستاذ إلى أمير المؤمنين رقعة يعرفه إن أحمد بن محمد الطلاس سأله فى دار كانت بجوار دار البحر ليجعلها مخزناً لما يحتاج إلى خزنه من حوائج المراكب . وقد كان مولانا عليه السلام منع الجميع من دخول دار البحر ولم يطلق ذلك إلا لنصير وحده إذ كان خليفة الأستاذ فى موضعه فصرف الجواب مولانا صلوات الله عليه اليه وهو :

« دع الدار فى يدك على ماهى عليه ولا يكن لهذا ولا لغيره يد فيها ولا رجل ، فبقاء الدار فى يدك قطع لطمع من يطمع فيها ، وما كان عندك وفى ملكك فهو كما هو فى نظرك للذى أنت عليه من الجميل والنية ووكيد الحياطة مما لا يستزاد فيه ، والله يجازيك عليه بفضله وواسع رحمته إن شاء الله .

٧٩ — وكتب رقعة إلى مولانا يذكر ما يلزمه من العناية بمخلفى الحسن ابن على وأن والدته لا مسكن لها وأنها ترغب فى ابتياع دار بالقرب من قصر أمير المؤمنين لما فى ذلك من البركة فأجابه مولانا صلى الله عليه :

« يا جوذر ! لقد أكمل الله لحسن بن على رضى الله عنه من نعمه ظاهراً وباطناً ما لو تصور له فى حياته لاشتهى تعجيل وفاته ، زاده الله من مغفرته ورضوانه . وحال ولده وأهله من أنفسنا بحيث — والله — لا يستكثر لهم بذل العظيم من نعم الله عندنا . وخير من حُفظ من أجل رضانا محله إذ ذلك من أنفسنا ورضائنا به أجل موضع . وقد علم الله ما نؤثر من سلامتك وبقاء نعم الله عندك

فازدد شكراً يزدك الله خيراً وسعادة . وأما والدة حسن رضى الله عنه وما سألت فيه فوالله لو سألت أن نسكنها فى قصرنا لكان سهلا قريباً فكيف ما سألت فيه فإنها تستوجب أحد الدارين أيهما أرضاها . وعرفنا بمبلغ الثمن لنخرجه اليك إن شاء الله » .

٨٠ — وكتب رقعة إلى مولانا يعرفه أن الحسن بن عمار سأله فى تنجز وعد مولانا عليه السلام فى الفضل الذى وعده به قبل انتقاله إلى الدار التى بناها له فأجابه مولانا صلوات الله عليه :

« ياجوذر : ابن عمار نفعه الله بنية والده وعمه رضى الله عنهما ما ظننا والله أنه يفلح مع تدلله على عمه حتى أراد الله سعادته بما وفقه له من حمل الفضل ومحمود القيام فى هذه الوقعة بالمشركين . ونحن نبعث إليك ماتوصله من فضلنا ، وينتقل متى أحب بعد وصول فضلنا إليه . وننظر له فيما ذكرت فالذى خوله الله من رضانا خير له مما طلعت عليه الشمس لو كان له. ولن يعدم معنا خيرا إن شاء الله » .

٨١ — وكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه يرغب إليه فى ثوب من ثيابه ليكون له كفنا إذا مات ليتبرك بذلك . فلما وقف عليه السلام على رقعته فعل ماهو أهله وأخرج إليه ثياباً كثيرة ، وترك الجواب موقعاً على ظهر رقعته :

« ياجوذر ! أسأل الله أن يهبك من رضاه أجزله ويبلغك من ذلك فوق أملك . بعثنا إليك بخلعة من لباسنا وما استخدمناه فى طاعة الله ، وهى مبطنة مروى وقميص تحتها . وبعثنا إليك من ثياب لباس المهدى بالله صلوات الله عليه مبطنة مصمت فاختى وقميصاً من أقمصته . وبعثنا إليك من ثياب لباس القائم بأمر الله صلوات الله عليه قميصين وسراويل وعمامة وتكة أرمنى بيضاء ، كل ذلك مما استخدمه صلوات الله عليه . وبعثنا من لباس المنصور بالله صلوات

الله عليه جبة مروى وقميصاً من تحتها . فاقبض ذلك مباركا لك فيه ، واحتفظ بهـا عندك إلى الوقت الذى ذكرت بعد أن يطول الله عمرك حتى تشاهد معنا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر جدنا محمد عليه السلام وتقر عينا بنعم الله على أوليائه إن شاء الله » .

٨٢ — وقد تقدم ذكرنا فى كتابنا هذا ما كان من إكرام القائم بأمر الله صلوات الله عليه وتشريفه للأستاذ بإفراده واختصاصه بأخذ العهـد عليه للمنصور بالله صلوات الله عليه وأن الأستاذ كتم ذلك سبع سنين ثم فعل به ذلك الإمام المعز لدين الله صلوات الله عليه بأن أخذ عليه للأمير عبد الله مفردا بالمهـدية فى السفرة التى حمل المـال فيها[1] فكتم الأستاذ ذلك عنه حسب ما أمر به سبعة أشهر ، ثم إن مولانا صلوات الله عليـه أخذ بعد سبعة أشهر ، على غيره مثل محمد بن على ومحمد بن الحسن وعسلوج وغيرهم ، واستكتمهم ذلك . وكان الأستاذ إذا تقرر عنده علم ولى العهـد لم يلتفت بعد الإمام إلا إليه حتى كان يقول فى كثير من الأوقات من حيث يسمعه الإمام فى عصره : « إنمـا هو الله عز وجل ومولانا المفترض الطاعة ومن أشار إليه من ولده وجعله ولى عهده والباقى لهم المودة فى القربى لا غيرها» فلما خرج مولانا عليه السلام إلى المهدية لشد ما بالخزائن من الأمتعـة ثم رجع مولانا عليه السلام إلى دار ملكه واحتاج الأستاذ أن يتحرك من المهدية أمر مولانا صلوات الله عليه أولاده وإخوته بالخروج للقائه وجميع رجال الدولة ، ولم يحدّ مولانا عليه السلام للأستاذ كيف يسلم على الأمراء أولاده ولا من يقـدم ولا من يؤخر ، وكان مولانا عليه السلام مشغول الضمير فى كيف يكون سلامه عليهم وكانت أعين العوام ذلك الوقت تنظر إلى ولد مولانا عليه السلام الأكبر وهو تميم ، فلما قرب منهم الأستاذ عمل فى نفسه على إقامة الحق وإفراد من خصه الله به ، فقصد الأمير عبد الله صلوات الله

---

(١) انظر ه ١ ص ١٠٨ التوقيع ٧٥

عليه فقبل الأرض بين يديه ثم قبل ركابه . وكان من حق الأمير عليه ما كاد أن يسقطه عن سرجه ثم ركب فلم يلتفت إلى غيره ولا سلم على أحد سواه ، فوقعت على قلوب أولئك خجلة ، ونظر الناس من هذا إلى أمر عظيم ، فمنهم من يصوب رأيه فيما فعله ومنهم من يخطئه ، فلما اتصل بمولانا عليه السلام فعله وما كان منه من ذلك سر سرورا عظيما وقال :

« لم يزل جوذر موفقا مذ كان » .

ثم لما وصلوا وانصرف الأستاذ بعد السلام على مولانا عليه السلام ولم يخاطبه على ذلك اشتد ذلك على أهل القصر من الحرم وأومأوا إلى جوذر بلوائم عظيمة تنبو بها جدوده . ولما وقف الأستاذ على ذلك من فعلهم أدركته نفسه إذ لم يخاطبه مولانا عليه السلام على ذلك بشيء ، فكتب رقعة إلى مولانا صلوات الله عليه يصف ما كان وأنه قصد بذلك إفراد صاحب الحق دون غيره إذ لا يسعه فى دينه غير ما فعله ويصف ما حل عليه من أهل القصر وغيرهم من أصحاب الآراء الفاسدة ، فلما وقف مولانا صلى الله على رقعته صرف إليه الجواب ، وهذه نسخته :

« يا جوذر ! سلمك الله ، والله ما محالك عندنا إلا المحل الذى أحللت نفسك لاتباعك رضى مواليك ولأنك لم تخالط بهم غيرهم ، وبذلك أسعدك الله فى دنياك وأخراك ، وقد كان لك فى تقبيل أيديهم كفاية عن تقبيل الأرض ، فما نميزك علم الله منهم إلا بما يخص الله به من اختصه منهم . وقد أجبت من ذكرت عليه واعتذرت أنا عنك بأنك قد سلمت على الجميع أولا بما وصفت من تقبيلك الأرض وقد وفقك الله فما تبالى من ساءه أو سره . أتم الله عليك النعم ووهب لك السلامة والعافية إن شاء الله » .

٨٣ — وورد كتاب من قبل جعفر بن على بن حمدون هو جواب عن الكتاب النافذ إليه من الأستاذ فى تحريكه على جمع الأموال وضمها من

قريب وبعيد ليجد من ذلك مايتقرب به إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الظاهرين ويحرضه على ذلك وينصح له ويذكره بما توجب النصيحة وبذل المجهود لأولياء الله من البركة فى العاجل والآجل ويعرفه مبلغ ما بذل فى البلد من المال وأن أمير المؤمنين لم يقبل ذلك إبقاء للنعمة عليهم ورجاء أن يكون من نصيحتهم ما يعود عليهم بالنفع عليهم فى الدنيا والآخرة . ووصف جعفر فى كتابه أن المتكلم فى ذلك إنما تكلم من عين الحسد ، وأن البلد لا يفى بما ذكر . ولكنه يبذل مجهوده ويستفرغ وسعه وطاقته. فلما وقف مولانا عليه السلام على ذلك صرف الجواب إليه، وهو :

« ياجوذر ! صانك الله . وقفنا على ماذكره جعفر فى كتابه إليك ومثل ذلك فى كتابه إلينا . فاكتب إليه جميل نظرنا إليه وحفظنا له ، إن الواجب على من كان فى مثل حاله أن يقابل النعم بالشكر ويجتهد فيما يعلم أنه يرتهنها به من سعى محمود أو آثار مرضية . وهو إذا قصد تلك استوجب به القبول ، وهو يعلم أن والده رضى الله عنه إنما عظمت حاله وذكرت آثاره ورضى عنه مواليه بما ظهر من سعيه فى هذا البلد ومحمود قيامه . وقد كان أهله إذ ذاك أعظم غلظة وأكثر سفها وحمقا فأذلهم الله بمحمود سياسته . وكان مع ذلك له من ثمرات النية الصالحة ماقد لقيه فى عاجل أمره وآجله . ولئن حل من مواليه صلوات الله عليهم فوالله ما أنالوه ساعة من ساعات جعفر عندنا وفى أيامنا ولا اتسع من جاه ولده معنا . والله، إن باطننا فى الإحسان إليه أوكد من ظاهرنا . فلا يدع عليه حجة نسائله عنها ونطلبه بها من تقصير وتفريط ولا يجعل سلم والده الذى ارتقى به إلى إرضانا وأبقاه له بعده سلمه هو إلى الانحطاط . ولا يكون ذلك، بفضل الله علينا وإحسانه إلينا وإلى كافة من دان بطاعتنا إن شاء الله تعالى » .

٨٤ — ولما اعتزم مولانا عليه السلام على الحركة إلى المشرق وجرت

بين الأستاذ وبين الأمير عبد الله قدس الله روحه مكاتبات كان يؤثر فيها حقه حسب فعل آبائه الطاهرين . وكان أول كتاب : كتب إليه الأستاذ بكتاب يذكر فيه رسمه من البغال التى كان يحمل عليها أثقاله فى الأسفار مع مولانا صلوات الله عليه . فصرف إليه الجواب بدعاء وهو :

«سلمك الله وأتم نعمته عليك ، وزاد فى امتنانه عندك ، وبلغك من رضى وليه مولانا وسيدنا صلوات الله عليه أملك وأملنا لك عنده وفضله ورزقك الحج معه إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر جدنا محمد عليه السلام إنه كريم منان عظيم الفضل والإحسان . أما بعد فإنه انتهى إلينا كتابك بعد تطلع وشوق شديد — يعلم الله — منا إليك . ووقفنا منه على ما حمدنا الله عز وجل وشكرناه على امتنانه علينا بسلامتك وصحة بدنك وسألناه ضارعين إليه راغبين فى الزيادة لك من فضله وإحسانه . وقد عرضنا كتابك على مولانا وسيدنا صلوات الله عليه : فلما وقف عليه وقع إليك بخط يده المباركة الكريمة فى أسفله بما أنت تقف عليه فقد أنفذناه إليك . وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

ووصل الكتاب وفى أسفله توقيع هذه نسخته :

« يا جوذر ! سلمك الله ، أقرأنا عبد الله سلمه الله — كتابك وسؤالك إياه التذكرة فى أمر البغال التى تقدم لك الرسم بأخذها من الاصطبل وتخوفت ألا يكون لكثرة انشغالنا وما بنا من الحاجة إليها فلا أوقف الله إليك يوما نسلمك إلى نفسك فى أحوال دينك ودنياك . فوالله ، لو لم يكن إلا ما نؤثرك به على أنفسنا لفعلنا ذلك ولم نتأخر عنه . فطب نفسا بما خولك الله ووهبك من رضانا — أدامه الله لك » .

٨٥ — وخرج مولانا — صلوات الله عليه — متوجها إلى المشرق —

فأطاق له البغال التى للأحمال وبغال العماريات أيضا ، منها واحدة كان يركبها هو بنفسه آثره – صلى الله عليه – بهـا ، وفعل فيه وفى أصحابه من الجميل وسعه العطايا مالا يوصف . وجرت بعد ذلك مكاتبات فى الطريق لو ذهبنا أن نذكر جميعها لطال الكتاب بذكرها ، إلا أنه لمـــا وصل إلى موضع يعرف بأجدابية وقد حكمت عليه العلة قال لى : « لقد اشتقت إلى النظر إلى وجه مولانا – عليه السلام – وأرانى ضعيفا ولا أقدر أثبت على قدمى لترهل عرض لى فيهما ، فكيف الحيلة عندك فى ذلك ؟ » فسألته التقدم قبله والاجتماع بالأمير عبد الله ولى عهد المسلمين - صلوات الله عليه - فى ذلك ، فأذن لى ، فمضيت واجتمعت به - عليه السلام - ووصفت حاله وعظيم شوقه إلى مولانا - صلوات الله عليه - . فعرف مولانا . ورجع إلى بالجواب . وقال لى : « يأمرك مولانا - صلى الله عليه – أن تقدم به إلى هذا الموضع» وأشار إلى الحقبة التى كان يتغدى فيها بالفازه [1] المباركة ثم قال :

« وقف به وهو فى العمارية ، لاتنزله منها » .

وحذرنى من إنزاله وخوفنى عقوبة مولانا عليه السلام فى ذلك . فرجعت إلى الأستاذ وعرفته بما كان ، ففرح لذلك وقويت نفسه . ثم وصلت إلى الموضع الذى رسم لى . فلما حل به قال لى : « أنزلنى » فاعتذرت اليه أن الموضع الذى يريده ذو غلق وسبيلنا أن نقف بالعمارية حتى يفتح الموضع . فقبل ذلك منى . ووقفت العمارية على بغلة وهو جالس فيها . فما شعر نابشىء حتى خرج مولانا المعز لدين الله – أمير المؤمنين صلوات الله عليه – وعليه عمامة وهو منتعل ، فأدخل نفسه – صلوات الله عليه – فى جوف العمارية ، وضمه إلى نفسه ضم الأخ للأخ والصديق للصديق . فنظر إلى الأستاذ عند ذلك نظر من أنكر علىّ تركه فى العمارية . فقال له عليه السلام:

« لا سبيل عليه ، فبأمرنا » .

(ه) [1] الفازة مظلة بعمودين

ثم أقبل عليه السلام على الأستاذ وسأله عن حاله وقال :

« لا تضعف نفساً ، فإن الله يمد فى عمرك وينسىء فى أجلك حتى تشاهد معنا فضل الله الذى خولناه من ديار الظالمين » .

فقال له الأستاذ : « يامولاى ، والله ، ما لعبدك حال يستوجب بها ما فعلته فيه لأنى عبد حلبى (١) أعجمى لا خصلة لى أمت بها إلا أنى عبدكم المستضىء بنور هدايتكم » . فقال له :

« لا تفعل ياجوذر ، إن الله — عز وجل — قد فرض طاعتنا فجعلها رغبة ورهبة . فأنت ممن أطاع الله فينا رغبة لا رهبة . ونسيت كل إنسان وتمتعه فى داره من الصقالبة الذين كانوا معك فى أعصار مواليك الأئمة الطاهرين ورضاك أنت بالسكون فى ذلك البيت الذى كان يقرب من الخلاء بقصر مولاك الإمام القائم بأمر الله لم تختر ما اختاره غيرك من نعم الدنيا ، لكن أراد الله بك السعادة أولا وآخراً » .

ثم نظر إلى محمد بن عثمان الكاتب ، وكان واقفاً معنا ، وأشار بقود الدابة والانصراف تخفيفاً عن مولانا — صلوات الله عليه — عما كلف نفسه الكريمة من الوقوف على قدميه — صلى الله عليه — فلما رآه مولانا — عليه السلام — قال له :

« قف يامحمد ، ودعه ، فإن فى نظره إلينا راحة قلبه »

ثم قبل الأستاذ الأرض وقبلنا ، وانصرفنا . فمن ذلك اليوم ما رأى مولانا عليه السلام . وكأنها كانت وقفة الوداع .

٨٦ — ثم لما وصلنا إلى الموضع الذى يعرف بمثلية بالقرب من برقة زاد به أمر الضعف وصعوبة الأمر من العلة . ومع ذلك فكان ذهنه صحيحاً

(١) هكذا فى الأصل والمعروف أن جوذر صقلبى لا حلبى . وأكثر الظن أن التحريف تصحيف وقع فيه الناسخ .

لم يتغير عليه من عقله شيء ، دعانى فقال : « نحن ندخل برقة ، وهى بلد كبير ، وبه بعض أهل المشرق ، سيما وصول ابنا[1] نصير إلى مولانا — صلى الله عليه — فيما يقال ، واسمنا من الدولة الطاهرة كبير بإعزاز مولانا عليه السلام لنا ، والواجب أن نجمل عسكرنا بالعدة والسلاح الشاكى والزى الحسن حتى يكون دخولنا تاما بهيا . فاكتب إلى الأمير عبد الله — صلى الله عليه — تعرفه بذلك ، وتسأله سؤال مولانا عليه السلام بإنفاذ شيء من السلاح والعدة زيادة على ما عندنا ، وتعرفه أنى أحب الوصول إلى القصر المبارك بهذا الزى ، لكن لا أستطيع النزول على قدمى » ، وصعب على الأمر فيما كان من فعل مولانا — عليه السلام — بأجدابية . وأخشى أنى متى وصلت يقول من يحسدنا على فضل مولانا عليه السلام أنى إنما تعرضت بوصولى هذا ما كان من فعله ، ونحو هذا القول من الكلام . وختم الكتاب وأنفذناه مع نجاب كان معنا فكان الجواب من الأمير عبد الله — صلى الله عليه — يقول :

« سلمك الله ، وأتم نعمته عليك ، وتابع آلاءه لديك ، ومنع فقدك ، وقضى لك بالحج إلى البيت الحرام مع مولانا — عليه السلام — انتهى إلينا كتابك — سلمك الله — ووقفنا على جميعه من بعد أن وقف عليه مولانا — صلى الله عليه — وقبلنا له الأرض ، وهو يرد عليك أفضل سلام الله وأطيبه . وأمر — لا زال أمره عاليا مكرما معظما — بالكتاب إليك بتعريفك — سلمك الله — أن أمره نفذ إلى نصير الخازن ببعثه الجمال وصدرا كثيرا من السلاح لا حد له وهو يصل إليك إن شاء الله . فاعمل ، قال لك — صلى الله عليه — على الوصول إلى الحضرة المباركة أى يوم يتهيأ لك وأردت الوصول فيه ، ويكون وصولك إلى باب القصر المبارك فى عماريتك على رسم ما فعلته فى أجدابية بأحسن زى وأهبة ، ولا تأخذ على

(١) هكذا فى الأصل

نفسك فى هذا الباب فى أمر الجارية شيئاً ، فليس فيه شيء نأخذه ولا يؤخذ عليك كما قلت ، فخروجنا — قال لك عليه السلام — فى أجدابية ليس أنت كلفتناه فتأخذ فيه على نفسك أمراً . بل نحن فعلناه من ذات أنفسنا رغبة فى افتقادك ومشاهدة حالك . وهب الله لك أتم العافية وأكمل الصحة والسلامة بفضله . فاعمل ما حددناه لك . قال — صلى الله عليه — وأبشر بما رزقك الله من رضاه — عز وجل — عنك ، ورضى وليه — عليه السلام — الذى لم يجر هذا لأحد غيرك فى العصر الذى أنت فيه ، ومحقوق أنت بذلك فاحمد الله واشكره تستوجب المزيد من جميل عطائه وجزيل فضله وامتنانه . والله أسأل حراسة نعمه عندك وتتابعها لديك ومرادفة آلائه عليك بأجمل سلامة نرجوها لك وأفضل صحة نؤملها ، بمنه وفضله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وكان هذا التوقيع آخر توقيع وصل اليه من الإمام وولى عهده — عليهما أفضل السلام — ووصل نصير بالعدة اليه إلى الموضع المذكور وفرق ذلك السلاح على الرجال ، وزاد به أمر الضعف والعلة ولم يقدروا أن يصلوا به إلى القصر ، فدخل مدينة برقة إلى الدار التى أخليت له فنزل بها ، ومضيت إلى مولانا — عليه السلام — فعرفته بوصوله . فقال : كيف حاله ؟ . قلت « يا أمير المؤمنين — صلوات الله عليك — هو ضعيف جداً ، ومع هذا فهو يشتهى الموت حتى كأنه يعاين الموضع الذى يصير اليه فاشتاق نحوه » . فقال :

« إلى موضعه فى رحمته وقرب مواليه — صلوات الله عليهم أجمعين »

ثم التفت إلى من كان واقفا بين يديه ، وكان الأمير عبد الله — عليه السلام — من الوقوف واسحاق بن موسى وغيره من السودان الخدم . وكان ذلك بعد الفراغ من المائدة ، فقال :

«راح هنا ميسور الكبير ، أقول وأستغفر الله : إنه ما كان للقائم بأمر الله ذنب عند الله إلا فعل ميسور : كان يأخذ كل سفينة غصبا ويسفك الدماء ، ولما مات أصيبت له ثمانية ألف [1] دينار . وهذا جوذر المسكين ، والله إنا لنحصى ما وصل منه إلى آبائنا الطاهرين من قبل وإلينا من بعدهم تقرباً وعملا لوجه الله فيكون ذلك فوق المائة ألف دينار بلا إقطاع ولا ضياع كثيرة » .

ثم دفع إلى — صلوات الله عليه — تفاحات كانت في يده وقال لى : «أوصلها اليه وقل له : هذه وصلت إلينا من مصر ، وأرجو الله أن يحييك ويصح بدنك حتى تشاهدها معنا .»

فقبلت الأرض وانصرفت وبلغت الحكاية التي كانت منه . فقبل الأستاذ الأرض وحمد الله وأكثر من شكره ، ثم أخذ معى فى الحديث فما زال على ذلك وهو فى صحة عقله إلى آخر الليل ، فحاله على أمره . ثم أصبح به الأمر وهو لما به من النزع ، ثم قضى عند صلاة الظهر — رحمه الله ورضى عنه . وحمل فى الليل من مدينة برقة إلى القصر الذى كان به مولانا — عليه السلام — بموضع يعرف بياس . وأمر صلوات الله عليه بغسله ، وحضر لتلك القاضى النعمان بن محمد [١٣٤] ومحمد بن عثمان الكاتب وأنا ، وصلى عليه بالغدو ، ودفن بالموضع فى مسجد بهذا القصر المذكور .

ثم أسعدنى الله بخدمتى له وأدركنى من بركاته ما أوجب لى فى قلب وليه مولانا وسيدنا — قدس الله روحه وصلى عليه — الرأفة والرحمة فصيرنى مكانه مقدما على أسبابه وجميع أصحابه . وإلى الله أرغب بخالص الطلبة أن يختم لى بمثل ما ختم له ، وأن يعين على المفترض من طاعة وليه وابن نبيه وخيرته من خلقه وخالصة عباده عبد الله ووليه نزار أبى المنصور الإمام العزيز

---

(١) هكذا فى الاصل والأصح ثمانية آلاف إلا أن يكون الأصل ثمانمئة الف وهو الأرجح

بالله أمير المؤمنين صاحب العصر والزمان — صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين المنتظرين إلى يوم الدين . فمن تمام السعادة فى العاجل والآجل أن أحيانى الله — جل وعز — إلى عصره الطاهر ، فنوه باسمى وأشاد ذكرى ، فبلغه الله أمله وفتح له ، ونصره وجمع القلوب على طاعته ومحبته . وأذل أعداءه وجميع من ناوأه حيث كان وحلّ . آمين يارب العالمين .

تم الكتاب

تعليقات

[١] ص ٣٣ : لا ندرى شيئاً عن حياة رشيق الكاتب هذا . فلم يذكره المؤرخون فى كتبهم ؛ إلا أن ابن خلدون ذكر فى تاريخه (جـ ٤ ص ٤٣) أن أبا يزيد مخلد ابن كيداد كان يحاصر سوسة سنة ٣٣٤ فبعث المنصور المدد بالأساطيل مع رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق وخرج هو (أى المنصور) فى إثرهم ، فانهزم أبو يزيد وعاد إلى القيروان . ولا ندرى متى دخل رشيق فى خدمة جوذر . ونفهم من الكتاب الذى بين أيدينا أن رشيقا الكاتب توفى عام ٣٥٠ فى خلافة المعز ، كما نفهم أنه قد كتب لجوذر ثلاثة ، أولهم أبو عبد الله محمد بن عثمان الكاتب ثم رشيق الكاتب ثم منصور مؤلف هذا الكتاب .

[٢] ص ٣٤ : قوله (أناله بها) تعبير ضعيف ، والصحيح أن يقال أناله إياها ونحب أن ننبه الباحثين واللغويين إلى أن كتاب مصر وافريقية كانوا يستعملون بعض التعبيرات العامية من ناحية ، كما كانوا يتبعون قاعدة أن حروف الخفض ينوب بعضها عن بعض . وسيرد فى هذا الكتاب ما يؤيد هذا الرأى .

[٣] ص ٣٤ : فاعل (يستحق) هنا بعيد بحيث يستبهم على القارىء . والضمير المستتر يعود على جوذر والمراد أن يستحق جوذر أن يترحم عليه القارىء .

[٤] ص ٣٤ : لفظ (اختبارات) يرد هنا بمعنى (تنبؤات) كما يدل على ذلك السياق .

[٥] ص ٣٤ : (ينظرون بنور الله) : يعتقد الاسماعيلية أن نور الله هو ذلك الحد المقرب إلى الله تعالى ، وهو المسمى عندهم بالسابق أو المبدع الأول المعروف عند الفلاسفة بالعقل الكلى وعند أصحاب الشريعة بالقلم ، وهو فى عقيدة الاسماعيلية فى العالم الروحانى ممثول ومثله فى العالم الجسمانى الأنبياء والأئمة (راجع : الدكتور محمد كامل حسين : نظرية المثل والممثول ، مطبعة الفكرة ، القاهرة ١٩٤٨) فالإمام بناء على هذه النظرية له كل صفات الممثول فهو نور الله فى الأرض .

ونلاحظ أن الاسماعيلية لايقولون بأن نور الله حل فى الإمام أو أن للإمام صفة إلهية أو نحو ذلك مماقاله المؤرخون عنهم . والمؤلف لم يذكر هنا أن الأئمة كانوا يعلمون الغيب بل قال كانت لهم فراسات واختبارات . والواقع أن التهمة التى ألصقها أعداء الفاطميين بهم من ادعائهم العلم بالغيب تهمة باطلة . وقد ثبت لدينا بطلانها من أقوال الأئمة الفاطميين ومن شعر تميم بن المعز (راجع : القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى : كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ص ٢٢ ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين ، طبع دار الفكر العربى ١٩٤٨) .

[٦] ص ٣٥ : بنو الأغلب : أسرة كان لها إمارة افريقية تقليــدا من قبل العباسيين ووراثة فيهم . وكان أول من ولى منهم ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمى سنة ١٨٤هـ وآخرهم زيادة الله بن أبى العباس عبد الله محمد بن ابراهيم بن الأغلب الذى فر أمام جيوش عبيد الله المهدى الفاطمى سنة ٢٩٦هـ . وبالرغم من أن هذه الأسرة ظلت فى الحكم زهاء قرن فإن ثورات البربر فى أرض كتامة استمرت قائمة ضد حكمهم بسبب تمذهب كثير من البربر بمذهب الخوارج . ومع ذلك استطاع الأغالبة أن يحافظوا على هذه الدولة غير المتماسكة وأن يحافظوا على رخائها ، وقد اتخذ الأغالبة القصور الفخمة التى ظهرت فيها ألوان الترف . ويذكر المؤرخون القصر القديم الذى بنى فى عهد إبراهيم بن الأغلب ، والمسجد الكبير بالقيروان ، ورباط السوس اللذين بنيا فى عهد زيادة الله بن إبراهيم (١٩٦ — ٢٠١هـ) ، وقصر الفتح وغير ذلك مما يدل على أن الرخاء كان يعم هذه الدولة . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن كثرة الأموال فى أيدى الأغالبة كان نتيجة لتلك الحملات التى كان يشنها أمراؤهم على شواطىء جنوب أوربا ومن جزيرة صقلية التى افتتحوها سنة ٢١٢هـ (راجع : ابن خلدون ، تاريخ ، جـ ٤ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ ٧ و٨ ابن عذارى المراكشى : المغرب) .

وخبر القضاء على هذه الدولة أن عبيد الله المهدى بعد أن مر بمصر تركها إلى أطرابلس هو وولده القائم وكان فى صحبته أبو العباس أخو أبى عبد الله الشيعى . فتقدم أبو العباس إلى القيروان ، وكانت الكتب قد سبقته إلى زيادة الله بن الأغلب بصفات المهدى ، فقبض على أبى العباس ولكنه هرب ، وأرسل زيادة الله الكتب بدوره إلى عماله بالقبض على المهدى الذى سار إلى قسطنطينة ومنها إلى سجلماسة

وكان على سجلماسة إليسع بن مدرار ، فقبض إليسع على المهدى وابنه وحبسهما ، ثم جمع زيادة الله العساكر حتى بلغوا أربعين ألفا أمر عليهم إبراهيم بن حنيش ، فسار بالجيش إلى قسطنطينة وزحف على الجبل الذى كان أبو عبد الله الشيعى متحصنا به هو وجموعه من كتامة ، فانهزم الجيش .. وتوالت انتصارات أبى عبد الله الشيعى فاشتد الأمر على ابن الأغلب فجمع جمعا كثيفا حارب به داعية المهدى ولكنه هزم أيضا فى آخر جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ ﻫ ففر زيادة الله إلى مصر ، ودخل إبراهيم بن الأغلب إلى القيروان فقصد قصر الإمارة ونادى بالأمان وتسكين الناس وصغر أمر أبى عبد الله الشيعى ووعد الناس بقتاله وطلب منهم الأموال . ولكن الناس ثاروا به ورجموه فخرج عنهم . وهكذا قضى على دولة بنى الأغلب (راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٨٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ؛ القاضى النعمان ابن محمد : كتاب افتتاح الدعوة ، نسخة خطية بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين)

[٧] ص ٣٥ : كانت روح الفاطميين فى المغرب وفى بدء استقرارهم فى مصر روح تقشف وزهد ، ولذلك يعيب المؤلف هنا على الأغالبة انغماسهم فى الترف وينسب زوال دولتهم إلى (ما كانوا عليه من التهتك والفسوق) . غير أن الفاطميين بعد أن تم استقرارهم بمصر وبعد عهد المعز عرفوا من الترف ما لم يعرفه الأغالبة وما لم تعرفه أية دولة إسلامية أخرى (راجع عن ترف الفاطميين ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين فى مصر ؛ الدكتور محمد كامل حسين ، أدب مصر الفاطمية ص ١٢٣ وما بعدها ؛ المقريزى ، الخطط ج ٢ ، مطبعة النيل ، القاهرة ١٣٢٤ﻫ)

[٨] ص ٣٥ : كان فتح رقادة وانتزاعها من يد الأغالبة على يد أبى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين ورجاله من كتامة فى رجب سنة ٢٩٦ . فلما استتب له الأمر سار إلى سجلماسة بجيش اهتز له المغرب ليخرج مولاه المهدى من سجن أمير سجلماسة إليسع بن مدرار ، فلما ظهر المهدى أقام بسجلماسة أربعين يوما ثم سار إلى إفريقية وأحضر الأموال من إيكجان فجعلها أحمالا وأخذها معه ، ووصل إلى رقادة فى العشر الأخير من ربيع الآخر سنة ٢٩٧ . وتلقاه أهلها وأهل القيروان ورؤساء كتامة مشاة بين يديه ونزل بقصر من قصور رقادة ، وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة بالبلاد وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ، فقسم أعمال افريقية

بين العمال ودون الدواوين وجبى الأموال ودانت له البلاد . أما رقادة فتقع على بعد أربعة أميال من القيروان ، وكان أهلها جلوا عنها حين قصدها أبو عبد الله ، فلما دخلها فرق دورها على رجال قبيلة كتامة فكانت مدينة لرجال الدولة الجديدة (ابن الأثير : الكامل : حوادث عام ٢٩٦ هـ) .

[٩] ص ٣٥ : نستطيع أن نقول بناء على هذا النص إن جوذر دخل خدمة المهدى فى عام دخول المهدى رقادة (سنة ٢٩٧ هـ) وكان على حد تعبيره جوذر الذى رواه المؤلف لا يزال صبيا .

[١٠]ص ٣٥ : سليمان الخادم بن كافى : عبد صقلبى من عبيد المهدى كان له دور هام فى الحملة الفاطمية الثانية على مصر . فقد جعله القائم الفاطمى سنة ٣٠٧ أيام ولايته العهد صاحب مقدمته وولاه الأسكندرية بعد دخوله فيها ، ولكن المقتدر العباسى أرسل مراكب طرسوس لطرد الفاطميين من مصر فكانت بين الأسطولين — أسطول العباسيين وأسطول الفاطميين — معركة بحرية بالقرب من رشيد ، انهزم فيها أسطول الفاطميين وأسر سليمان عقب هذه الموقعة ومات فى حبسه بمصر (راجع ابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ص ٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٢ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٣ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٥٤ ويذكر ابن عذارى أيضا أن سليمان بعد أن تم له أمر الأسكندرية تقدم بالجيوش إلى الفيوم فدخلها بالسيف . ويضيف فى ص ٢٦٥ أن مسرور بن سليمان بن كافى فتح الواحات)

[١١] ص : ٣٥ : قوله (مقبل فى خدمته) مثل على تناوب حروف الجر أو على الاستعمالات العامية . فقد يكون المراد (مقبل على خدمته) وقد يكون المعنى سعادة الحظ فى الخدمة . وتدل القصة كلها على أن الأئمة الفاطميين كانوا يدققون فى اختيار عبيدهم ويؤثرون منهم من يتوسمون فيه الخير والوفاء بعد ملاحظة تصرفاته بأنفسهم . راجع التعليق رقم ٢

[١٢] ص ٣٦ : راجع هذه الفكرة لدى القاضى النعمان بن محمد : كتاب الهمة ، فى مواضع متفرقة .

[١٣] ص ٣٦ : سورة الحج رقم ٢٢ ، اية ٤٦ .

[١٤] ص ٣٦ : سورة التغابن رقم ٦٤ آية ٦ .

[١٥] ص ٣٧ : بعد أن تم الأمر للمهدي شرع في بناء عاصمة جديدة للملك فبنى مدينة المهدية على اسمه . ويروى ابن الأثير وابن خلدون والمقريزى أنه ابتدأ بناءها في خامس ذى القعدة سنة ٣٠٣ ، ولكن البكرى خالفهم وقال إن المهدى شرع في بنائها سنة ٣٠٠ ، واتفقوا جميعا على أن المهدى انتقل إليها سنة ٣٠٨ . وتقع المهدية في المكان الذى كان يسمى بجزيرة الخلفاء . وهي شبه جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند . ولم يكتف المهدى بهذا الموقع الحصين بطبيعته بل أحاطها بأسوار محكمة واختار لها أبوابا ضخمة ، وجعل المصلى غربي المدينة خارج السور . ثم إنه أنشأ في المدينة كل ما يتطلبه الحصار فنقر في الجبل دار صناعة تسع مائتى شينى وعليها باب مغلق . وكان الميناء يتسع لثلاثين مركبا ، وعلى طرفى المرسى برجان عليهما سلسلة حديد . ونقر أيضا أهراء الطعام ومصانع الماء . هذا عدا القصر والدور والدواوين . والغرض الذى توخاه أن تكون هذه المدينة حصنا يلجأ إليه في الأزمات . ويؤثر عنه أنه قال حين فرغ من بنائها « اليوم أمنت على الفاطميات » وأنشأ إلى جانبها مدينة أخرى ، وأفردها بسور وأبواب وجعل عليها الحراس وسماها زويلة . فإذا عرفنا أن المهدية كانت على مرحلتين من القيروان أدركنا مدى نمو العمران في هذه الناحية . وقد ضرب المثل بحصانة المهدية . ونضيف أن المهدية حلت محل رقادة . (راجع . ياقوت : معجم البلدان ، البكرى : معجم ما استعجم ، ابن خلدون تاريخ ، ابن الأثير : الكامل ، المقريزى : اتعاظ الحنفا)

[١٦] ص ٣٧ : كتامة من أعظم القبائل البربرية من قبائل البرانس . وكانت تنزل بين جبال الأوراس والبحر منذ الفتح حول إيكجان . وأول دور هام لها دورها في قيام الدولة الفاطمية بافريقية . ففي إيكجان أودع داعية الشيعة أموال الدعوة ومنها حملت هذه الأموال إلى رقادة بعد الانتصار ، فلما نزل المهدى رقادة أنزلهم في دورها التى جلا عنها أهلها ، وصار رجال كتامة جند الدولة المدللين جزاء لاحتضانهم الدعوة منذ الساعة الأولى .

وقد كانت هذه القبيلة خارجية كما كانت قبيلة نفوسة فى الشرق وكما كانت القبائل النازلة فى إقليم تاهرت فى الغرب خارجية أيضا . ومع ذلك لم يؤثر عنها اشتراكها اشتراكا حاسما فى فتن الخوارج بإفريقية . ثم إن هذه القبيلة وقفت فى وجه الأغالبة وجعلها عداؤها لهم تسرع إلى احتضان الدعوة الإسماعيلية وحمل لوائها ، وكان تحولها عاملا حاسما فى انتصار الفاطميين وفى استقرار ملكهم بإفريقية .

ولهذه القبيلة دوران هامان فى حياة الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر . فقد انتقل كثير من رجالها مع المعز واستقروا بمصر وبلغوا بها منزلة كبيرة إلى أن غلبت عليهم عناصر الأجناد الأخرى التى استخدمها الفاطميون . أما من بقى من كتامة فى المغرب فقد اعتمد الخلفاء عليهم فى تثبيت سيادتهم على المغرب والقضاء على كل نزعة استقلالية تبدو من القبائل الافريقية .

وتاريخ كتامة يعد لذلك جزءا هاما من تاريخ الفاطميين .

(راجع ذكر كتامة فى هذا الكتاب ، دائرة المعارف الإسلامية ، المقريزى : اتعاظ الحنفا) .

[١٧] ص ٣٧ : الساقية فى اللغة هى القناة الصغيرة والجمع سواق والمؤلف هنا استعمل اللفظ الدلالة على الأرض التى تسقى بهذه القنوات أو السواقى .

[١٨] ص ٣٧ : وقف الحال بمعنى سكنها (قاموس) ، وظاهر الاستعمال عامى

[١٩] ص ٣٨ : سورة ابراهيم رقم ١٤ آية ٣٨ .

[٢٠] ص ٣٩ : راجع التعليق رقم ٤ فى هذا الباب .

[٢١] ص ٣٩ : خرج القائم فى حياة أبيه إلى المغرب عدة مرات :

أولا : فى سنة ٢٩٨هـ (ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٢٩٦) خرج القائم وهو ولى عهد إلى المغرب بسبب ثورة كتامة عقب أن قتل المهدى داعيته أبا عبد الله الشيعى وتغلب عليهم القائم حتى حاصرهم فى مدينة مسيلة وهزمهم واتبعهم حتى أجلاهم إلى البحر عام ٢٩٨هـ . ولعل هذه الخرجة ليست المقصودة فى النص .

ثانيا : وخرج القائم مرة أخرى سنة ٣٠٠هـ لأن أهل أطرابلس نقضوا

الطاعة ، فدخل أطرابلس عنوة ودانت له البلاد ، واتفق حينئذ أن أهل صقلية — وكانوا يخطبون للمقتدر العباسي — ساروا بأسطولهم إلى سفاقس فخربوها ثم يمموا شطر أطرابلس فوجدوا فيها القائم بن المهدي فقفلوا راجعين ، وكان خروجه هذا إلى أطرابلس مقدمة لغزو مصر الغزوة التي قادها حباسة ، والراجح أن النص لا يشير إلى هذه الخرجة لأن أطرابلس شرق المهدية ورقادة ، وإن كانت من بلاد المغرب ، (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣ وما بعدها .)

ثالثاً : والأرجح أن المقصود ما كان من خروج القائم سنة ٣١٥هـ إذ ثار محمد بن خزر الزناتي على المهدي وغدر بعسكر من كتامة فقتل منهم خلقا كثيرا فعظم ذلك على المهدي فسير ابنه أبا القاسم من المهدية إلى المغرب في جيش كثيف فتفرق الأعداء وسار القائم حتى وصل إلى ماوراء تاهرت (ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٣١٥هـ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٠٤ . ابن خلدون : تاريخ ج ٤ ص ٣٩) .

[٣٢] ص ٣٩ : توفي المهدي يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م) بالمهدية ، وأخفى ابنه أبو القاسم موته لمدة سنة لتدبير كان له ، فإنه كان يخاف أن يختلف الناس عليه إذا علموا بموت المهدي (ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ١٠٧ — المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٠٥ — ابن خلدون : تاريخ : ج ٤ ص ٤٠) .

[٣٣] ص ٣٩ : الحجة اصطلاح لمرتبة من مراتب الدعوة الاسماعيلية تطلق على ولى عهد الإمام فهو حجة مقربة ، وتطلق أحيانا على داعي الدعاة فهو حجة ، وتطلق على داعي الدعاة في الجزائر فهو حجة جزيرة . (راجع مقدمة ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ، والكرماني : كتاب راحة العقل) .

[٣٤] ص ٣٩ : خزائن البز هي خزائن الأمتعة من الثياب ونحوها والسلاح (القاموس المحيط) .

[٣٥] ص ٤٠ : سورة الأحزاب رقم ٣٣ آية ٧٢ .

[٣٦] ص ٤٠ : نحن أمام حالة من حالات ولاية العهد عند الاسماعيلية وهذه

الحالة غامضة أشد الغموض . وكانت السبب فى الاختلاف القائم الآن بين المؤرخين وعلماء الاسماعيليات ، ولا سيما فى الفترة التى تعرف فى تاريخ الاسماعيلية بدور الستر . وهى الفترة التى تلت وفاة جعفر الصادق عام ١٤٨ﻫ وانتهت بظهور عبيد الله المهدى بالمغرب عام ٢٩٦ﻫ . فقد استتر الأئمة الاسماعيلية خوفا من بطش العباسيين وكانوا يختارون عددا من الدعاة يلقبونهم بألقاب الأئمة ويظهرونهم على أنهم هم الأئمة ، ولذلك نرى الخلاف شديدا حول نسب الفاطميين . وها هو القائم يودع عبده جوذر سر اختياره لابنه المنصور وليا للعهد دون أن يعلن ذلك للناس عامة . وهذا التصرف يذكرنا بتصرف الأئمة فى دور الستر . ونستطيع أن نتخذه مثالا لما كان يحدث فى دور الستر . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى يدلنا هذا النص على ما وصل إليه جوذر من مكانة رفيعة عند القائم .

[٣٧] ص ٤٠ : أبو الحسين جوهر الكاتب هو نفسه القائد جوهر الصقلى فاتح مصر .

[٣٨] ص ٤٠ : هذه القصة تخالف ما رواه القاضى النعمان بن محمد المغربى عن المعز عن المنصور . فالقصة هنا تقول إن القائم وجوذر كانا وحيدين عند قبر المهدى بينما القصة كما رواها القاضى النعمان تذكر أن المنصور قال : « لما كان من أمر المهدى ما كان لم يتقدم القائم للصلاة عليه حتى أخذ بيدى وخلا بى فقلدنى عهده وأسر لى ذلك واستكتمنى إياه ، فوالله ، ما علم بذلك منه بعد الله غيرى » (راجع القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ورقة ٩٧ ، مخطوط عند الدكتور محمد كامل حسين) ويروى النعمان فى مكان آخر من نفس الكتاب « وسايرت المعز فى أسفاره فذكر القائم وما كان امتحن به المنصور من طول ستر أمره وتركه إظهاره إلى أن قرب وقت انتقاله ، فقال المعز : دخلت إليه بعد أن أظهر المنصور ونصبه للناس بعد مدة اثنتى عشرة سنة من يوم أفضى إليه بذلك » (نفس المرجع ورقة ١٠٥) فبينما يذهب مصنف سيرة جوذر أن ستر المنصور كان لمدة سبع سنوات وأن أحدا لم يعرف هذا السر سوى جوذر ، يذهب القاضى النعمان إلى أن الستر كان لاثنتى عشرة سنة وأن أحدا لم يعرف هذا السر سوى المنصور . وهكذا اختلف الكاتبان المعاصران للأئمة والمتصلان بهم بل المقربان إليهم ، فكلاهما

اتصل بهذه الحوادث ومع ذلك لم يتفقا . ولا ندرى أيهما أصدق وإن كان القاضى النعمان غير ثقة عندنا لما نراه فى كتبه من ميل واضح إلى الوضع والتدليس .

[٢٩] ص ٤١ : يقصد المؤلف إلى إظهار لون من الخلاف الذى كان قائما بين أفراد الأسرة الفاطمية حول ولاية العهد . فلم يكن عند الناس علم بولى العهد فاختلفوا فيه ورشح كل فريق ولدا من أولاد القائم . ولم يعلم حقيقة النص على ولايته العهد سوى جوذر . (راجع التعليق السابق)

[٣٠] ص ٤١ : قيصر ومظفر من موالى القائم . وكانت الأعمال مقسمة بينهما لأحدهما ولاية المشرق وللآخر المغرب فى عهد المنصور ، فغلبا على دولته حتى فطن المنصور لأمرها فقبض عليهما وقتلهما سنة ٣٤٩ (ابن خلدون : تاريخ ج ٤ ص ٤٧) .

[٣١] ص ٤١ : (صقالبة الغار) هكذا رسم اللفظ فى إحدى النسختين وفى الأخرى إيلغار وهو اصطلاح غريب لم نقع عليه فى الكتب العربية . وحاولنا أن نعرف قصد المؤلف فذهبنا إلى أنه يجوز أن يكون المقصود صقالبة بلغار . ونحن نعرف من ابن حوقل أن بعض الصقالبة كان يستجلب من خراسان ونعرف أيضاً أن اتصال بلغار بالعالم الإسلامى كان عن طريق خراسان . (انظر رسالة ابن غرسية عن الصقالبة نشر أحمد مختار العبادى ، مدريد ، ١٩٥٣)

[٣٢] ص ٤١ : راجع التعليق رقم ٢٦ ، ٢٩ من هذا الباب .

[٣٣] ص ٤٢ : هذا النص يفيد أن جوذر كان يحتفظ بما كان يصدر إليه من توقيعات الأئمة . ومن هنا استطاع مصنف هذه السيرة أن يجمع فى هذا الكتاب تلك المحفوظات التى آلت إليه بعد وفاة جوذر .

[٣٤] ص ٤٣ : هذه ناحية هامة من نواحى الحياة الاجتماعية عند الفاطميين فقد كان من آدابهم أن يبكى الناس موتاهم على الطريق فى أيام الحداد على الأئمة . وربما استطعنا أن نؤرخ هذا التوقيع بسنة ٣٢٣ هـ أى عقب الإعلان الرسمى عن موت المهدى بأيام .

راجع التعليق رقم ٢٢ هنا ثم رقم ٣٧

[٣٥] ص ٤٣ : كان ذهاب القائم إلى المشرق سنة ٣٠٨ هـ فى أيام أبيه المهدى فى الحملة المعروفة بالحملة الثانية وكانت القيادة فيها إلى القائم ولى العهد . وقد استغرقت هذه الحملة سنة كاملة ووجدت أعوانا بالاسكندرية والفسطاط والصعيد وانتهت بانسحاب الجيش إلى برقة سنة ٣٠٨ . وعاد القائم إلى المهدية فى رجب من نفس السنة (٣٠٨) . وقد خرج جوذر مع القائم فى هذه الحملة وشاهد أمر نهب الجند ما بأيدى الناس . ويعلل هذا الخلل بالنظام والضبط بما يرويه أبو المحاسن من انضمام الأعراب والأحواش إلى جيش القائم (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٨٧ ، ١٩٦) وذكر عريب أن القائم كان يكاتب وجوه أهل مصر بالنثر وبالشعر يدعوهم إلى معونته والدخول فى دعوته وروى عريب إحدى قصائد القائم ونقيضة لها لأبى العباس الصولى (راجع عريب : صلة تاريخ الطبرى حوادث سنة ٣٠٨) وهكذا شارك الشعر السيف فى النضال بين الفاطميين والعباسيين .

[٣٦] ص ٤٤ : مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار ويكنى بأبى يزيد زناتى من أهل قسطيلة من إقليم توزر ، كان أبوه يتجر مع السودان وفيها ولد أبو يزيد من أم هوارية ثم نشأ فى توزر وخالط الخوارج النكارية وهم من الإباضية فمال إلى مذهبهم ثم رحل إلى تاهرت عاصمة بنى رستم وأقام بها يعلم الصبيان . فى هذا الوقت ظهر عبيد الله المهدى فى المغرب فانتقل أبو يزيد إلى تقيوس وبدأ دعوته لمذهب الخوارج وظل يدعو الناس ثلاث عشرة سنة حتى كثر أتباعه وعظمت شوكته فجاهر الدولة الفاطمية العداء عقب موت المهدى وظل يحارب الدولة طوال أيام القائم ، وهزم جيوشها حتى أخرجها وحاصر القائم فى المهدية من جمادى الأولى عام ٣٣٣ إلى المحرم سنة ٣٣٤ ، غير أنه فشل ، وكان فشله هذا بدأ اضمحلال أمره ومرحلة حاسمة من مراحل الصراع بينه وبين الفاطميين إذ تتالت هزائمه بعد ذلك فلم ينجح فى حصار سوسة واضطر إلى فك الحصار عنها أيضا فى شوال سنة ٣٣٤ إلى أن انتهى أمره بعد وقعة مشهورة تعرف بوقعة يوم الجمعة فى سابع المحرم سنة ٣٣٥ (راجع التعليق رقم ٣٨ هنا) كما يسميها مصنف هذا الكتاب ، فاعتصم بالجبال إلى أن سقط جريحا فى وقعة كبيرة عند قلعة كيانة فحمل إلى المنصور ومات من جراحه فى المحرم ٣٣٦ (راجع : ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٦٥ ،

ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٤ ص ٤٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٩٠١ وما بعدها)

[٣٧] ص ٤٤ : كانت وفاة القائم بأمر الله لثلاث عشرة خلت من شوال سنة ٣٣٤ ، وقام بالأمر بعده ابنه وصاحب النص أبو الطاهر اسماعيل الملقب بالمنصور بالله . وكتم موت أبيه خوفا من الناس لأنه كان فى حرب مع أبى يزيد الخارجى (أنظر ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ص ١٧٩ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ١٢٩) ويقول ابن عذارى فى البيان المغرب (ص ٢٩٥) إن القائم ترك سبعة أولاد ذكور .

[٣٨] ص ٤٦ : تاريخ موقعة الجمة هذا مختلف فيه بين المؤرخين من حيث التاريخ ومن حيث الاسم فابن الأثير والمقريزى اتفقا على أن المعركة بدأت خامس المحرم سنة ٣٣٥ واستمرت إلى أن انتصف المحرم ، واعتبر هذا التاريخ تاريخا للمعركة دون أن يطلقا عليها اسما معينا (ابن الأثير ، الكامل : حوادث عام ٣٣٣ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا : ص ١٢٢) . أما هنا فى هذا الكتاب فقد أورد المصنف وثيقة رسمية اعتبرت اللقاء الحاسم الذى وقع يوم الجمعة سابع المحرم علما على المعركة . وقد انتهت هذه المعركة فعلا حسب تاريخ الوثيقة فى يوم الخميس التالى لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ٣٣٥ . فإن كان من الجائز أن تكون ابتدأت فى الخامس ثم كان اللقاء الحاسم فى اليوم السابع يوم الجمعة فإن العمليات انتهت قبل منتصف المحرم خلافا لما ذكره ابن الأثير والمقريزى . وللوثيقة المنشورة فضل آخر غير تحديد التاريخ بالدقة هو أنها أعطتنا اسما لمعركة لم يطلق عليها المؤرخون اسما .

[٣٩] ص ٤٧ : سورة البقرة رقم ٢ آية ٢٨٦ .

[٤٠] ص ٤٧ : يستنتج من هذا النص أن المنصور أمر بصنع سيوف خاصة بالمهدية لأول مرة تختلف عما كان يرد إليها من إقليم إفرنجة الواقع شمالى أرض الإسلام بالأندلس .

[٤١] ص ٤٧ : النصل الإفرنجى منسوب إلى اقليم افرنجة وكانت السيوف الافرنجية واليمانية خاصة هى المستعملة فى شمالى افريقية إلى أن أمر المنصور مولاه.

جوذر بصنع سيوف فى المهدية تسمى باسمها أو تكون لها على حد تعبيره . وكانت هذه السيوف تستجلب من إفرنجة مع التجارات المتبادلة بين المغرب والأندلس ومن هذه التجارات تجارة الرقيق . وقد أورد ابن حوقل فى كتابه المسالك والممالك (ص ٧٥) نصا طريفا فى دقته خاصا بتجارة الخصيان الصقالبة . قال : « وبالأندلس سلع كثيرة ترد إلى مصر والمغرب . وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبى إفرنجة وجليقية . والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم بها يخصون . ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسبى إلى خراسان من الصقالبة فباق على حالته ومقر على صورته . وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح والخليج الآخذ من بحر الروم [الممتد] على القسطنطينية واطرابزندة يشق بلدهم بالعرض . فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وإفرنجة وأنكبردة وقلورية » .

وعلى ضوء هذا النص الذى يحدد مصادر الصقالبة الخصيان والخدم وعلى ضوء ما جاء فى سيرة جوذر نستطيع أن نقول إن جوذر نفسه كان من السبى الذى يجلبه الأندلسيون (راجع مقدمة هذا الكتاب) .

[٤٢] ص ٤٨ : من الممكن تأريخ هذه الرسالة إذ يفهم من ابن الأثير (الكامل : ج ٨ ، ص ١٧١) ومن المقريزى (اتعاظ الحنفا : ص ١٢٣) أن المنصور أقام بالقيروان يتجهز لمتابعة حرب أبى يزيد مدة بعد الانتصار عليه فى وقعة يوم الجمعة (راجع التعليق رقم ٣٨ هنا) ثم رحل فى أواخر ربيع الأول سنة ٣٣٥ . فإذن تاريخ هذه الرسالة يقع بين ١٣ المحرم وبين آخر ربيع الأول سنة ٣٣٥ .

[٤٣] ص ٤٨ : ظاهر من هذا النص أنه بينما كان المنصور يتجهز بالقيروان لمتابعة حرب أبى يزيد كان جوذر مقيما بالمهدية نائبا عن الإمام فى تصريف شئون الدولة . وعلى أساس ذلك ندرك مكانة جوذر .

[٤٤] ص ٤٨ : سورة ابراهيم رقم ١٤ آية ٣٦ .

[٤٥] ص ٤٨ : راجع التعليق رقم ٣٦ هنا .

[٤٦] ص ٤٨ : نلاحظ هنا أن مؤلف سيرة جوذر وصف خوارج المغرب بأنهم من الأزارقة وبأنهم أعداء أهل البيت من أول ابتداء هذا الدين فى حياة الرسول . فأما قوله أنهم من الأزارقة فقول باطل من الناحية التاريخية لأن خوارج المغرب كانوا من فرق الإباضية (راجع : احمد سعيد الشماخى : كتاب السير ، ص ٩٨ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٠٣ تاريخ) . أما قوله إنهم أعداء أهل البيت من أول ابتداء هذا الدين فى حياة الرسول ، فلعله يشير إلى أحاديث رواها البخارى خاصة بذى الخويصرة (وقيل عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى) فإن هذا التميمى قال للرسول مقالة جعلته يبين للمسلمين أن التميمى أول الخوارج الذين يظهرون فيما بعد . وبيان ذلك أن أبا سعيد الخدرى قال « بينما نحن عند رسول الله (ص) وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم فقال يارسول ! اعدل ، فقال : ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل . قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . فقال عمر : يارسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه . فقال : دعه ، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية : ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شىء قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس ، قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا الحديث من رسول الله (ص) وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه على نعت النبى (ص) الذى نعته » (راجع البخارى : صحيح : كتاب ٦١ الباب الرابع (ج ٤ ص ٢٤٣ ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ١٣٤٥ هـ) .

وعلى أساس هذا الحديث اعتقد بعض المسلمين ومنهم الإسماعيلية أن أمر الخوارج ظهرت بوادره فى عهد الرسول .

[٤٧] ص ٤٨ : على بن محمد الإيادى شاعر من شعراء المغرب استقبل المهدى مادحا وظل متصلا بالفاطميين . ولكن حياته غير معروفة كما ضاع شعره ولم يبق منه إلا عدة أبيات قليلة جدا ذكرها القاضى النعمان فى كتابه افتتاح الدعوة

ومما بقى له أيضاً هذه الأبيات وغيرها متناثرة فى سيرة جوذر هذه (راجع مثلا ص ٣٧ من هذا الكتاب) . ونلاحظ مما وقع لنا من شعره أنه كان ركيك السبك

[٤٨] ص ٥١ : هذا النص خاص بعتق جوذر ، ومن الممكن تأريخه بالمحرم سنة ٣٣٦ . فالمعروف أن أبا يزيد أسر فى هذا التاريخ ، وبما أن رقيعة عتق جوذر أرسلت إليه مع سجلات الفتح فإن لنا أن نطمئن إلى هذا التحديد .

[٤٩] ص ٥٢ : أبو تميم هو المعز لدين الله الفاطمى . وكنى بذلك نسبة لابنه الأكبر الأمير تميم الشاعر المعروف . ونلاحظ أن المعز ذكر هنا على أنه ولى العهد ، كما نلاحظ أن جوذر كان ثالث شخصية بعد الإمام وولى العهد لقول المنصور نفسه « ولا تقدم على اسمك اسما إلا اسم مولاك أبى تميم » .

[٥٠] ص ٥٢ : عاد المنصور إلى المهدية فى رمضان عام ٣٣٦ (المقريزى : اتعاظ الحنفا : ص ١٢٥) .

[٥١] ص ٥٢ : يقع الوادى المالح بين مدينة تماجر والمهدية ، وكانت به وقعة مشهورة بين أبى يزيد والقائم انهزم فيها القائم (راجع البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبع الجزائر سنة ١٨٥٧ ، ص ٢٩) .

[٥٢] ص ٥٣ : سيعرفنا المؤلف بمحمد الكاتب هذا وهو أبو عبد الله محمد ابن عثمان الكاتب وكان أحد الكتاب الثلاثة الذين كتبوا لجوذر . وقد استمر محمد هذا فى صحبة جوذر مدة طويلة إلى أن انتقل بعد ثورة أبى يزيد على ما يظهر إلى عمل آخر بدليل أنا نجد ذكره فى القصر حين خرج المعز إلى بسكرة أيام فتح مصر على يد جوهر ، ثم نجد ذكره على أنه أحد الذين حضروا الصلاة على جثمان جوذر مع القاضى النعمان بن محمد ومنصور الجوذرى مؤلف هذه السيرة .

[٥٣] ص ٥٣ : لدى اسماعيلية الشام الآن عدة نسخ من كتاب يعرف باسم كتاب الإيضاح ، وهم ينسبونه إلى القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى . والمعروف أن فى الدعوة الإسماعيلية عدة كتب تحمل اسم كتاب الإيضاح وأول كتاب يحمل هذا الاسم هو الكتاب الذى ذكره ايفانوف فى كتابه (المرشد إلى

أدب الاسماعيلية) A Guide to Ismaili literature ونسبه إلى القاضى النعمان أيضا ، كما ذكر كتبا أخرى تحمل اسم كتاب الإيضاح منسوبة إلى عصور مختلفة ولا ندرى بالضبط إذا كان الكتاب المذكور هنا فى سيرة جوذر هو نفس الكتاب الذى ينسب إلى القاضى النعمان فإننا نعلم فى تقاليد الاسماعيلية أن العلماء والدعاة كانوا يؤلفون الكتب باسم الأئمة . ودليلنا على ذلك ما نراه من كتب القاضى النعمان نفسه فإنه يقول إنه أخذها عن الأئمة ويقول أحيانا أخرى إن الإمام مهد له هذا الكتاب وقسم فصوله وقرأه قبل إذاعته بين الناس (أنظر القاضى النعمان المجالس والمسايرات ، مخطوط بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين نسخة ك ورقة ٧٤ ب) وإذن نستطيع أن نرجح أن كتاب الإيضاح مثل غيره من كتب الاسماعيلية ليس من تأليف الأئمة مباشرة بل هو من تأليف الدعاة والعلماء باسم الأئمة .

[٤٥] ص ٥٣ : المروزى : هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن عمر المروزى (أو المروروزى) اتصل بعبيد الله المهدى وصحب القائم والمنصور فى حرب أبى يزيد الخارجى ، ويروى ابن خلكان ج ١ ص ٧٧ (مادة المنصور الفاطمى) والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٠ أن أبا جعفر أحمد بن محمد المروزى قال : « كنت مع المنصور فى اليوم الذى أظفره الله بمخلد بن كيداد أبى يزيد وهزمه فتقدمت إليه وسلمت عليه وقبلت يده ودعوت له بالنصر والظفر فأمرنى بالركوب وقد جمع عليه سلاحه وآلة حربه وتقلد سيف جده ذا الفقار وأخذ بيده رمحين لحدثته ساعة فجال به الفرس ورد أحدهما إلى يده اليسرى فسقط أحد الرمحين من يده إلى الأرض فتفاءلت له بالظفر ونزلت مسرعا فرفعت الرمح من الأرض ومسحته بكمى ورفعته إليه وقبلت يده وقلت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينـــا بالإياب المسافر

فأخذ المنصور الرمح من يدى وقال « هلا قلت ما هو خير من هذا وأصدق قال فقلت : وما هو ؟ قال : قال الله عز وجل : « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين » (سورة الأعراف رقم ٧ آية ١١٧ - ١١٩) قال فقلت : يامولانا : أنت ابن رسول الله وإمام الأمة ، عليكم نزل القرآن ومن بيتكم درجت الحكم

فقلت أنت بما عندك من نور النبوة وقال عبدك بما بلغه من علمه ومعرفته من كلام العرب وأهل الشعر .

وكان المروزى هذا شاعرا ومن شعره فى واقعة نكور التى كانت بين مصالة ابن حبوس عامل عبيد الله المهدى على تاهرت وبين الخوارج من البربر .

لما طغى الأرذل وابن الأرذل في عصبة من الطغام الجهل
قال نكور دون ربى معقلى أتاه محتوم القضاء الفيصل
من الإله كالحريق المشعل فحل أرضا طالما لم تحلل
حطم أهل كفرها بالكلكل وجاء رأس رأسها المبذل
على القنا من الرماح الذبل ذو لمة شاعثـــة لم تغسل
ولحية غـــبراء لم ترجل

(راجع البكرى : المغرب ص ٩٦) ويقول صاحب المغرب أيضا إن والد هذا الشاعر كان قاضيا للمهدى منذ تولى أمر المغرب .

[٥٥] ص ٥٤ : يصرح المؤلف هنا بتصريح هام يتصل بمبدأ من مبادىء الدعوة : ذلك أنه ذكر أن بعض ما جاء فى الكتب المحفوظة عن الأئمة لم يكتب للعامة بل كان محظورا عليهم، وذكر أن فى نشره على العامة إثما . وهذا مبدأ من مبادىء الإسماعيلية فى ستر العلم إلا لأهله . ويؤيد هذا التصريح ما جاء فى ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (القصيدة الأولى ص ١٩٦) .

وإنما باب المعانى مقفل وأكثر الأنام عنها غفل
مفتاحه أضحى بأيدى خزنة بهم إلهى علمه قد خزنه

وقوله أيضا (فى القصيدة السابعة والخمسين ص ٣٠٧) .

للعلم قوم به خصوا أقامهم رب الورى للورى فى أرضه علما

وإنما أباحوا لأنفسهم ستر العلم إلا لأهله عملا بحديث ينسبونه إلى النبى أنه قال « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين وتأويل الغالين » (كتاب كلامى بير ص ٢١) . وهم يقتدون فى ستر علومهم بقصة النبي موسى مع الرجل الصالح وهى القصة الواردة فى القرآن فى سورة الكهف . ويعلق المؤيد فى الدين داعى الدعاة على هذه القصة بقوله : « فإذا كان

موسى يرد عليه من علم الملكوت ما لا يقوم لاحتماله ويضعف عنه قوة نهوضه فالآن يكون العامة على احتمال ذلك أضعف وأقصر (أنظر المؤيد فى الدين داعى الدعاة : المجالس المؤيدية المجلد الثانى ورقة ١٩ ب ، مخطوط عند الدكتور محمد كامل حسين) .

[٥٦] ص ٥٤ : أيام الحصار يقصد بها هنا حصار أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجى للمهدية فنى جمادى الأولى سنة ٣٣٣ ﻫ رحل أبو يزيد بجموعه نحو المهدية فنزل على بعد خمسة عشر ميلا منها ، وبث سراياه فانتهبوا ما وجدوا وقتلوا من أصابوا . فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الأولى من هذه السنة خرجت كتامة وأصحاب القائم إلى أبي يزيد فالتقوا على ستة أميال من المهدية واقتتلوا مع أصحاب أبي يزيد فأدركهم أبو يزيد وقد انهزم أصحابه وقتل كثير منهم فلما رآه الكتاميون انهزموا من غير قتال وأبو يزيد فى إثرهم إلى باب الفتح (وهو من أبواب المهدية) واقتحم قوم من البربر باب الفتح وأشرف أبو يزيد على المهدية ولكنه رجع عنها إلى منزله . ثم أعاد الكرة على المهدية فى جمادى الآخرة ووقف على الخندق الذى حفره القائم حول أرباض المهـــدية فى أواخر ربيع الآخر سنة ٣٣٣ قبيل الحصار ، وقاتل عليه حتى وصل إلى باب المهدية الذى عند المصلى وبينه وبين المهدية رمية سهم ، وتفرق أصحابه فى زويلة ينهبون ويقتلون ، ثم جاء زيرى بن مناد الصنهاجى نجدة للقائم فنظم القتال حتى تحير أبو يزيد وتخلص إلى منزله بعد المغرب ورحل إلى ترنوطة وحفر على عسكره خندقا . واجتمع اليه بها خلق عظيم من إفريقية والبربر من نفوسة والزاب وأقاصى المغرب فحصر المهدية مرة أخرى حصارا شديدا ومنع الناس من الدخول إليها أو الخروج عنها ثم زحف الزحفة الرابعة فى العشر الآخر من شوال فجرى قتال عظيم ولكن أبا يزيد انصرف إلى منزله وكثر خروج الناس اليه من الجوع والغلاء وعظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الدواب والميتة . ودخلت سنة ٣٣٤ وهو مقيم على المهدية غير أن كثيراً من أتباعه تفرق عنه فاضطر إلى الرحيل مسرعاً إلى القيروان فى صفر سنة ٣٣٤ وارتفع الحصار عن المهدية (راجع ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٦٦ وما بعدها حوادث سنة ٣٣٣ ، ٣٣٤ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١١٣ ومابعدها)

وتاريخ الخطبة المشورة هنا يمكن تحديده بين جمادى الأولى سنة ٣٣٣ وصفر سنة ٣٣٤ .

[٥٧] ص ٥٤ : سورة الليل رقم ٩٢ آية ١٥ .

[٥٨] ص ٥٥ : للإسماعيلية فى نفى الصفات ونفى الرؤية وتنزيه الله عن المثلية آراء أشد تعقيدا وتجريداً من آراء المعتزلة فى ذلك . فهم يبنون توحيدهم على أن الله منزه عن كل الصفات التى يتصف بها الخلق وأنه ليس كمثله شىء و محال ليسيته وباطل أيسيته ولا يدرك بالأبصار لأنه ليس بجوهر وليس بعرض ولا يدرك بالعقول لأنه ليس من جنس العقول . أما أسماء الله الحسنى التى وردت فى القرآن الكريم فقد جعلوها صفات المبدع الأول الذى يعرف عندهم بالسابق وبالقلم وبالعقل الكلى . ولهم فى ذلك أقوال كثيرة وبراهين نراها فى كتب الكرمانى مثل كتاب راحة العقل (السور الثانى ص ٣٥ — ٥٦) وفى كل الرسالة الدرية ورسالة النظم وفى المجالس المؤيدية فى مواضع متفرقة . ويقول المؤيد فى الدين فى ديوانه نحو ذلك حين يقول فى القصيدة الثانية (ص ٢٠١) .

فقائل قال تراه العين	وهو لعمرى وصمة وشين
من أجل أن رؤية الأبصار	مختصة بالجسم ذى الأقطار
وقائل قد قال لما دقق	جدا وفى أفكاره تعمق
ماذاك إلا قول ذى تضليل	نراه لكن رؤية العقول
أمعن حتى ما أتى بشئ	ولم يبين رشدا من غى
فالعقل المرء أداة كالبصر	ذا باطن فيه وهذا قد ظهر
فإن جعلت نحوه سبيلا	للعقل لم تجاوز التمثيلا
كلاهما يدرك بالمجانسة	مقالة صحت بلا ممارسة
وليس من جنس العقول الله	ياقوم كى تدركه حاشاه
كما تعالى أن يكون كالصور	جسما كيما يلاقيه البصر
ذاك تشبيه فما التوحيد	وذاك تجسيد فما التجريد

[٥٩] ص ٥٥ : الثقلان كما ورد فى كتب اللغة الجن والإنس ، ولكن الاسماعيلية يروون أن النبى قال : « إنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى

أهل بيتى ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدى » . ولكن النص هنا يتسق مع المعنى اللغوى دون المعنى الاصطلاحى عند الإسماعيلية .

[٦٠] ص٥٦ : الفطرة لغة هى زكاة الفطر وتكون من البدن . وهكذا جاء فى كتب الفقه . وتؤدى هذه الزكاة عند الاسماعيلية للإمام . أما فى وقتنا هذا فهى تؤدى نقدا لا عينا للداعى المطلق طاهر سيف الدين زعيم طائفة الإسماعيلية المستعلية فى بمباى بالهند ويطلق عليها اسم « سلة فطرة » كما تؤدى الآن عند الإسماعيلية النزارية إلى أغا خان إمامهم الحالى .

[٦١] ص ٥٦ : سورة الحشر رقم ٥٩ آية ١٨ .

[٦٢] ص ٥٧ : ذهب الأستاذ برنارد لويس الأستاذ بجامعة لندن فى كتابه أصول الاسماعيلية هو والأستاذ حسن ابراهيم حسن فى كتابه عبيد الله المهدى إلى أن القائم بأمر الله الفاطمى ليس بابن جسمانى لعبيد الله المهدى بل إنه ابنه الروحى وقولهما يناقض ما ورد هنا فى خطبة المنصور وهو ينعى أباه القائم إذ يقول « يا أبتاه يا جداه يا ابنى محمد رسول الله » . وهذا قول يدل على أن المنصور ابن القائم والقائم ابن المهدى من نسل الرسول لا كما ذهب الأستاذان لويس وحسن ابراهيم حسن من أن المهدى من نسل القداح وأن القائم من نسل الرسول

والمسألة من أساسها تتعلق بالجدل الكبير القائم منذ القديم إلى الآن حول نسب الفاطميين ، وبسكوت الفاطميين عن دحض أقوال خصومهم العباسيين فى مسألة النسب . ولكننا قد عثرنا على نص له قيمته الكبرى فهو أول نص اسماعيلى عن هذه القضية الهامة وهو ما أورده القاضى النعمان بن محمد فى كتابه « المجالس والمسايرات » بمناسبة قدوم بعض رسل أحد دعاة المشرق إلى المعز وما جرى من حديث بينهم وبين المعز حول الدعوة فى بلاد المشرق وعن بعض الدعاة فقد ورد ما يأتى على لسان أحد الرسل :

« لقد سألنى هذا الرجل عن اسم بعض الآباء فذكرته ، فإذا هو عنده على خلاف ذلك فيما عرفه فقال : نعم ، هذا مما قيل لنا إن الإمام له سبعة أسماء : اسم جسمانى واسم نفسانى واسم روحانى واسم طبيعى واسم حقيقى واسم ظاهر واسم

باطن . فجعل المعز يتعجب لقوله . . (إلى أن قال هذا الرجل إن أحد الدعاة أرسل إليه كتابا وطلب إليه أن يعرضه على الإمام المعز) « وكان فيما رأيت فى هذا الكتاب أن زعم له فيه أن الامامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح وإلى فلان وإلى فلان لقوم ذكرهم من أفناء الناس . ثم (هكذا) جعل المعز (ص) يتعجب من هذا القول وقال (المعز) : فإذا كان ذلك كذلك فقد انقطع السبب ونعوذ بالله مما صار بأيدينا ، فصار أخذنا لما أخذناه من الفضل من غيرنا ، وصاروا أحق به منا . ولن يجعل الله ذلك عند الضرورة عند من جعله فى يديه من أهل هذا البيت من غير الأعقاب المتصلة إلا مستودعا عندهم غير مستقر فيهم إلى أن يستحق ذلك مستحقه فيأخذه من أيديهم . ثم ذكر بعض من صار ذلك إليه كذلك فى يديه وأنه أراد أن يؤثر به من قرب منه ممن لم يجعله الله عز وجل له ، فكلما نصب لذلك واحداً مات واستأثر الله به إلى أن ذهب أقاربه وأقام صاحب الحق ضرورة إذ لم يجد غيره . فقال (صاحب الحق) الآن ياعم بعد أن فعلت ما فعلت فتمثل له بقول الشاعر :

الله أعطاك التى لا فوقها   وكم أرادوا منعها وعوقها
عنك ويأبى الله إلا سوقها   إليك حتى طوقوك طوقها

فردها الله عز وجل إلى صاحبها المستقرة (فيه) بعد أن جهد فى صرفها إلى من قرب منه جهده . فليس الوكيل كالموكل ولا الوصى كالموصى عليه . فإذا كان هكذا فى أهل البيت الأقربين فكيف ينبغى أن يقطع القول فيه بأنه قد صار إلى الأبعدين كالذين ذكرهم هذا من ميمون القداح وغيره . قال : نعم إن صاحب الحق لهو الميمون المبارك السعيد قادح زناد الحق وموري نور الحكمة فان ذهب من ذهب إلى هذا فنعم » (راجع القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص ٣٤١ وما بعدها نسخة ف ، مخطوط عند الدكتور محمد كامل حسين) .

وبنوة القائم للمهدى بنوة جسمانية تثبتها أقوال المعاصرين للمهدى والقائم والمنصور والمعز . فقد أورد القاضى النعمان فى افتتاح الدعوة مانصه « إن المهدى خرج بنفسه وبالإمام ابنه القائم من بعده معه وهو يومئذ غلام حدث السن حتى انتهى إلى مصر » ثم قال فى موضع آخر من نفس الكتاب عن خروجهما من مصر

« إلى أن خرج من مصر ومعه ابنه القائم وبعض عبيده » (ورقة ١٦ ب من نسخة مخطوطة عند الدكتور محمد كامل حسين) .

وسنرى فى هذا الكتاب بعض إشارات إلى هذا الموضوع وسنعود إليه فى تعليقاتنا .

[٦٣] ص ٥٨ : سورة العنكبوت رقم ٢٩ آية رقم ١ — ٥ .

[٦٤] ص ٥٨ : يقال أسد خادر بمعنى مستتر فى أجمته ، وخادر من الخدر بمعنى التحير . والخطبة تصف العدو بأنه ارتد على عقبيه فى حيرة وتربص ثم قال ما معناه يرغى ويزبد وينفث نارا .

[٦٥] ص ٦٠ : يشير جوذر بهذا القول إلى عقيدة كل فرق الشيعة بأن الآية القرآنية الكريمة « يا أيها الذين آمنـــوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (سورة النساء رقم ٤ آية ٥٩) تشير إلى أن أولى الأمر منكم هم الأئمة من أهل البيت المنصوص عليهم وأن هذه الطاعات الثلاث طاعة الله وطاعة الرسول وطاعة الأئمة موصولة لا تنفصم ، فطاعة الأئمة هى طاعة الله (المجلسى : بحار الأنوار فى مواضع متفرقة فى المؤيد فى الدين : المجالس المؤيدية . فى مواضع متعددة منها ج ١ ص ١٥٦ وما بعدها أو ص ٥ ، ٩١ الخ ، من المخطوط) . وقد نظم المؤيد فى الدين هذه العقيدة بقوله :

وهم أولو الأمر أئمة الهدى	عصمة من لاذ بهم من الردى
مفروضة طاعتهم على الأمم	قاطبة من عرب ومن عجم
اقرأ أطيعوا الله والرسولا	ثم أولى الأمر بهم موصولا
ثلاث طاعات غدت معلومة	فى آية واحـــدة منظومة
من قال فى واحدة تقييد	فإنه لربه عنيـــد
كل على الإطلاق والعموم	حتى على المجهول والعليم
ما لولاة المدن فى ذاك أرب	كلا ولا للفقهاء من نشب

(راجع المؤيد فى الدين داعى الدعاة : الديوان ص ٢٠٥ طبعة الكاتب المصرى ١٩٤٩) .

[٦٦] ص ٦٠ : نلاحظ أن ضرب السكة المشار إليها يقع حسب أقوال المؤرخين بعد الانتهاء من فتنة أبي يزيد . وقد روى أبو المحاسن في النجوم الزاهرة (ج ٣ ص ٢٩٨ طبعة دار الكتب المصرية) أن المنصور لم يغير السكة ولا البنود وأقام على ذلك حتى فرغ من أمر أبي يزيد سنة ٣٣٦ هـ ويخيل إلينا أن المنصور عمد إلى تخليد هذا الانتصار بتأسيس المنصورية سنة ٣٣٧ واتخاذها دار ملكه . وفيها ضربت السكة المنصورية (راجع ياقوت : معجم البلدان مادة المنصورية ومادة صبره ؛ البكرى معجم ما استعجم) .

[٦٧] ص ٦٢ : ورد في كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان (ج ٣ ص ٥٦ ؛ مخطوط بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين) ما نصه :

« ذكر المنصور بالله صلوات الله عليه فقال المعز : كان والله تاج آل محمد صلوات الله عليهم وزينتهم وواحدهم علما وورعا وزهدا وحلما ونزاهة وشجاعة وإقداما . ولقد كان قبل أن ينتهى أمر الإمامة إليه في أيام المهدى والقائم أقل الناس حرصا على الدنيا والتفاتا إليها وشغلا بها . وكان الذى يصير إليه من مثل ما يصير إلى العمومة والأخوة يبارك فيه على قلة اشتغاله بالمكسب والفائدة واجتهادهم في ذلك وكلفهم به ، وكانت نعمه وخيره علينا وعلى أهله أوسع وأكثر من خيرهم على بنيهم وأهليهم أضعافا مضاعفة حتى لقد كنا نستكثر ذلك ونقول له فيه ونذكر : أنه لا حاجة لنا بكثير مما تصيره إلينا من خيرات . فيقول : اتسعوا اتسعوا وتمتعوا فهذا فضل من فضل الله استعملني له فيكم واستخدمني فيه لإرفادكم وحسن معاشكم ومن وسع الله عليه فينبغي له أن يوسع على من جعل أمره إليه . فكنا أفضل أهل الجماعة من الأقارب ، حتى إذا أصار الله الأمر إليه اشتغل بأمر الأمة وأعرض عنا وعن نفسه ، وقصر بنا وبه عن كثير مما كان عودنا وتعود حتى لقد قال له بعض العيال ممن ألم لذلك : ليت أنا كنا بحسب ما كنا قديما قبل أن يفضى إليك هذا الأمر . قال : كنتم يومئذ همى وحدكم ، وأنا اليوم أهتم بجميع الأمة » .

هذا ما أورده القاضي النعمان . وهو ما يتفق مع ما ورد في سيرة جوذر هنا ولنلاحظ أن النصين يفيدان أن أمراء الأسرة الفاطمية كانوا يتكسبون بالتجارة زيادة على ما كان يصرف لهم من بيت المال .

[٦٨] ص٦٣ : هنا إشارة إلى الخلاف الحاد بين أولاد المهدى وأولاد القائم من ناحية وبين المنصور من ناحية أخرى . وقد لجأ أعداء المنصور من عمومته وإخوته إلى التشنيع عليه ومعاداته ، وظلت الجفوة مستمرة طوال أيام المنصور وورث المعز هذا العداء وسنرى ذلك فيما بعد وسنعلق عليه .

[٦٩] ص ٦٤ : يكشف هذا النص عن موضوع خطير هو اشتداد الجفوة بين الأسرة الحاكمة الفاطمية وبين المنصور إلى حد جعل المنصور يلسبهم فى هذا النص إلى الشجرة الملعونة المذكورة فى القرآن (سورة الإسراء رقم ١٧ آية ٦٠) . ومن الطريف أن نذكر أن الفاطميين أولوا الشجرة الملعونة ببنى أمية . فكأن المنصور هنا قرن بين بعض أهله وبين بنى أمية الذين عادوا عليا . ولم يكفه ذلك بل شبه بعض أهله باليهود والنصارى ، وهذا الخلاف على شدته على نحو ما هو مصور هنا لم يصل صداه إلى المؤرخين فلم نر له ذكرا فى كتبهم إلا ما رواه ابن الأثير عن ثورة ابن طالوت القرشى فى ناحية طرابلس عقب موت المهدى وعن زعمه أنه من ولد المهدى . وقد قتله البربر وحملوا رأسه إلى القائم ، هذا مع العلم بأنه لم يذكر أحد من المؤرخين أن المهدى كان له ابن يعرف بابن طالوت .

ويروى ابن عذارى (ج ١ ص١٩٩) والقاضى النعمان فى المجالس والمسايرات (ج ٢ ورقة ٦٢ - ١) أن القائم علم من ابنه القاسم أن الناس يتحدثون بأن المهدى نص بولاية العهد لابنه أبى على أحمد بن المهدى . فقلق القائم (وذلك قبل إمامته) لذلك .

ولكن الخلاف بين أبناء المهدى والقائم من ناحية وبينهم جميعا وبين المنصور على هذا النحو الذى صوره المنصور فى هذه الوثيقة أمر ربما يتخذه القائلون بأن القائم ليس ابن المهدى من صلبه دليلا على صحة دعوتهم . وللمؤرخ أن يتساءل فى حديثه عن نسب الفاطميين ونسب القائم خاصة إذ لو كان المهدى هو صاحب النص وكان نص على القائم من بعده لما قام الخلاف بين أبنائه على هذا النحو . فالمسألة خطيرة لا يكفى فيها القول جزافا . ومن القرائن التى توجب الاحتياط ما رواه القاضى النعمان فى كتابه المجالس والمسايرات (ج ٢ ورقة ٦٢ - ١) أن إحدى نساء المهدى كانت تقول لولد المهدى ونسائه بعد وفاته : « والله ، لقد خرج هذا الأمر من هذا القصر (تعنى قصر المهدى) فلا يعود إليه أبدا ، وصار إلى ذلك القصر

(تعنى قصر القائم) فلا يزال فى ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا » . ولا يجوز لنا مع ذلك أن نتسرع فى الحكم حتى تنكشف لنا نصوص أخرى نستطيع القطع بصحتها

[٧٠] ص ٦٤ : هنا إشارة إلى كتاب من تآليف الإمام المنصور فى موضوع لم يطرق من قبل . ولم يرد ذكر لهذا الكتاب فى رسائل المجدوع الذى لخصه وترجمه إيفانوف باسم A Guide to Ismaili Literature مع أن إيفانوف حاول إحصاء كل ما نسب إلى المنصور فقال ما ترجمته « المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل ثالث خلفاء الفاطميين (٣٣٤ — ٣٤١هـ) (٩٤٦ — ٩٥٣م) وله من الكتب (١) تثبيت الإمامة لمولانا على بن أبى طالب، وينسب هذا الكتاب عند بعض الدعاة للقاضى النعمان بن محمد وهو كتاب صغير غير مقسم إلى فصول (٢) كتاب الوصية (٣) جامعة الجامعة وينسبه بعضهم إلى المنصور» ونحن لا ندرى إذا كان الكتاب المشار إليه فى هذا النص هو أحد هذه الكتب أم لا .

[٧١] ص ٦٦ : ورد نفس هذا المعنى فى لفظ مقارب فى انجيل لوقا ٣ : ٧ . إذ جاء : « وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه : يا أولاد الأفاعى ! من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ، ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم : لنا إبراهيم أبا ، لأنى أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم » .

[٧٢] ص ٦٦ : سورة الحجرات رقم ٤٩ آية ١٣ .

[٧٣] ص ٦٨ : هذا البيت من قصيدة للشاعر الإسلامى اسحق بن خلف وهو من شعراء الحماسة . وأول القصيدة :

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أقاس الدجى فى حندس الظلم

[٧٤] ص ٦٩ يتجه الخطاب فى هذه الرسالة كلها إلى أبناء المهدى وأبناء القائم . وهذه الرسالة إحدى الرسائل التى تذكر الخلاف بين أفراد الأسرة الفاطمية ، وهى تنقسم هنا إلى قسمين : قسم يدور حول أفعال أبناء المهدى وأبناء القائم وخروجهم عن العرف المألوف ؛ ولعله يقصد حسب الرسائل السابقة المتصلة بهذا الموضوع : خروج الرجال والنساء والغلمان من أفراد الأسرة إلى الأسواق

والاختلاط بالناس ، وليس المقصود طبعا منهم من التجارة لأن المنصور نفسه كان يتاجر قبل أن يتولى الإمامة . إنما نرى ظننا أن الأمر يتصل بشيء هو أشبه شيء بالسلوك . والقسم الثانى يدور حول خروج النساء من القصر وضرورة التزامهن عقر دورهن . ولهذه الرسالة كلها دلالة على نوع النظرة المرأة عند الفاطميين وعلى لون الحياة التى كان يتطلع إليها سكان القصور . وقد تفسر هذه الرسالة قصة الحاكم بأمر الله مع أخته ست الملك .

ويمكننا أن نؤرخ هذه الرسالة بسنة ٣٣٦ لأن المؤلف ذكر أنها صدرت عقب انتهاء ثورة أبى يزيد وعودة المنصور مظفرا إلى عاصمته .

[٧٥] ص ٦٩ : تماجر كانت مدينة كبيرة آهلة بالسكان بها جامع وأسواق وفنادق وفى وسطها غدير ماء وحولها غابة زيتون وأعناب . وبين تماجر والمهدية يقع الوادى الملح . والمسافة بينها وبين القيروان مرحلة (راجع البكرى : المغرب ، ص ٢٩) .

[٧٦] ص ٧٠ : الحسن بن على بن أبى الحسن الكلبى رأس أسرة الكلبيين ولاة صقلية من قبل الفاطميين وهو أحد شيوخ كتامة ولاه المنصور عام ٣٣٦ وكان الحسن أحد صنائع الفاطميين ومن وجوه قوادهم . وسبب توليته أن أهل بليرم كانوا قد استضعفوا الوالى عطاف الأزدى ووثبوا به سنة ٣٣٥ هـ بقيادة بنى الطبر . فلجأ عطاف إلى الحصن وبعث إلى المنصور يستمده فأرسل إليه الحسن ابن على واليا على صقلية ، فركب الحسن البحر إلى مازر فأتاه بالليل جماعة من كتامة يعتذرون إليه عن الناس بالخوف من بنى الطبر . وكان بنو الطبر قد بعثوا عيونهم على الحسن فاستضعفوه . ودخل الحسن مدينة بليرم ولقيه حاكم البلد وأصحاب الدواوين . فاضطر بنو الطبر إلى استقباله وخرج إليه كبيرهم اسماعيل ولحق به بعض بنى الطبر . وظل الحسن واليا على صقلية إلى أن تركها لابنه أحمد سنة ٣٤١ ثم عاد إليها سنة ٣٥٣ وبقى بها إلى أن مات عام ٣٥٤ (راجع ابن خلدون : تاريخ ج ٤ ص ٢٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٧٠ ؛ زامباور ص ١٧٧ من الترجمة العربية) .

[٧٧] ص ٧١ : هو أبو العباس خليل بن اسحق الذى حارب الوالى سالم

ابن راشد سنة ٣٢٥ وتغلب على الجزيرة إلى أن وليها عطاف الأزدى المذكور فى التعليق السابق سنة ٣٢٩ هـ (راجع زامباور ص ١٠٧ من الترجمة العربية) .

[٧٨] ص ٧١ : سالم بن راشد ولى على صقلية سنة ٣١٣ وانتصر على الروم فى جنوبى إيطاليا وعلى الثائرين ضده فى صقلية (راجع ابن عذارى : المغرب ج ١ ص ١٧٧) . ونلاحظ أن اسمه هنا سالم بن أبى راشد بينما يذكر فى كتب التاريخ باسم ســـالم بن راشد . وقد انتزعت منه الولاية سنة ٣٢٥ وتولاها أبو العباس خليل بن اسحق المذكور فى التعليق السابق .

[٧٩] ص ٧٢ : فى شهر رمضان سنة ٣٤١ خرج المنصور متنزها إلى مدينة جلولاء وأقام بها أياما ثم عاد إلى المنصورية فأصابه فى الطريق ريح شديد وبرد ومطر أقام أياما وكثر الثلج حتى مات جماعة ممن معه واعتل المنصور علة شديدة ووصل إلى المنصورية وأراد دخول الحمام فنهاه طبيبه اسحق بن سليمان فلم يقبل منه ودخل ففنيت الحرارة الغريزية منه على حسب تعليلهم ولازمه السهر فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السهر فاشتد ألم السهاد على المنصور وقال لبعض خواصه : أما فى القيروان طبيب غير اسحق . فأحضر إليه شاب من الأطباء يقال له أبو جعفر أحمد بن ابراهيم الجزار فشكا إليه المنصور ما يجده من السهر فجمع له أشياء منومة وجعلها فى قنينة على النار وكلفه شمها فنام وخرج وهو مسرور بما فعله ، وجاء إسحق ليدخل على المنصور فقيل له : إنه نائم . فقال إن كان صنع له شىء ينام منه فقد مات . فدخلوا عليه فإذا هو ميت (راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣١ وما بعدها) .

[٨٠] ص ٧٤ : الإشارة هنا إلى إخوة الخليفة وأبناء عمومته المخالفين له الذين ذكرنا أمر خلافهم مع الأئمة من قبل . راجع التعليق رقم ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ من هذه التعليقات .

[٨١] ص ٧٥ : أوراس اسم يطلق على سلسلة جبلية تغطى مساحة كبيرة حوالى ٣٦٠٠ م٢ فى جنوبى إقليم قسنطينة . والاسم يطلق بصفة خاصة على جبل واقع فى جنوبى خنشلة . وبدائرة المعارف الاسلامية بحث قيم مطول عن أوراس

الأستاذ إيڤير ، فلنلفت إليه النظر لما فيه من غناء عن التطويل هنا .

[٨٢] ص ٧٥ : على بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامى ويعرف بابن الأندلسى (أنظر لسان الدين بن الخطيب : نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٢) ورد المغرب من الأندلس ، واتصل بالمهدى أول الخلفاء الفاطميين منذ بدأ أمره ، ثم اتصل بابنه القائم وكان موضع ثقته ، فأسند إليه القائم اختطاط مدينة المسيلة سنة ٣١٥ وهى التى سميت بعد ذلك بالمحمدية ، ثم عقد له القائم ولاية الزاب وأنزله بها ؛ ونشأ ولدا ابن حمدون جعفر ويحيى بدار القائم ، تحت وصاية جوذر ، فلما كانت فتنة أبى يزيد واضطربت الأمور كتب القائم إلى ابن حمدون فى المدد بقبائل البربر من الزاب . فكانت لابن حمدون جولات مع أبى يزيد تجلى فيها جلده وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشواهق فمات سنة ٣٣٤ . وعقد المنصور بعد الفتنة لجعفر بن على بن حمدون على المسيلة والزاب بالاشتراك مع أخيه يحيى بن على بن حمدون فاستجدا بها سلطانا ودولة وبنيا القصور والمتنزهات واستفحل بها ملكهما وقصدهما العلماء والشعراء ومنهم ابن هانىء الأندلسى . وكان بين جعفر وبين زيرى بن مناد إحن ومشاجرات ومنافسة على التقرب إلى الامام والوصول إلى أرقى المراتب ، وأدى هذا التنافس إلى القتال بينهما وكانت بينهما وقعة عظيمة قتل فيها زيرى بن مناد ، ثم قام بلكين بن زيرى بن مناد مقام أبيه وانتقم لموته فاستظهر على جعفر . ولما اعتزم المعز الرحيل إلى مصر استقدم جعفر بن على بن حمدون وفكر فى استخلافه نائبا عنه فى افريقية ثم عدل عنه وولى بلكين فاستراب جعفر وترك البلاد وهرب إلى الأندلس ، ولحق هو وأخوه يحيى ببلاط الخليفة الأموى ، وقربهما الخليفة الناصر وعقد لهما على المغرب . ولما زحف بلكين سنة ٣٦٩ إلى أقصى المغرب زحفته المشهورة أرسل الخليفة الأموى جعفر بن على لمحاربته فانتصر بلكين عليه وقتله عن طريق الحيلة . أما أخوه يحيى ابن على بن حمدون فلحق بمصر ونزل بدار العزيز بالله مكرما . ولم يزل بمصر إلى أن مات (راجع ابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٢ ، ٨٢ — ٨٤ ؛ ابن خلكان : وفيات ، ج ١ ، ص ١١٣ ترجمة جعفر بن على ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٢) .

[٨٣] ص ٧٥ : يذكرنا هذا النص بما ورد فى كتاب المجالس والمسايرات للقاضى النعمان (نسخة خطية عند الدكتور محمد كامل حسين ورقة ٧٧ - ا نسخة ف) وهو أن المعز قال : لقد كان القائم بأمر الله (قدس الله روحه) يأخذنى وأنا فى سن الأطفال فيضمنى إلى صدره ويقبل ما بين عينى ويقول أنت أبو تميم حقا . ونلاحظ أن النصين : نص جوذر والنص الذى ذكرناه هنا مقتبسا من المجالس والمسايرات يتفقان على أن القائم كنى المعز بأبى تميم وهو لا يزال صغيرا لم يتزوج ولم يرزق بابنه تميم بن المعز بعد فهو يقول « وأنا فى سن الأطفال » ونفهم من ذلك أن القائم نص على ولاية العهد لابنه المنصور ثم لحفيده أبى تميم المعز بن المنصور ابن القائم . وتلك سابقة لها شبيه فى عصرنا الحديث فإن أغا خان زعيم الاسماعيلية الحالى نص على ابنه على خان ثم على حفيده كريم خان بن على خان .

[٨٤] ص ٧٦ : كان خروج المعز المشار إليه هنا سنة ٣٤٢ ه . والمعروف تاريخيا أن جبل أوراس كان ملجأ كل من ثار على الفاطميين فى المغرب وأن أهل هذا الجبل لم يدخلوا فى طاعة الفاطميين حتى ضمه المعز فى هذه الحملة واستأمن له وجوه السكان (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤) .

[٨٥] ص ٧٧ : المراد بالعقل فى هذه العبارة هو ما تحدث عنه الفلاسفة القدماء مثل أفلاطون وأفلوطين ومن تبعهم من فلاسفة اليونان والمسلمين وسموه جميعا العقل الكلى . أما مقالة الاسماعيلية فتتلخص فيما يأتى :

أول ما خلق الله خلق العقل ، وهو أسبق الحدود الروحانية إلى معرفة الله تعالى وتوحيده وحجة قائمة على وجوده ، ولهذا سموه « السابق » أو المبدع الأول . وهو « القلم » أيضا وأيدوا ذلك بالحديث المنسوب إلى النبى : « أول ما خلق الله العقل » وفى رواية أخرى « القلم » . فقال له : أقبل فأقبل ، فقال له أدبر فأدبر . فقال له بعزتى وجلالى ما خلقت خلقا هو أعز منك ؛ بك أثيب ، وبك أعاقب . والعقل يسمى عندهم أيضا المبدع الأول وهو حرف الكاف من كلمة كن التى بها خلقت السماوات والأرضون ، فهو المدبر للكون وهو صاحب الأسماء الحسنى ، وهو الواحد والموحد . وهو جامع للصفات التى وصف الله بها نفسه فى القرآن . أما الله فهو المنزه عن كل وصف من الصفات التى يتصف بها العقل الأول وغيره

من مبدعاته ومخلوقاته ، إذ أن حقيقة التوحيد عند الاسماعيلية هى تجريد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن كل وصف وإلحاق الصفات والأسماء المشهورة عند أهل السنة بالعقل الأول . وهذه العقيدة الاسماعيلية هى مدار كل المؤلفات الفلسفية الالهية عندهم بل كل المؤلفات فى التوحيد ولا نغالى إذا قلنا إن هذه العقيدة هى محور كل العقائد الإسماعيلية ، وحول هذا المحور تدور فكرتهم عن الحدود وصفات الإمامة وعليها بنى أحدنا (وهو الدكتور محمد كامل حسين) نظريته « المثل والممثول » واعتبار الإمام مثلا للعقل الكلى فى صفاته ومرتبته القدسية .

(راجع الكرمانى : راحة العقل ، السور الثالث كله ، وله أيضا : الرسالة الدرية فى التوحيد والواحد الموحد والموحد ، نشر محمد كامل حسين بمصياف بسوريا ١٩٥٢ . وراجع المجالس المؤيدية فى مواضع متفرقة ، نسخة خطية بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين . وراجع محمد بن طاهر الحارثى الداعى اليمنى : الأنوار اللطيفة ، نسخة خطية عند الدكتور محمد كامل حسين) ونلاحظ أن كل كتب « الحقيقة » عند الاسماعيلية — وهى كثيرة — تتحدث عن هذا الموضوع .

[٨٦] ص ٧٨ : سورة الحج رقم ٢٢ ، آية ٣٧ .

[٨٧] ص ٨١ : سورة فاطر رقم ٣٥ آية ٣٢ .

[٨٨] ص ٨١ : سورة آل عمران رقم ٣ ، آية ٣٠ .

[٨٩] ص ٨٢ : تشير هذه العبارة إلى مبدأ تسلسل الإمامة عند الاسماعيلية وهو المبدأ الذى بسببه انشق الشيعة الإمامية إلى الفرعين الكبيرين : فرع الاسماعيلية والفرع المعروف بالاثنى عشرية . ذلك أن فريقا من أتباع جعفر الصادق لم يقبلوا أن يعترفوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق واحتجوا بأن الإمام جعفر نص على ابنه اسماعيل فأصبحت الإمامة بذلك فى عقب اسماعيل بالضرورة بحيث لا تعود مرة أخرى إلى جعفر فينص على ابنه الثانى موسى . وكذلك لا يجوز أن يكون التسلسل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين بل يجب أن يكون التسلسل فى الأعقاب . واستدلوا على رأيهم بتأويل الآية القرآنية : « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » بأن المراد بالكلمة هنا الإمامة وأنها تبقى فى الاعقاب

وتتسلسل فيهم . وذهب هؤلاء إلى المناداة بإمامة محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ثم سلسلوا الإمامة فى عقبه وهؤلاء الأئمة هم « خالص الذرية » على حد التعبير الوارد هنا دون غيرهم .

وسنرى أن المعز لدين الله قد خرج على هذا المبدأ ، راجع وثيقة ٨٢ ص ١٣٩ وتعليق رقم ١٣٤ ولنذكر هنا أيضا الخلاف بين نزار والمستعلي ولدى المستنصر ، وخبر هذا الخلاف مشهور ، وبسببه انقسمت الاسماعيلية إلى نزارية ومستعلية وهم المعروفون الآن بالأغاخانية (الخوجه) والدعوة الطيبية (البهرة) على الترتيب .

[٩٠] ص ٨٢ : سورة النساء رقم ٤ ، آية ٥٩ .

[٩١] ص ٨٢ : سورة الأحزاب رقم ٣٣ ، آية ٦٢ .

[٩٢] ص ٨٢ : سورة فاطر رقم ٣٥ ، آية ٤٣ .

[٩٣] ص ٨٤ : راجع التعليق رقم ٨٤ .

[٩٤] ص ٨٥ : سورة لقمان رقم ٣١ ، آية ٣٤ .

[٩٥] ص ٨٨ : للحسن بن عمار بن أبي الحسين (وهو ابن عم الحسن بن على ابن أبي الحسين الكلبي مؤسس أسرة الكلبيين بصقلية ، وقد خصصنا له تعليقا آخر رقم ٧٦) فى صقلية فى حرب نقفور فوقاص وقائده منويل موقف مشهود فى مدينة رمطة . إذ كان الحسن قائد أحد جيشين نزلا بصقلية فى منتصف سنة ٣٥٣ وكانت وجهته رمطة بينما كانت وجهة الجيش الآخر ترميني ، فحاصر ابن عمار رمطة وكاد جيش الروم المغتر بعدده وعدده أن يضيق الخناق عليه لولا جرأة ابن عمار التى أدت إلى نصر تام تقرر به مصير صقلية نفسها . ويقول ابن الأثير « انهزم الروم أقبح هزيمة وأكثر المسلمون فيهم القتل ووصل المنهزمون إلى جوف خندق عظيم كالحفرة ، فسقطوا فيه من خوف السيف ، وقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت الحفرة ... ... وغنم المسلمون من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحد » (ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٠٠ ، وراجع أيضاً ابن خلدون ج ٤ ص ٤٠٩ ، وراجع فازلييف : العرب والروم ؛ ترجمة عربية لمحمد عبد الهادى شعيره ص ...)

ولعل من جملة هذه الغنائم والأسرى الذين يعدون بالآلاف هذا الصقلبي المشار إليه هنا . ولا بد أنه كان من وجوه الصقالبة وأنه أسلم حتى سر المعز بذلك وطلب أن يعمل له حصير مصلى . وهذه الواقعة المعروفة بوقعة رمطة سميت هنا بوقعة الحفرة لكثرة القتلى بالحفرة . ونلاحظ من ناحية أخرى أن الدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه المعز لدين الله ص ٦١ قد سماه الحسن بن عمار بن أحمد فلزم التنبيه على حقيقة اسمه وهو كما ذكرنا اعتمادا على نص سيرة جوذر . وكذلك سمى الدكتور حسن مؤسس الأسرة الحسن بن أحمد بدل الحسن بن على المذكور فى سيرة جوذر . ولا ندرى من أين جاء هذا اللبس عنده مع أن المصادر القديمة والحديثة وجداول زامباور أيضا تؤيد صحة الاسم كما ورد فى سيرة جوذر . والواقع أن كتاب المعز لدين الله خلط أسماء الأفراد عندما تكلم على هذه الأسرة .

ونلاحظ أيضا أن الحسن بن عمار المذكور هنا هو نفسه الذى اشترك مع جوهر القائد فى فتح مصر وحارب القرامطة وعاش إلى أن أصبح أحد ثلاثة أسندت إليهم الوصاية على الحاكم بأمر الله الفاطمى (راجع المقريزى خطط جـ٣ ص ٥٧) .

[٩٦] ص ٨٩ : التمريث بمعنى الضرب والتفتيت كما ورد فى القاموس المحيط .

[٩٧] ص ٨٩ : فندق ريحان (راجع البكرى : المغرب ، ص ٤٥) قرية بين باشواه وقرية الدواميس .

[٩٨] ص ٨٩ : غلام كنون : انظر احتمال قراءة أخرى لاسم كنون فى ص ٩٦ من الأصل والتعليق رقم ١٠٤ .

[٩٩] ص ٩٣ : لكل فريضة عند الاسماعيلية ظاهر وباطن ، ولا يقبل الله من مؤمن عملا ظاهرا إلا إذا اعتقد المؤمن بباطنه وأدى الفرائض باطنا كما أداها ظاهرا . فالظاهر عندهم هو العبادة العملية والباطن هو العبادة العلمية . والحج الظاهر هو إقامة شعائر الحج فى مكة وعرفات فى موسمه المعروف شأنهم فى ذلك شأن سائر المسلمين . أما الحج الباطن فهو قصد الإمام ولو مرة فى العمر ، (ومراجع هذه العقيدة فى جميع كتب الاسماعيلية والكتب التى تتحدث عنهم بحيث لا نجد داعيا لذكر المرجع)

[١٠٠] ص ٩٣ : قصر الأفريقي ذكره ياقوت بأنه مدينة جامعة (يقصد أن بها مسجداً جامعاً ووالياً) على مشرف من الأرض بها مسارح ومزارع كثيرة . ويقول الإدريسي في صفة المغرب ص ١٢٠ إن بينها وبين تيفاش مرحلة . ولا سور لقصر الإفريقي .

[١٠١] ص ٩٥ : أفلح بن ناشب كان له أثر كبير في برقة لما قام به من جهاد لكل من خالف المعز من البربر وغيرهم ولكل ما يلي مصر من القبائل من ناحية برقة مثل بني قرة وسواهم من الأعراب ، فخضعت له بلاد برقة (راجع الداعي إدريس : عيون الأخبار ج ٦ ، نسخة خطية عند الدكتور محمد كامل حسين) وقد بلغ من اعتداد أفلح بنفسه أنه أبى أن يترجل للقائد جوهر عند مروره ببرقة إلى مصر مع عظيم منزلة جوهر . وكان المعز يعتمد على أفلح في مهاجمة جزر بحر الروم من موانى برقة ، وكانت برقة قاعدة لغزو تلك الجزر منذ الفتح الإسلامي (راجع القاضي النعمان ، المجالس والمسايرات ، نسخة خطية ج ٢ ص ٤١٤ بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين) .

[١٠٢] ص ٩٦ : شفيع الصقلبي أحد موالي المنصور المقربين إليه وأحد أمراء الجيش الذين عهد إليهم المنصور بمحاربة فضل بن أبي يزيد بن كيداد وحليفه معبد بن خزر الزناتي . وظل شفيع على ولائه للمعز حتى فتحت مصر وانتقل المعز إليها فأصبح شفيع صاحب مظالته (راجع ابن خلدون : تاريخ ح ٤ ص ٤٤ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ص ١٩١ ، ١٩٦ من طبعة الدكتور الشيال) .

[١٠٣] ص ٩٦ : ميسور الكبير ويعرف باسم ميسور الخصي وبميسور الفتى وكان أحد موالي عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين وولاه المهدي حرب موسى بن أبي العافية عامل فاس والمغرب لما خلع طاعة المهدي وانحرف إلى أموي الأندلس ، فاستولى ميسور على هذه البقاع . ثم كانت له عودة إلى حصار فاس أيام القائم بن المهدي فاستنزل عاملها أحمد بن بكر وهزم خارجيا هناك وأخذ ولده أسيرا ثم عاد إلى القيروان سنة ٣٢٢ . ثم لما كانت ثورة أبي يزيد أرسله القائم على رأس جيش إلى باجة ولكنه انهزم فلما سقطت القيروان في يد أبي يزيد سنة ٣٣٣ زحف ميسور بجيش من بني كملان لإنقاذ القيروان ولكن بني كملان قتلوا ميسوراً

وحملوا رأسه إلى أبى يزيد فأطافه فى القيروان . وكان قتل ميسور وانضمام بنى كملان إلى الثائر أبى يزيد من أشد الأحداث التى أثرت على القائم وعظمت فى نفسه (راجع ابن خلدون : تاريخ حـ ٤ ص ٤٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٨ وما بعدها ؛ ابن الأثير : الكامل ، حـ ٨ ، ص ١٦٥ وما بعدها) .

[١٠٤] ص ٩٦ : قد يكون الاسم مصحفا عن الحسن بن قنون (بالقاف) وهو من بنى إدريس (راجع ابن عذارى : البيان المغرب حـ ١ ص ٢٣٠ ط . ليدن ولكن الاسم ورد فى سيرة جوذر أكثر من مرة كنون (بالكاف) (انظر: التعليق رقم ٩٨ على صفحة ٨٩) . وقد أخبرنا بعض المغاربة ممن نعرفهم أن من الاسماء عنـــدهم اليوم اسم جنون بالجيم المصرية غير المعطشة مع أنهم يعطشون الجيم فى لهجتهم .

[١٠٥] ص ٩٨ : أنظر التعليق رقم ٨٤ ص (على صفحة ٧٦) .

[١٠٦] ص ٩٨ : هذه الوثيقة دليل آخر على العداء المستحكم بين أبناء القائم وبين أبناء المنصور . وقد سبق مثل ذلك فى التعليق رقم ٦٨ (على صفحة ٦٣) .

والتعليق رقم ٦٩ (على صفحة ٦٤) ، والتعليق رقم ٧٤ (على صفحة ٦٩) ، والتعليق رقم ٨٠ (على صفحة ٧٤) وسيرد فى التوقيعات التالية رقم ١٠٧ (على صفحة ١٠٠) ورقم ١١٢ (على صفحة ١٠٥) ورقم ١٢٤ (على صفحة ١١٤) ورقم ١٢٥ (على صفحة ١١٥) ورقم ١٢٨ (على صفحة ١٢٠) ومما يؤيد وجود الخلاف . وهذا كله يدل على خطورة أمر هذا الخلاف بين أفراد الأسرة الفاطمية بحيث تخرج فيه توقيعات كثيرة تبلغ هناعشر توقيعات .

[١٠٧] ص ١٠٠ : راجع التعليق السابق والتعليقات المشار إليها فيه . وهذه الوثيقة تدل على أن الأمير تميم الشاب كان مندفعا وراء بنى عمومته من أبنـاء المهدى والقائم . وقد ذكرنا أنهم كانوا خصوم المنصور والمعز فكان الأمير تميم يتصل بهم سرا مما دعا إلى مراقبته ومصادرة رسائله . وربما كانت هذه الأحداث من أسباب عدول المعز عن توليته العهد وهو أكبر أبنـائه وسنرى فى وثائق أخرى فى هذا الكتاب ما يؤيد ذلك .

[١٠٨] ص ١٠٠ : أنظر حالة مشابهة لهذه فى ص ٤٣ من المتن وانظر التعليق رقم ٣٤ : وقد وقعنا على نص معاصر لهذه الأحداث ورأينا من المفيد نشره هنا لعلاقته بالموضوع الذى ورد فى النص مرتين: فقد جاء فى المجالس والمسايرات للقاضى النعمان (نسخة « و » الخطية حـ ١ ص ١١٠ بمكتبة الدكتور محمد كامل حسين) ما نصه : —

قال النعمان : سمعت المعز (ص) يقول فى مسايرة : لما احتضر المنصور بالله (ص) وقرب منه من أمر الله ما قرب أغمى عليه ، فرأيت منه منظراً لم أتمالك له أن بكيت ، فأفاق وأنا أبكى ، فقال : آه ، مالك ، ألم أنهك عن البكاء . فقلت : فكيف يحسن الصبر بمن يراك على هذه الحال يا مولاى . فقال لى : ما جازيتنى جزائى ، أنا أسر بذلك وأفرح بما يصير إليك بعدى من عاجل الدنيا ، ويسوءك أنت وتحزن بما أصير إليه من نعيم الآخرة ، لا تعد إلى هذا ، ولا تستقبل ما خولك الله من دولتك بالحزن والبكاء ، بل افرح بما آتاك الله من دنياك وما أصارنى إليه وأعطانيه فى آخرتى ، ففعل صلوات الله عليه بما أوصى به ، فلم يلطم عليه خدا ولم يشق عليه جيبا . وبذلك أوصى المنصور بالله (ص) كما جاء أن جده جعفر بن محمد أوصى به كذلك : لا يناح ولا يبكى عليه ولا يلطم عليه خد ولا يشق عليه جيب ولا يسود ثوب . وذلك تواضعا لله منهما وإن كانت الرخصة قد جاءت فى النوح والبكاء على الأئمة ومن يكرم عليهم لعظم رزئهم وجليل مصابهم . فقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه) أنه سمع نساء الأنصار يبكين قتلى أحد ، فقال : لكن حمزة بينهم لا بواكى له . فبلغ ذلك نساء الأنصار ، فأتين بأجمعهن إلى دار حمزة فجعلن يندبنه ويبكين عليه . فقال : ما هذا ؟ ! فأخبر بما بلغهن عنه وأنهن لذلك فعلن ، فأثنى عليهن خيرا . وصارت إلى اليوم سنة بالمدينة : لا تندب نادبة ميتا حتى تبدأ وتندب حمزة . ونيح على الحسين صلوات الله عليه سنة كل يوم وثلاث سنين فى اليوم الذى أصيب فيه . فعل ذلك نساء بنى عبد المطلب بحضرة على بن الحسين ، وكان من بقى من الصحابة والتابعين يأتون إلى مأتم النساء فيسمعون إليهن ويبكون وينوحون . وبكى على المهدى صلوات الله عليه مدة من أيام القائم ، وكثير من الأئمة لم يبك ولم ينح عليهم . وجاء النهى عن النوح عن رسول الله بقول مجمل يدل ذلك على أن النهى إنما جاء فى ذلك لسائر الناس

ورخص فيه لهم وانقباضهم ومن حل بمثل محلهم ومحل حمزة رضوان الله عليه منهم، وإن ذلك ليس بفرض واجب لترك من تركه منهم ووصية من أوصى بتركه «ه.

[١٠٩] ١٠٠ : السامات مفردها سامة وهى عروق الذهب والفضة التى تستعمل فى نسيج الحصر .

[١١٠] ص ١٠٠ : راجع ماذكرناه عن الخلاف بين ابن حمدون وابن زيرى فى التعليق رقم ٨٢ (على صفحة ٧٥) .

[١١١] ص ١٠٤ : تقدم ذكر الحسين بن رشيق الريحانى ص ، ٩٦ - فلعله هو نفسه الشخص المشار إليه هنا وأنه حدث تصحيف من النساخ .

[١١٢] ص ١٠٥ : هذه وثيقة أخرى من الوثائق التى أشرنا إليها فى التعليق رقم ١٠٦ وفى التعليق رقم ١٠٧ .

[١١٣ مكرر] ص ١٠٦ : سورة التوبة رقم ٩ ، آية ٣٢ .

[١١٣] ص ١٠٦ : سورة الشورى رقم ٤٢ ، آية ٢٧ .

[١١٤] ص ١٠٧ : راجع التعليق رقم ٩٩ (على صفحة ٩٣) .

[١١٥] ص ١٠٧ : سورة الأعراف رقم ٧ ، آية ١٩٨ .

[١١٦] ص ١٠٧ : تشير هذه الوثيقة إلى متاعب الأئمة الفاطميين فى حكم إفريقية منذ نشأة الدولة الفاطمية فى المغرب . وهذا يجعلنا نعتقد أن المعز نقل حكومته من المغرب إلى مصر لأنه لم يستطع أن يحكم المغرب كما يحب ، وليس أدل على ذلك من وصفه سكان المغرب بقوله « الهمج الرعاع » فى هذه الوثيقة : راجع أيضا التعليق رقم ١٣٠ (على صفحة ١٢٣) .

[١١٧] ص ١٠٨ : موسى بن العيذار كان طبيبا عالما بصناعة العلاج وتركيب الأدوية وطبائع المفردات . وله أدوية عرفها القدماء . وقد وفد على مصر مع المعز لدين الله (راجع القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٢١٠) .

[١١٨] ص ١٠٨ : الأمزاح هى السنابل .

[١١٩] ص ١٠٩ : ثورة أبى خزر : فى عام ٣٥٩ ثار أحد زعماء زناتة وهو أبو خزر الزناتى على المعز لدين الله . فخرج المعز بنفسه إلى أن وصل إلى باغاية ففر أبو خزر من وجهه ، فأرسل إليه المعز القائد زيرى بن مناد . فلم ير أبو خزر بدا من التسليم . وفى شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٩ جاء أبو خزر الخارجى إلى المعز مستسلما وطلب الدخول فى طاعته ، فقبل المعز ذلك منه وفرح به وأجرى عليه رزقا كثيراً (ابن الأثير : تاريخ ، ج ٨ ص ٢١٥) .

[١٢٠] ص ١١٠ . بسكرة بكسر الباء والكاف وقد تفتح الباء بلدة بالمغرب من نواحى الزاب ، بينها وبين قلعة بنى حماد مرحلتان وبينها وبين طبنة مرحلة . وهى قريبة من جبل أوراس . وصفت بأنها مسورة ذات أسواق وحمامات وبها جبل ملح .

ومن الممكن استنتاج تاريخ خروج المعز إلى بسكرة من سياق الوثائق ، فقد خرج بعد فتح مصر وبعد أن ضرب فيها جوهر الدنانير الفاطمية . وقد ذكر المقريزى أن ضرب الدنانير على يد جوهر كان سنة ٣٥٨ (اتعاظ الحنفا ص ١٦٥) وعلى هذا تكون هذه الخرجة فى هذه السنة .

[١٢١] ص ١١١ : كاتب جوذر المشار إليه هو محمد بن عثمان .

[١٢٢] ص ١١١ : فى الكتاب إشارة إلى قرب رحيل المعز إلى مصر . ولهذا يكون تاريخه بين سنة ٣٥٨ وسنة ٣٦١ هـ

[١٢٣] ص ١١٢ : سور زويلة : ربض من أرباض المهدية واقع بينها وبين البحر وكان لهذا الربض سور بسيط استحدث لمواجهة الحصار فى أيام حرب أبى يزيد الخارجى . ولم ينفع هذا السور البسيط فى صد أصحاب أبى يزيد . فإن أبا يزيد استطاع أن يجتاز الخندق المحفور خارج السور ثم اقتحم البحر فبلغ الماء صدور الدواب حتى جاوزوا السور المحدث ، وهو سور زويلة البسيط وتفرق أصحابه فى زويله ينهبون ويقتلون (ابن الأثير حوادث عام ٣٢٣) ثم أراد المعز بعد إنتهاء الحرب الاحتياط لمثل هذه الأزمات فأمر ببناء السور على نحو جديد .

ولا سبيل إلى تحديد التاريخ ولهذا نضع تاريخا عاما يقع بين ولاية المعز واعتزامه الانتقال إلى مصر (٣٤١/٣٦٠ هـ) .

[١٣٤] ص ١١٤ : يقصد بهذا القول أبناء عمومته وغيرهم من الأفراد الحاقدين عليه (راجع التعليقين رقم ١٠٦ ، ١٠٧ والتعليقات المشار إليها فيهما) .

[١٣٥] ص ١١٥ : ورد ذكر قاسم بن القائم عند ذكر ولدين من أولاده وضبط المعز رقعتين لها موجهتين الى الأمير تميم توقيع رقم ١٠٧ (على صفحة ١٠٠) وورد ذكر طاهر بن احمد بن حسن الكلبي فى التوقيع رقم ٥٤ عند ذكر الشنع الشائعة حول صحبة طاهر مع الأمير تميم بن المعز

وتشاء الظروف أن يوقع القاسم بين ابيه القائم وجده المهدى كما يصرح هذا النص وأن يوقع طاهر بين أبيه وأعمامه . ومن العجب أن يكون الأمير تميم صديقا لولدى القاسم بن القائم ولطاهر بن أحمد الكلبي . وهذا الأمر دليل على شيئين ، الأول : هو غضب المعز على ابنه تميم غضبا جعله ينحيه عن ولاية العهد ، والثانى: هو طبع الأمير تميم وميله إلى أصحاب الدس والوقيعة والثورة من أبناء أسرة الفاطميين وأبناء بعض رجال الدولة .

[١٣٦] ص ١١٦ : أحمد بن الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبي وقد مر ذكر أبيه وذكر ابن عم أبيه الحسن بن عمار بن أبى الحسين (راجع التعليق رقم ٩٥ (على صفحة ٨٨) والتعليق رقم ٨٦ (على صفحة ٧٠) .

[١٣٧] ص ١٢٠ : تربية أبناء الأعيان من رجال الدولة بإشراف الإمام أمر يراد به تنشيء طبقة من الناس مطبوعة على الولاء مغمورة بشعور العرفان نحو الدولة. والحرص على إيجاد هذه الطبقة إنما يصدر عادة عن دولة تدين بالحكم المطلق مثل الدولة الفاطمية ، وقد استمر هذا التقليد بعد انتقال الفاطميين إلى مصر وبعد زوال الدولة الفاطمية أيام بنى أيوب والمماليك. ففى أيام الفاطميين فى مصر كان الولاة والقواد والأمراء يختارون من أبناء الحجر ، ومنهم كان يختار أيضا الأستاذون المحنكون وغيرهم من أرباب المناصب . وخير مثل لمن ربى فى قصر الإمامة الفاطمية بالمهدية والمنصورية هم بنو الحسن بن على الكلبي .

[١٢٨] ص ١٢٠ : انظر التوقيع رقم ١٢٥ (على صفحة ١١٥) . ولكن هذه الوثيقة تضيف شيئا جديدا وهو الناحية الخلقية عند تميم . فإن أحمد بن الحسن الكلبي إنما أراد قتل ابنه لخروجه عن « خطة الطهارة » حسب النص . وهذه الناحية الخلقية من أسباب غضب المعز على ابنه تميم (انظر سببا آخر فى التعليق رقم ١٠٧ (على صفحة ١٠٠) . وديوان الأمير تميم ملىء بروح المجون والتغزل بالغلمان والنساء وذكر مجالس الشراب التى كان يغشاها (ديوان الأمير تميم ، تحت الطبع بدار الكتب المصرية ، وراجع محمد كامل حسين : أدب مصر الفاطمية ص ٢٤٧ وما بعدها .

وراجع التعليقين رقم ١٠٦ ، ١٠٧ عن الخلاف بين أفراد الأسرة الفاطمية) .

[١٢٩] ص ١٢٢ : فندق ريحان : راجع التعليق رقم ٩٧ (على صفحة ٨٩) .

[١٣٠] ص ١٢٣ : وهذه وثيقة أخرى تمس حكم الخلفاء الفاطميين على أهل إفريقية وكيف كانوا فى شقاء منهم (راجع التعليق رقم ١١٦ (على صفحة ١٠٧)

[١٣١] ص ١٢٧ : جعفر بن المنصور الحسين بن حوشب بن زادان وأبوه الحسين هو الكوفى الذى قيل إن الإمام المستور الثانى أحمد بن عبد الله بعثه داعيا من الكوفة إلى اليمن مع داع آخر هو على بن الفضل عام ٢٦٦ هـ ٨٧٩ م فأقام الحسين فى عدن لاعة يدعو للإمام الفاطمى إلى أن نجح نجاحا ملموسا فى جمع القبائل حوله . فامتلك بهم أكثر مدن اليمن وتلقب عندئذ بالمنصور وقيل بمنصور اليمن نسبة لانتصاره فى نشر الدعوة باليمن . ويقول الأستاذ إيفانوف إنه لقب كذلك نسبة إلى أن المهدى المنتظر كان يعرف فى اليمن باسم المنصور ويذهب إلى أن أتباعه زعموا أنه المهدى المنتظر .

ولما هرب عبيد الله المهدى من سلمية أمام قرامطة الشام (راجع سيرة جعفر الحاجب ، وراجع استتار الإمام بمجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية مجلد ٤ ج ٢ ديسمبر ١٩٣٦ ص ٨٩ وما بعدها ، نشر إيفانوف . ففيها بيان عن العلاقة بين القرامطة والمهدى) فكر أولا فى الرحيل إلى اليمن اعتمادا على نجاح دعوة ابن حوشب ولكن دعاة مصر أمثال فيروز وأبى على الداعى حولوه عن رأيه فسار إلى المغرب حيث أسس دولته . ثم حدث خلاف بين على بن الفضل

الداعى باليمن وبين ابن حوشب إذ غلا ابن الفضل فى الدعوة أولا ثم انتهى به الأمر إلى الدعوة لنفسه بعد ذلك ، فحاربه ابن حوشب وانتصر عليه . فلما مات ابن حوشب انقسم أولاده فمنهم من خرج على الدعوة الفاطمية وأعاد الخطبة للعباسيين ومنهم من غلا فى دعوته غلوا كبيرا ومنهم من ثبت على دعوته وترك اليمن إلى المغرب وهو جعفر بن المنصور المشار إليه فى هذا التوقيع فتلقاه الأئمة الفاطميون لقاء حسنا وأحلوه منزلة رفيعة حتى قيل فى تاريخ الدعوة الاسماعيلية إن المعز جعله فى مرتبة الباب وهى مرتبة روحية تلى مرتبة الإمامة . ويروى الداعى إدريس قصة تفهم منها أن المعز كان يرفع منزلة جعفر الدينية عن منزلة القاضى النعمان (راجع الداعى إدريس : كتاب عيون الأخبار نسخة خطية بمكتبة محمد كامل حسين جـ ٤) وتنسب لجعفر هذا عدة كتب فى التأويل الباطنى نذكر منها كتاب الكشف نشره الأستاذ ستروثمان ط . القاهرة سنة ١٩٤٩ وكتاب أسرار النطقاء وكتاب سرائر النطقاء وهما فى تأويل قصص الأنبياء وكتاب الفترات والقرانات وهى كلها نسخ خطية أو مصورة بمكتبة محمد كامل حسين . وينسب لأبيه كتاب رسالة الرشد والهداية نشرها محمد كامل حسين بمجلة Collectanea المجلد الأول ، ١٩٤٨ ص ١٨٥ وما بعدها) .

[١٣٢] ص ١٢٩ : عرفنا بالحسن بن على من قبل فى التعليق رقم ٦٠ (على صفحة ٧٠) ونضيف أنه لما انتصرت جيوش الحسن فى معركة رمطة فى قلورية وسره تدفق الأسرى والغنائم وتقدمت جيوشه مظفرة إلى بلادهم أجهد نفسه فى المطاردة بالجند فساقهم وعاقبهم حتى خر صريعا تحت تأثير الجهد الذى بذله وذلك فى أواخر سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م (راجع ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٩) .

[١٣٣] ص ١٣٢ : سورة الأنفال رقم ٨ ، آية ٦٠ .

[١٣٤] ص ١٣٩ على الوثيقة ٨٢ (وقد سقط رقم التعليق من الأصل) .

هذه الوثيقة التى تحمل رقم ٨٢ من أهم وثائق الكتاب ففيها نص صريح على أن المعز لدين الله ولى والده الثائر عبد الله العبد وهو لا يزال بالمهدية قبل أن ينتقل إلى مصر ، ولم يجعل العهد ى ابنه الأكبر الأمير تميم للأسباب التى ذكرت من قبل (التعليق رقم ١٢٥) (على صفحة ١١٥ ، التعليق رقم ١٢٨ (على صفحة ١٢٠) .

والمعروف أن المعز رزق بأربعة أولادهم تميم وعبد الله ونزار وعقيل . ونحن نعرف أن عبد الله ولى العهد هذا مات فى حياة أبيه المعز بعد أن ولاه أبوه حرب القرامطة بمصر .

وقد ذكر ذلك ابن ميسر فقال : وزاد الإرجاف بالقرامطة فأخرج المعز جيشا وعليه ابنه الأمير عبد الله فسار بمظلة وبين يديه الرجال بالسلاح والكراع والجنود وصناديق الأموال والخلع وانبسطت سرية القرامطة فى نواحى أسفل الأرض ، فقتل منهم وأسر ، وقبض على جماعة من الأخشيدية وغيرهم من الجند ، فانهزم القرامطة بسطح الجب . وعاد الأمير عبد الله إلى القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٣ هـ (راجع ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص٤٦ ، المقريزى : إتعاظ الحنفا . ص٢٠٣) . وتوفى الأمير عبد الله بعد ذلك بقليل ورثاه أخوه الأمير تميم بقصيدة مطلعها

« كل حى إلى الفناء يصير والليالى تعلة وغرور »

وكانت وفاته فى حياة أبيه . وكان المفروض أن يتولى الإمامة بعد المعز حفيده ابن عبد الله جريا على عقيدة الاسماعيلية فى تسلسل الإمامة وجريا على سابقة وفاة إسماعيل فى حياة أبيه جعفر الصادق . ولكن المعز لم يقم وزنا لهذه العقيدة الاسماعيلية الأساسية فى نشأة المذهب وكيانه ، فاختار ابنه الآخر نزاراً الذى تلقب بالعزيز ليكون وليا للعهد وإماما من بعده . وبذلك هدم المعز الأساس الأول من أسس الدعوة .

(وراجع فى مبدأ التسلسل التعليق رقم ٨٩ (على صفحة ٨٢) .

[١٣٥] ص١٤٧ : القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى أكبر فقهاء الدعوة الاسماعيلية على الإطلاق . فهو الذى وضع لهم فقه دعوتهم فى كتابه « دعائم الإسلام » (طبع الجزء الأول منه الأستاذ آصف على أصغر فيضى بمطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١) خدم المهدى السنين التسع الأخيرة من إمامته ثم خدم القائم والمنصور والمعز . والمنصور هو الذى ولاه القضاء فى اطرابلس بالمغرب ثم جعله قاضى قضاة المغرب . وقد اشتهرت صلة النعمان بالمعز فقد كان يجالسه ويسايره ووضع فى ذلك كتابه المعروف « المجالس والمسايرات » (نسخة خطية بمكتبة محمد كامل حسين) . وله من الكتب غير ذلك كتب تاريخية مثل افتتاح الدعوة ،

الزاهرة ، وكتاب شرح الأخبار ، ومنظومة ذات المحنة فى تاريخ ثورة أبى يزيد . ومنظومه ذات المنن فى الحوادث التى وقعت أيام المعز . وله أيضاً فى الدعوة الباطنية « كتاب تأويل دعائم الإسلام وكتاب أساس التأويل وغيرها من المؤلفات التى لا يزال الاسماعيلية يعدونها من كتبهم الأساسية . وقد طبع محمد كامل حسين من كتبه كتاب « الهمه فى آداب اتباع الأئمة » ط . دار الفكر العربى القاهرة ١٩٤٨ .

فهرست أبجدي عام

للأعلام والأماكن والمصطلحات

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(م)

(ن)

(و)

(ى)

تصويب

وقعت مع مزيد الأسف بعض أخطاء مطبعية نعتذر عنها أشد الاعتذار ، ونلفت إليها الأنظار

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٧	١٤	مذهبا	مذهبة
٤٩	١٣	كنند	كند
٥٠	٩	السامرى	السوامر
٥٠	٢٢	الحشا	الحشايا وهى الأصح
٥١	١٤	شكر الله	شكرا لله
٥٣	١٢	فأمره	فأمر
٥٨	١٩	فقصدها	فقصرها
٦٠	٢١	من	لن
٦١	١	السرادقة	الذرادقة
٦٤	٨	نفاذ	نفاد
٦٤	١٦	دنب	ذنب
٧٠	٣	بضمة	بضاعة
٧٧	١٠	٨٦	٨٥
٨٠	١	حل	جل
٨١	١٢	بحجزه	بحجرة
٨٨	٥	مح	مع
٨٩	٧	يذكر أن	يذكران
١٠٠	١٧	أثبتناها هنا	أثبتنا ها هنا
١٠٦	١٨	مرضاه	مرضاته
١١١	٥	حملين	حملان
١١٥	١٧	طاهر	طاهرا
١٢٧	١٩	نقله	ثقله
١٢٧	٢٣	تن	بن
١٢٩	١١	وفى على محسن	وفى محسن
١٣١	١٦	تتقربت	تقربت
١٣٩	١٠	مؤلانا	مولانا
١٦١	٢١	الباب الرابع	الباب الخامس
١٧١	١٧	فقلتق	فقلق